القافلة

مجلة ثقافية تصدر

كل شهرين • يوليو - أغسطس 2003



الخريجون
وتحدي سوق العمل

العدد 3
المجلد 52

معارض ومؤتمرات

يوليو 2003

- المعرض الدولي للمعدات الصناعية والتقنيات
  - دمشق: 5 - 9
- معرض الطائف الدولي للسياحة والتسوّق
  - الطائف: 9
- مهرجانات بعلبك الدولية
  - لبنان: 12 يوليو - 23 أغسطس
- معرض غاز ونفط آسيا 2003
  - كوالالمبور: 14 - 17
- معرض السياحة البحرية ومستلزماتها لعام 2003
  - جدة: 23 - 28
- معرض التسوّق في ينبع
  - ينبع: 25
- معرض صيف 2003 الدولي
  - جدة: 30 يوليو - 5 أغسطس

أغسطس 2003

- أسبوع الموسيقى العربية في دار الأوبرا
  - القاهرة: 1 - 7
- المعرض السعودي الرابع للكمبيوتر وتقنية المعلومات
  - جدة: 9 - 14
- ندوة السلامة في العمليات النفطية
  - القاهرة: 16 - 27
- مؤتمر الطاقة 2003 عالم واقعي وحلول واقعية
  - أورلاندو، الولايات المتحدة: 17 - 20
- المعرض الدولي للمنسوجات والجلود
  - الأحساء: 20 - 25
- المعرض الدولي الثالث لصناعة الأنابيب
  - جاكرتا: 28 - 29
- الندوة العالمية للاستكشاف الجيوكيميائي
  - دبلن، إيرلندا: 29 - 3 سبتمبر

المواهب الشابة

تفتح القافلة صفحاتها لتبني المواهب الشابة الواعدة من الجنسين، في أي من مجالات الكتابة، وتدعو الراغبين في الكتابة إليها إلى إرسال أعمالهم إلى العنوان التالي:

أرامكو السعودية
ص. ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
فاكس 3336 873 3 966
للاستفسار هاتف 5039 873 3 966

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبد الله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبد الرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
ناجية الحصري (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
-
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2003
جمادى الأولى - جمادى الآخرة 1424

- **توزع مجاناً للمشتركين**
للاستفسار عن الاشتراكات - هاتف: 6948 874 3 966

- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
فاكس: 3336 873 3 966 - البريد الإلكتروني:
alqafilah@aramco.com.sa

رسالة المحرر

بين أيديكم العدد الثالث من القافلة الجديدة، بعد أن قطع فريق تحرير المجلة شوطين مهمين في العددين، الأول والثاني.. وهاهو الشوط الثالث ينقضي مفعماً بترحيب القراء من جهة، ومطالباتهم وملاحظاتهم من جهة أخرى. رسائل القراء، بعد العدد الثاني، تنبئ عن نشوء نقطة التقاء بينهم وبين فريق التحرير، بعد أن أصبح وجه المجلة الجديد مألوفاً. من الطائف سررنا برسالة وكيل المحافظ، عبدالله الربيعان، التي أبلغتنا أن أهل المصيف، من المعجبين بالمجلة، أقاموا هناك حفلاً في أحد الفنادق، احتفاء بعودة حبيبتهم إليهم. ومن الأستاذ عبدالرحمن ابن عبدالعزيز التويجري، استقبلنا رسالته المشفوعة بدعائه بأن يعيننا الله على "استمرار القافلة متميزة كما ظهرت في هذا العدد". ونحن نثني على دعائه ونضيف إليه أن يوفقنا المولى لنكون دائما عند حسن ظنه وظن جميع قرائنا.

1

عددنا الجديد يبدأ بموضوع شديد الأهمية على المستويين الإقليمي والعالمي، هو عودة نفط العراق، وما ستتركه زيادة إنتاجه من النفط على ميزان الأسعار، مع الأخذ في الاعتبار شروط هذه العودة والتكهنات المتضاربة حولها. وفي مناخ الطاقة ذاته يخرج القارئ من موضوع نفط العراق، ليدخل إلى عالم زيوت التشحيم، ذلك العالم المكتظ بالأنواع والأسرار، ولا نعرف منه إلا ما تلفظه سيارتنا وتبتلعه في محطات زيوت التشحيم.

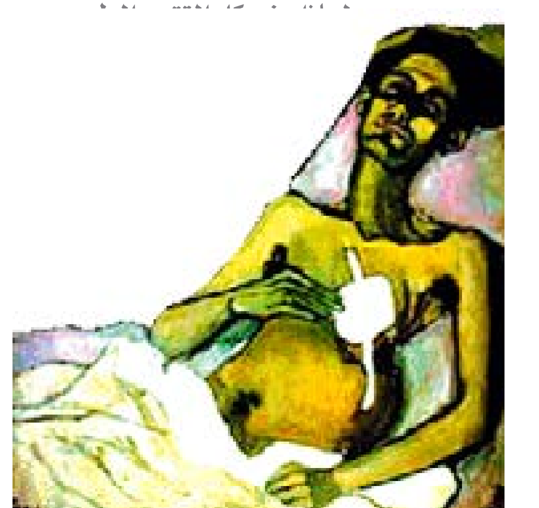
2



مناخ القضايا يبدأ في هذا العدد بباب قول في مقال. والمقال هو ما يطرح عن وسطية الإسلام وسماحته ونظرته إلى حريات الإنسان. والقول في مناقشة هذا المقال للدكتور محمد عمارة، المفكر الإسلامي المعروف. وفي هذا المناخ نستكمل موضوع جامعاتنا السعودية في جزئه الثاني، الذي يختص بعلاقة هذا التعليم بسوق العمل ضمن دائرة النقاش السائد في المنعطف الحالي لتنميتنا الوطنية الاقتصادية.

3

في مناخ العلوم والتقنية تعرض المجلة موضوعاً عن البلاستيك، الذي يحيط بنا من كل صوب وتسأل إن كان هذا البلاستيك الكثيف المتعدِّد عدواً أم صديقاً لبيئتنا.؟ وفي موضوع بالغ الأهمية تنطلق المجلة من المرض الشهير (سارس) لتطرح مجموعة من الأسئلة على عن الطب: هل هو عاجز أمام مستجدات الأمراض؟



وكالعادة تستريح القافلة عند الملف المصور، الذي يقترب في هذا العدد حين يستضيف المصورة الفوتوغرافية، ريم محمد الفيصل، من فكرته الأساس بأن يكون فوتوغرافياً يحمل طابع الفن للفن واللَقطة للَقطة. ريم الفيصل في هذا الملف تقدم صوراً بالأبيض والأسود، انتقتها من ديوانها الفوتوغرافي الذي جاب أصقاع الأرض بحثاً عن سؤال

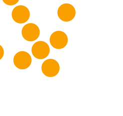


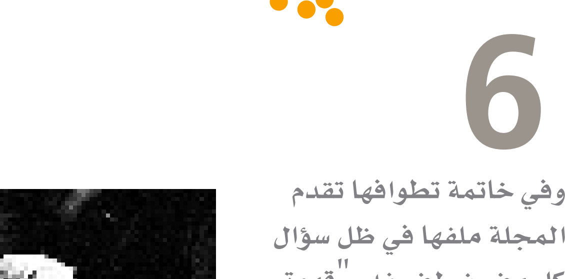
4

بعد ذلك، وفي مناخ الحياة اليومية، يجد القارئ نفسه أمام الرصيف، ذلك الكائن (المدني) المتعدد الوجوه. ومن الرصيف ينتقل إلى السياحة، الموضوع الذي يفرض نفسه كل صيف. والمجلة تتناول هذا الموضوع من باب شروط السياحة الممتعة وخصوصية السياحة المعلبة، والأخيرة هي التي أمعن فريق تحرير المجلة في قراءة إيجابياتها وسلبياتها، إضافة إلى تناول الأبعاد الثقافية للسياحة. وفي باب السلامة، ضمن هذا المناخ، تواكب المجلة حضور الشمس القوي في أيامنا هذه. وتطرح هذا الحضور بالتوعية لجانب مهم وهو الضربة الحرارية أو ضربة الشمس.

5

يحل بعد ذلك مناخ الثقافة والأدب، وفي مطلعه موضوع عن محطة القدس الإذاعية، أول محطة عربية بعد القاهرة. يليه موضوع للكاتب والناقد إلياس سحاب عن العربي المعاصر ولغته، حيث يلقي الضوء على مخاطر اهتزاز علاقة الإنسان بلغته الأم. وبعد ديوان الأمس عن فخر المرأة بالرجل وديوان اليوم الذي يتناول الديوان الجديد للشاعر جاسم الصحيح "الأبجدية تنتحب"، يطالع القارئ مراجعة لمجموعة فهد المصبِّح القصصية الجديدة: "الزجاج وحروف النافذة"، حيث نتعرف من خلال هذه القراءة على جنس القصة القصيرة جدا.





6

وفي خاتمة تطوافها تقدم المجلة ملفها في ظل سؤال كل مضيف لضيفه: "قهوة أم شاي؟" وقد طارد فريق تحرير المجلة هذا السؤال العادي البسيط، ليكتشف تاريخ المشروبين الشهيرين وحاضرهما وأنواعهما واستهلاكهما حول العالم. كما يناقش الملف موجة الأخبار الطبية عن أثرهما الإيجابي على الصحة، بعد أن ساد الاعتقاد لفترة طويلة بضررهما البالغ!.



الرحلة معاً

لنحفظ أبناءنا.. للوطن

الأحداث التي ألمّت ببلادنا، في الآونة الأخيرة، أشارت إلى الكثير من مواقع الخلل في العلاقات الأسرية. إلى ذلك الحد الذي توقفنا فيه مندهشين إزاء حالات غريبة في العلاقة بين هذين الطرفين المتلازمين.

فيض من التحقيقات والتقارير الصحفية نقل إلينا صوراً متعددة من غياب أولياء الأمور عن حياة أبنائهم وإخوانهم. الأمر الذي يفسر حتماً انزلاق الأبناء إلى المهالك الكبرى والصغرى، ويرسلهم، مع سبق الغفلة من الأهل، إلى حيث الأفكار الملتبسة، التي توقعهم في شر أعمالهم، وتوقع أهاليهم في الحسرة والندم، حيث لا تنفع وقتها حسرة أو ندم.

ما يثير التحفظ هو: كيف يخرج (ولد) من البيت ويغيب سنوات لنكتشف فجأة، بعد أن تقع الفأس في الرأس، أننا فقدناه منذ زمن؟ كيف نصدق أننا نترك فلذات أكبادنا ليلتهمهم الليل بأسراره وفواحشه؟ ألا نسأل عنهم من باب المسؤولية، التي هي من باب التربية؟ من يربي أولادنا إذا نحن أغلقنا أبواب بيوتنا على غرفهم الخالية؟ ومن يعيدهم إلينا إذا هم وقعوا في حفر الأوهام والآفات؟! هل نعي مسؤوليتنا كآباء وأمهات، أم أننا، في ظل انشغالاتنا ومزاجاتنا، نترك الحبل على الغارب ليصفعنا الواقع المرير الذي نكتشف فجأة أن أبناءنا ينغمسون فيه؟

أسئلة لها أول من دون آخر، ولا بد لمواجهتها، بالأجوبة الصحيحة والصريحة، أن توضع على المحك الأول، أن تستدعى التربية، باعتبارها بيت القصيد، لتفصص وتناقش مع كل الأطراف: الأب والأم والأخوة الكبار. ولا مانع أن تعقد لهذه المناقشة الندوات المتخصصة الطوال لتشخص الداء الذي ضرب جسم التربية وعزل بعض الأبناء عن محيطهم الأسري بمثل هذه الصورة المخيفة، التي تهددهم في صميم انتمائهم الوطني.

لم نكن فيما مضى يخطر ببالنا أن انحرافات الأبناء قد تصل إلى هذا المدى من الخطورة، ذلك لأننا كنا مطمئنين، أكثر من اللازم، إلى تحصيننا بالقيم والثوابت والعادات الاجتماعية الحميدة. لكن يبدو أننا أسرفنا في هذا الاطمئنان ولم نلاحظ أن الدنيا تتغير كل دقيقة من حولنا، وأن طرقاً تكتظ بالشرور تُفتح أمامهم ليسافروا فيها من غير عودة. طال، فيما يبدو، سباتنا إلى أن تحولت علاقة الأب أو علاقة الأم بالابن إلى شيء من الحضور الشكلي في حياته، بينما تركنا أفكاره وهواجسه وأعماقه تلعب بها رياح الآخرين، وتدفعها وتلونها كيف تشاء.!!

ليس الابن مجرد كائن يأكل ويشرب وينام.. أو يغيب دون أن ندري لماذا غاب أو متى سيعود. الأبناء أمانات في أعناق الرجال والنساء من آبائهم أو أمهاتهم، يجب أن يسلموها للوطن مشفوعة بحبه والانتماء له وصد المكاره عن مكتسباته وحياضه. هذا قدرهم ودورهم الذي يفترض أن ينهضوا به على وجهه الأكمل، وإلا فإن الأب والأم يصبحان بلا دور.

إن الغذاء الذي نطعمه عقولهم أهم من الغذاء الذي نطعمه بطونهم.. من دون غذاء العقول هذا يصبح أبناؤنا عرضة لكل المغريات والأهواء التي تطاردهم وتبذل جهدها لتصطادهم وتستغلهم وتحرفهم عن جادة الصواب. ولعلنا بالتجربة قد علمنا أن بيتاً يخلو من التربية الحقيقية والصرامة في مراقبة الأبناء وتتبع نجاحاتهم وإخفاقاتهم هو بيت معرض للأذى والبؤس ومحكوم عليه بالفشل.

كلنا نعلم علم اليقين أن بعض الشقوق اتسعت على الرقع.. وأن الزمن، زمننا، يفتح نوافذ على موبقات يصعب حصرها أو مراقبتها: أجهزة الاتصال الحديثة الشخصية، الإنترنت، الفضائيات والإذاعات التي تبلغ مرسلاتها كل ركن مهما صغر أو ابتعد عن المرسل المتربص.. الخ، لكن في مقابل هذه الشقوق تبقى درجة الإحساس بالمسؤولية هي الضامن الوحيد لمنع التباسات الأفكار والمشيئات عند أبنائنا. فإذا كنا نسعى، بكل ما نملك من طاقة وحزم، لنربي أبناءنا على حبهم لأنفسهم وأهليهم ووطنهم فإننا سننجح مهما تسربت من الشقوق مضادات هذا النجاح. أما إذا غفلنا أو أهملنا أو تمادينا في الاتكال على حسن ظننا بهم فإن النتائج ستكون وخيمة ومؤذية لهم ولنا.

علينا إذن، من غير أن يستثني أحد نفسه من المهددات التي تحدق بأبنائه، أن نعيد النظر في كيفية حضورنا في حياة أبنائنا ودرجة اقتراب هذا الحضور مما حولهم ومن حولهم. لنلتصق بهم ولنفتح لهم عقولنا كما نفتح لهم قلوبنا. لنستمع إليهم بآذان صاغية ونحاورهم على قدر ما نتمكن من خلق ثقتهم بنا وقناعتهم بأفكارنا.. بذلك فقط نربيهم، لنحفظهم للوطن، ولأنفسهم ولنا.

ويبقى مما أريد أن أحض عليه أن تواصل صحفنا ووسائل الإعلام في بلدنا قراءة واقع العلاقات الأسرية في مجتمعنا، فهي بعد أن قدمت منقولات ميدانية بالغة الدلالة على فقدان الصلات بين الأبناء وآبائهم وأمهاتهم، ينتظر أن ترفع وتيرة فحص هذه الإشكالية وتخضعها لمشرط المتخصصين والمعنيين في مختلف الأجهزة، لا سيما الأجهزة التربوية والتعليمية والإعلامية.

رئيس التحرير



ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

احتفال الطائف بالقافلة

عوّضنا الله عن التوقف القسري الذي مرّت به القافلة، بصدورها بحلتها الرائعة، وقد تسلمنا العدد الجديد وفوجئنا بهذا التطور الشامل الذي يخاطب الجميع. وأقمنا حفلاً صغيراً في أحد فنادق الطائف، حضره بعض المعجبين بهذه الرائعة احتفاءً بعودتها، وكان بودّنا حضوركم وحضور كل من له مساهمة في إعداد هذه المجلة وإخراجها. أكرر الشكر على جهودكم وجهود كافة العاملين وهيئة التحرير وكل من يتعب ويجتهد ليتحفنا بهذه الهدية الرائعة.

عبدالله الماضي الربيعان
وكيل محافظ محافظة الطائف

المضمون والإخراج

تلقيت ببالغ السرور عدد مايو/يونيو من مجلة القافلة، والذي كان حافلاً بالعديد من الموضوعات ذات المضمون الثقافي والعلمي العميق، وبإخراج صحفي متميز يعكس الخطوات التطويرية التي تمّ إدخالها مؤخراً على المجلة. أكرر غبطتي وسعادتي بهذا الإنجاز العلمي الرائع.. وأتمنى للقافلة المزيد من التقدم والنجاح.

عبدالمحسن بن داود الخلف
مدير عام إذاعة الرياض المكلف

في مكتبتنا المركزية

ببالغ الغبطة والسرور تسلمت مجلة القافلة في ثوبها الجديد. وقد سعدت بما حوته من موضوعات متنوعة وصور معبرة تخاطب مختلف شرائح القرّاء وفئاتهم. ولم يكن لهذا العمل أن ينجح لولا ما بذل فيه من جهود موفقة، وعمل مخلص متواصل من جميع المشرفين على تحريرها. أشكر لكم هذا الإهداء الذي سيأخذ مكانه بين مقتنيات مكتبتنا المركزية، على أمل الاستمرار والتواصل بما يتوافر لديكم من مطبوعات ودوريات.

د. سعيد بن عطية أبو عالي
عميد كلية الباحة الأهلية للعلوم

نشر الوعي

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير كتابكم والمرفق به نسخة من العدد الجديد لمجلة القافلة التي ظهرت عليها آثار الخطوات التطويرية المهمة التي بدأتموها، مما سيساهم - إن شاء الله - في نشر الوعي الثقافي في هذا الوطن، ويكون امتداداً للدور التاريخي الذي قامت به القافلة في مسارها الطويل.

تمنياتي لك ولأسرة التحرير بالتوفيق، وأعانكم الله على استمرار القافلة متميزة كما ظهرت في هذا العدد.

عبدالرحمن بن عبدالعزيز التويجري
الأمين العام للمجلس الاقتصادي الأعلى

المزيد من الوقت للحكم

تلقيت بمزيد من الامتنان الإصدار الأول للقافلة بعد التعديل الذي طرأ عليها كماً ونوعاً. وقد هزّ تصفحها مشاعري لما لم تألفه في الشكل والحجم. غير أن استجابتها للتغيير قد فرضته وتيرة الأيام.. اسمحوا لي أن أهنئكم على الثقة بالنفس بهذا الإصدار الجديد الذي يحتاج قرّاء القافلة من الرعيل الأول إلى مزيد من الوقت للحكم عليه شكلاً ومضموناً. وتقبلوا جلّ شكري وتقديري لتزويدي بهذا الإصدار القيّم.

حسن علي سلطان - الرياض

نضجت لتلائم بيئتنا

في نظري الشخصي أن مجلة القافلة التي كنّا نطلّع عليها عندما كنّا صغاراً، قد نضجت شكلاً ومضموناً لتتلاءم مع بيئتنا المتغيرة وأخذت الشكل الذي تستحقه من العناية والاهتمام.

د. وهيب عبدالفتاح صوفي - جدة

إضافة إلى مكتبتنا

يسرنّا أن نعلمكم بأننا تسلمنا بيد الامتنان العدد الأول من مجلتكم الغرّاء القافلة والتي أصبحت إضافة جديدة وقيّمة إلى مجموعة مقتنياتنا من الدوريات. كما نتطلع إلى استمرار التعاون الثقافي بيننا، شاكرين لكم حسن اهتمامكم وتعاونكم.

عماد صباح
مركز جمعة الماجد - دبي

لخدمة ثقافتنا

ما فتئت مجلتكم التي أتلقى أعدادها بانتظام تجتهد في تقديم عمل متكامل يخدم ثقافتنا العربية والإسلامية. وقد جاءت مؤخراً في صيغة جديدة غاية في الروعة شكلاً ومضموناً.. لذلك لا يسعني إلا أن أسأل الله العليّ القدير أن يثبّت خطاكم وأن يكلّل جهودكم بالنجاح.

توفيق بن أحمد
جربة - تونس

المادة المنتقاة

أشكركم على العدد الجديد من مجلة القافلة بحلته الجديدة التي تلقيتها بكثير من الارتياح ومتعة القراءة وجودة المادة المنتقاة.. متمنياً لكم وللقافلة دوام التوفيق والنجاح.

إحسان بن علي بو حليقة - الرياض

فخورون بالقافلة

إنه فخر لنا نحن القرّاء بأن نرى مجلتنا الحبيبة قد وصلت إلى هذه الدرجة من التطوّر في الإخراج والتنسيق في الأبواب واختيار المواضيع القيّمة التي تعتبر بحق من المراجع العلمية والأدبية التي يرجع إليها كل طالب علم أو باحث ليجد ضالته بين صفحات هذه المجلة. وكم نحن فخورون بهذه الكوكبة النيّرة المثقفة المدركة لاحتياجات التطوير مواكبةً للتطورات الإعلامية والثقافية التي تعيشها بلادنا الغالية.. فتحية تقدير لكم ولجميع العاملين معكم على هذه الإنجازات العظيمة.

محمد بن ماحي مليباري
مكة المكرمة

حروف صغيرة..

وصلني العدد الأخير من مجلة القافلة، وفي مجلسي يوم الجمعة، نالت المجلة اهتمام الحاضرين، وصارت أحد محاور المناقشة. ولكن غالبية من في المجلس حملتني واجب نقل التقدير والثناء مع التوصيات الآتية:

- أن يتم تكبير الحروف، حيث أن بعض محتويات المجلة مكتوب بحروف صغيرة يصعب على الكثير من الناس استبصارها.
- العناوين الفرعية في قصائد «إلى بغداد» تكاد تختفي، والأجدر أن تكون أوضح من النص.

د. علي بن عبدالعزيز العبدالقادر
الدمام

القافلة: نوافقك الرأي فيما يتعلق بالقصائد «إلى بغداد»، وسنحرص على عدم تكرار الأمر. أما بالنسبة لحجم الحروف، فإننا نضطر أحياناً إلى اعتماد الصغير نسبياً منه، تلافياً لاختصار المادة المنشورة، مع الاعتراف أن ملاحظتك محقة.

..وحروف مريحة!

أعرف أنكم لا تريدون المديح، بل أكثر ما تحتاجون إليه الملاحظات والاقتراحات، وإليكم بعض ما دار في خاطري بعد اطلاعي على العدد الجديد من مجلة القافلة لشهري مارس وأبريل:

1- لقد أعجبت بالملف المتميز والرائع عن الجسور.
2- أعجبني تقسيم الموضوعات في المجلة، والحرف الجيد الواضح والمريح للعين.
3- أقترح أن يكون في المجلة باب للأخبار المتعلقة بنشاطات الشركة وموظفيها وكذلك تغطية النشاطات المحلية.
4- بالنسبة للإخراج الفني والشكلي جيد ومناسب. والأفضل أن يكون الورق مصقول وأخف من ذلك.
5- أن يكون هناك تركيز على المواضيع البيئية، وشؤون الأسرة والأطفال والمواضيع الإسلامية.
6- من الأبواب التي حازت على إعجابي باب «الحياة اليومية» لتنوعه ونوعية التحقيقات والتقارير فيه.
7- لا بد من تخصيص باب للتقارير والتحقيقات في المجلة.

راجياً لكم التوفيق والنجاح.

نضال المصري - الرياض

القافلة: نشكرك على ملاحظاتك واقتراحاتك ونعتقد أن العدد الحالي يلبي بعضها كما أن الباقي سيكون موضوع بحث فريق التحرير.

جامعة الملك فيصل

ذكرتم في موضوع «مسيرة التعليم العالي» المنشور في العدد الماضي، وتحديداً في رسم شجرة التعليم العالي أن جامعة الملك فيصل مقرها الدمام والصحيح أن مقرها الأحساء.

تركي العنزي
معمل الحوية رقم 2

القافلة: يبدو أن الانطباع العام عن وجود مقر الجامعة بالدمام قد غلب على بعض المصادر التي اعتمد عليها فريق البحث في موضوع الجامعات. وعلى كل حال فإن الشجرة التي نشرت مع الموضوع أشارت إلى الكليات التي تتبع الجامعة بالأحساء وتلك التي تتبعها بالدمام.

صفحة في اللغة

يؤسفني ويزعجني كثيراً اختفاء موضوع الصفحة الأخيرة في المجلة، والذي كان بعنوان «صفحة في اللغة» ويسلّط الضوء على الأخطاء الشائعة في اللغة العربية، بأقلام الأساتذة والمتخصصين. ولا أخفي عليكم بأنني من المهتمين بلغة القرآن. فقد كنت في شوق ولهفة لوصول المجلة إلى منزلي كل شهر والسبب هو الصفحة المختفية في العدد الجديد. فهل أطمع أن إعادتها إلى حيّز الوجود في أسرع وقت؟ أرجو ذلك.

عباس حبيب - مملكة البحرين

القافلة: ملاحظتك محل عناية فريق التحرير. مع الأمل في أن نجد مجالاً لنقترح صيغة مختلفة للتعامل مع اللغة العربية وشؤونها المختلفة، والتي لا تقتصر على الأخطاء الشائعة.

قافلة القرّاء

تعقيباً على الهوامش الإعلامية

أريد أن أعقب على مقال الأستاذ محمد عبدالعزيز العصيمي رئيس التحرير حول «هوامش إعلامية على دفتر الحرب» بالآتي:

إن الميديا في حقيقتها تأتي وفق ما يتصوره المتلقي بناء على ما يريده، وما يشكله لنفسه من قوالب تغلفه، بألوان الزوايا الخاصة، فلا توجد حقيقة كاملة ولا حقيقة مطلقة أو رسالة محايدة، وضرب الأستاذ العصيمي مثلاً بمتابع أخبار الحرب الأمريكية البريطانية على العراق من العراقي، ومن الأمريكي، فلكل منهما نظرة تنطلق من ذات المرتكز، والحقيقة عند كل منهما تكون وفق: «ما يريد أن يراه كل منهما على الوجه الذي يتمناه».

وكذلك بعض الأمور الحياتية، يمكن تحجيمها ويمكن تجاوزها وتجريمها بحسب «راكبة الدماغ» أي بحسب الانطباع العام، والحالة النفسية، ومستوى الوعي والتفكير، ودرجة الثقافة، ودرجة الذكاء، والقدرة على التحليل والتركيب، والاستنتاج والمقارنة.

فاللوحة البصرية يمكن إدراكها، بالعين المجردة، والتعمق فيها يحتاج إلى نوع من الانتباه والتركيز وربط أشكالها ورموزها بشيء من الواقع والحياة، وقد يختلف تحليل اثنين قد يكونا شقيقين، في تحليل اللوحة وإدراك أبعادها ومراميها. هذا على مستوى البصريات وهي حسيّة، فكيف بالمعاني والإشارات والإيماءات والرموز والصوتيات والأفكار؟

عدنان أحمد كيفي

أين هذه المواضيع؟

ثمة ملاحظة أرجو تقبلها تتعلق بخلو المجلة من الفقرات الثقافية ذات الطابع الديني أو ما له علاقة بثقافتنا الإسلامية. وقد كانت القافلة في أعدادها السابقة، تحتوي على صفحة في آخر المجلة حول اللغة العربية وأخطائها الشائعة، وكانت بالفعل فقرة لطيفة، وكنت أحرص على متابعتها. وهنا أتساءل عن غياب هذه الفقرة كباقي مواضيع اللغة العربية بشكل عام.. في انتظار الجواب إذا أمكن.

د. محمد أحمد الجوير
مستشار البرامج بالتلفزيون السعودي

القافلة: نرجو أن تجد ما يرضيك في مقال «الوسطية في الإسلام» المنشور في هذا العدد، بعدما فاتك على ما يبدو مقال «أخلاقيات الحرب في الفتح الإسلامي» المنشور في العدد الأول.. أما بالنسبة للغة العربية فموعدنا معها قريب في مقالات مختلفة لم تؤجل إلا لضيق المساحة، ونأمل أن تنال إعجابكم أكثر من الصيغ التي شاع تناولها في الماضي في عدة وسائل إعلامية.

لمزيد من التعاون

نشكركم جزيل الشكر على العدد الجديد من مجلة القافلة التي سعدنا بالإطلاع على مواضيعها الفنية وطباعتها الأنيقة التي أضافت تميزاً خاصاً بهذه المجلة، حري أن يجعل منها لبنة جديدة في صرح الثقافة العربية. ولقد كان محور العدد عن الطباعة مفيداً في معلوماته ودقيقاً في عرضه لتطور صناعة الطباعة. وربما تحتاج المجلة لإثراء أكبر بالموضوعات الثقافية والعلمية المعاصرة والتي يهتم بها عادة الشبان والمثقفون، وأنتم أهل لذلك. وأعتقد أنه يمكننا أن نتعاون إذا رغبتم بإرسال الإصدارات الجديدة من دار الفكر شهرياً وما يستجد لدينا من مطبوعات مع عرض لها، مع تمنياتنا بالتوفيق والنجاح ولمجلتكم الانتشار الواسع.

محمد عدنان سالم
مدير دار الفكر - دمشق

القافلة: شكراً على عاطفتكم وملاحظاتكم. ونرحب بحرارة برغبتكم في التعاون، وبإصدارات داركم المعروفة بمساهمتها القيّمة في عالم الكتاب العربي ونشره.

ملف الطباعة

بعد توجيه التحية والتهنئة الصادقة على الحلّة المميزة التي عادت بها القافلة إلينا بعد توقف أثار قلقنا، أرجو أن تسمحوا لي بإبداء ملاحظة تتعلق بالملف المنشور في آخر العدد. إن فكرة هذا الملف جيدة جداً ومفيدة؛ إذ أعتبرها لفت نظر جدّي إلى أمور نعرف أنها موجودة في حياتنا ولكننا لا نعرف أهميتها تماماً. غير أن لي مأخذ على ملف الطباعة إذ جاء وكأنه موجه إلى المهتمين بهذه المهنة أكثر من غيرهم، وركّز على الجوانب التقنية التي تهم أناساً معينين دون غيرهم، في حين أنه من الأفضل أن يكون ثقافياً عاماً، وأقرب إلى حياة الناس واهتماماتهم اليومية، إذ لم يكن في صورة الملف أوراق العملة مثلاً، وهي من أهم المطبوعات.

لؤي عادل النحيلي
تل كلخ - سوريا

القافلة: في تصورنا أن ملف الطباعة قريب من حياة الناس وهم الذين لا تنقضي ساعة ولا تمر بهم مطبوعة ما كبيرة كانت كالكتاب أو صغيرة كفاتورة محطة وقود. وتقنيات الطباعة واحدة مع إضافة خاصة بالنقود نعتذر عن إهمالها بسبب ضيق المساحة.

الاختصار والتنوع

تعلمون أن وقت القارئ اليوم هو غير ما كان بالأمس. ذلك أن التلفاز وكثرة الجرائد والمطبوعات والفارس الجديد «الإنترنت» والبث الجوال.. من الأمور التي تجعل وقت القارئ ضيقاً. وهذا يعني أن المطبوعة التي تسعى إلى الاحتفاظ بقرائها، عليها تقديم مادة مختصرة جداً ومتنوعة. فاسمحو لي أن أطرح بعض الآراء حول هذا الشأن:

- اختيار موضوعات علمية قصيرة (وقد ظهر هذا عندكم).
- تعزيز المقالات بالصور المؤثرة.
- تخصيص صفحات يعاد فيها نشر موضوعات منتقاة مما سبق نشره في الماضي، لأن المعلومات القديمة تشدّ القارئ.
- إعادة صفحة في اللغة لأنها نافذة جيدة ما كان يجب وقفها. خاصة بعدما طغت العجمة نتيجة القصف الإعلامي الموجه لقتل اللغة العربية.
- وأخيراً بما أن الإصدار هو كل شهرين، فالأمر يشكل فرصة لتقديم هدية مع العدد تكون صورة نادرة لعمل معين، أو قصيدة، أو خارطة منطقة أو مدينة معينة، على أن تكون في هيئة يمكن وضعها في إطار يعلق في المجلس.

إبراهيم بن عويض العتيبي - الرياض

القافلة: شكراً على ما تقدمت به من اقتراحات، ونؤكد لك أنها ستكون موضع اهتمام فريق تحرير المجلة، أما الهدية فإنها موجودة في الملف المصوّر من أول الأعداد الجديدة للقافلة، ويمكن للقارئ نزع الصورة الرئيسية في الملف ووضعها في إطار لتعليقها.

تقويم موسّع

لا شكّ أن هناك تطوراً وتحسناً ملحوظين في مسيرة القافلة، خاصة في العددين الأخيرين منها بعد العدد الخاص. ولتقويم مبكر لمرحلة القافلة الجديدة من خلال اطلاعي على عدديها هذين، ألفت النظر إلى الآتي:

- الإخراج بدا متميزاً من حيث التصميم والطباعة والألوان والصور.
- على مستوى الكتابة جاءت القافلة ممتازة، ومن جديدها «الفاصل المصوَر» و«ملف العدد» والمقالات التي تحمل المعلومة الجيدة في قالب واضح وصيغة تسهل قراءتها.
- أرى في تبويب المجلة أن هناك تداخلاً في بعض المسميات، وأن بعض المقالات لا يندرج تحت مسمى المحطة التي وضع بها.

لذا أرى أنه من الأفضل تغيير بعض المحطات لتصبح كالآتي: علوم وتقنية، قضايا، الحياة اليومية، الثقافة، الاستطلاعات، وملف القافلة.. ومن الأفضل أن يعلن عن ملف العدد ضمن وحدة المطبوعات العربية في أرامكو السعودية ليقوم المحررون وغيرهم بجمع المادة اللازمة لهذا الملف. وقد يستكتب أناس من خارج الشركة لإنجاز ملف متكامل على مستوى الملف في العددين السابقين.

عبدالمحسن الشبل - الظهران

القافلة: شكراً على الاقتراحات التي اضطررنا آسفين إلى اختصار الكثير من تفاصيلها المهمة لضيق المجال. ولكننا نؤكد لك أنها موضع اهتمام.

قوافل الثلج

اطلعت على العدد الأخير من مجلة القافلة الغراء، وقد أعجبتني بمادتها الفنية وشكلها الأنيق. إنه لعمل ثقافي عربي يفتخر به حتى في مثل هذا البلد الذي نعيش فيه، رغم الإمكانات الهائلة المتوافرة هنا في مجال الصحافة والطباعة. ليس أمامنا هنا من سبيل للاطلاع على الصحافة العربية والخليجية خاصة سوى من خلال «الإنترنت». نبحث ونبحث عن الكلمة العربية التي ما زالت عابقة بكل الأشياء الطيبة والنبيلة وفقكم الله في عملكم الثقافي هذا، وآمل أن يجمعنا يوم ما، بعيداً عن قوافل الثلج المنتشرة هنا في كل الأصقاع.

غيلان حسن - لوليا، السويد

نعمل لغدنا

المورد العام.. مورد خاص

عندما سئل عدد من موظفي أرامكو السعودية، في استطلاع لنشرة (القافلة الأسبوعية): ما هي الموارد؟ أجابوا بصوت واحد: هي الإنسان والوسيلة.. الإنسان العامل، وما يستخدمه من أجهزة وأدوات ومكاتب وسيارات وهواتف ثابتة وجوالة.. الخ

وحين سئلوا: كيف تحافظون على هذه الموارد؟ اتفقوا جميعاً على أن الإنسان، الذي يقع على رأس موارد أية منشأة، هو المطالب بحكمة التصرف مع الموارد الأخرى، فمنه تبدأ المسؤولية وإليه تعود. ومتى ما كان غير مبال فإن الموارد العامة لجهة عمله تتعرض للهدر، مما يضيّع عليها الكثير من الأموال ويقلل من حجم طاقاتها التي يجب أن تسخر لزيادة الفعالية والربحية.

الكثير من كتب الإدارة في عصرنا الحديث اعتنت بالإنسان كمورد بشري أساس، ووضعت أمامه جملة تصرفات خاطئة في حق الموارد الأخرى. وطالبته، في نفس الوقت، بأن يرفع من قدر إحساسه بالمورد العام الذي يتعامل معه أو يحيط به. ولأجل ذلك لم تنفك بيوت الخبرة الإدارية عن تنظيم المحاضرات والندوات، وأحياناً الدروس في الفصول النظامية، للتعريف بماهية الموارد وابتكار مختلف السبل للمحافظة عليها.

ما هو متفق عليه أن موارد أية منشأة، صغيرة أم كبيرة، تخضع في جزء كبير من مسؤولية المحافظة عليها للرقابة الذاتية البحتة. على سبيل المثال إذا كانت شبكة الإنترنت مورد اتصالي تتمتع به أية شركة فإن موظفها القابع أمام جهاز الكمبيوتر هو الذي سيحسن التصرف مع هذه الشبكة أو يسيء هذا التصرف، تبعاً لجديته أو (تسكعه) ما بين مواقع الشبكة. ومن المستحيل أن تعيّن الشركة رقيباً يطارد كل قابع أمام الكمبيوتر لتصطاد زياراته التي تهدر مورداً مهماً من مواردها. كما أن من المستحيل أن تراقب أية شركة سياراتها: كيف تستخدم وفي ماذا تستخدم هذه السيارات؟ هل تستغل في (مشاوير) شخصية أم أن الموظف يلتزم بقانون عدم استخدامها إلا لأغراض العمل؟ ويمكن أن نقيس على ذلك التعامل مع كل الموارد التي يصعب حصرها.

لا يمكن لأية جهة، مهما بلغت درجة حساسيتها ورقابتها على مواردها، أن تضبط ترمومتر الحفاظ على الموارد، ما لم يكن لدى العاملين بها الشعور المبدئي (الذاتي) بأن كل ما هو عام هو في النهاية خاص وشخصي، لا يجب الاستهتار أو التفريط فيه. ويبدو أن على بيوت الخبرة الإدارية أن تركز في هذا الاتجاه: المخاطبة، في كل فعالياتها، على قاعدة أن ما هو مورد عام ليس أقل أهمية مما هو خاص، إن لم يكن أهم.

عودة نفط العراق.. في ميزان الأسعار

هل سيتمكن العراق من زيادة طاقته الإنتاجية بسرعة وإلى أي حد؟ وهل سينسحب من أوبك أم لا؟ وإذا حصل، فأي أثر سيتركه هذا الانسحاب على سوق النفط وأسعاره؟ أسئلة تحظى باهتمامات المتابعين للشؤون النفطية. الباحث المتخصص في شؤون الطاقة، الدكتور **أنس الحجي*** يستكشف للقافلة آفاق التطورات المرتقبة لصناعة النفط في العراق وسقفها المحتمل، ويعرض وجهة نظره الشخصية، حيال هذا الموضوع..

قامت روسيا منذ الصيف الماضي بمعارضة أي حرب مع العراق، كما هددت باستخدام حق الفيتو في الأمم المتحدة لمنع الولايات المتحدة من اجتياح العراق تحت غطاء دولي. وتم تفسير الموقف الروسي في الصحافة الغربية والعربية بأنه محاولة لحماية العقود التي وقعتها شركات النفط الروسية مع العراق. ولكن الواقع أن روسيا لم تكن مهتمة كثيراً بعقودها النفطية في العراق لأنها محمية من قبل القانون الدولي من جهة، ولأنها أيقنت أن الشركات الروسية ستشارك في تطوير صناعة النفط العراقية على كل الحالات لأن صناعة النفط العراقية تتطلب كمية ضخمة من رأس المال والخبرات التي لا يمكن للشركات الأمريكية منفردة أن توفرها. أضف إلى ذلك أن الأجواء السياسية والعوامل التاريخية تتطلب مشاركة روسية، خاصة أن للشركات الروسية أسبقية في الوجود في العراق ولديها معلومات فنية وتقنية عن الحقول العراقية لا تملكها الشركات الأمريكية في الوقت الحالي.

إذا كان قلق روسيا بشأن عقودها النفطية مع العراق أقل بكثير مما أشاعته وسائل الإعلام، لماذا كل هذا القلق الروسي من الاجتياح الأمريكي للعراق وسيطرة الشركات العالمية على النفط العراقي؟

* أستاذ بجامعة شمال أوهايو الأميركية

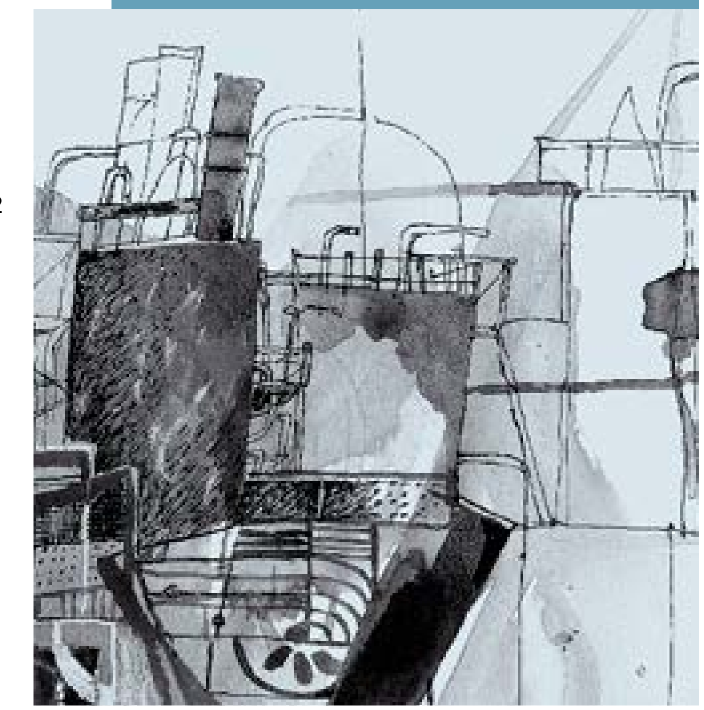
إن سر معارضة الحكومة الروسية للولايات المتحدة في مجلس الأمن يكمن في زيادة اعتماد روسيا على صادرات النفط الروسي وخوفها من انخفاض أسعار النفط في المستقبل إذا قامت شركات النفط العالمية بتطوير الحقول العراقية. و هناك العديد من الوثائق التي تدل على أن أغلب الحوار الأمريكي-الروسي فيما يتعلق بالهجوم على العراق لم يكن يتعلق بالعقود الروسية وإنما بمستقبل أسعار النفط. وهناك إشاعات قوية بأن الولايات المتحدة تعهدت لروسيا بألاَّ تنخفض أسعار النفط عن 21 دولاراً للبرميل خلال السنوات القادمة، وهو السعر الذي اعتمدته الميزانية الروسية خلال العامين القادمين. وخوف الروس الشديد من انخفاض أسعار النفط، يعود إلى تخوفهم من انهيار الاقتصاد الروسي الذي نما نمواً كبيراً خلال السنوات الماضية بسبب انتعاش صناعة النفط الروسية وارتفاع أسعار النفط في الفترة نفسها. ويبدو أن القيادة الروسية تحاول ألا تكرر ما حدث في الماضي حيث أسهم انخفاض أسعار النفط في انسحاب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان، وسقوط الاتحاد السوفيتي، وخسارة دولة الشيشان التي لم تتمكن روسيا من السيطرة عليها إلا بعد ارتفاع أسعار النفط في عام 2000م، وانهيار الاقتصاد الروسي في بداية عام 1999م.

إذا كان هذا موقف روسيا، فما هو موقف الدول العربية التي تعتمد أكثر من روسيا على صادرات النفط؟ إذا كان التخوف الروسي صحيحاً فإن الدول العربية، والخليجية منها بشكل خاص، ستكون في مأزق مالي كبير خلال السنوات القادمة. ولكن، هل المخاوف الروسية في محلها؟ وهل سيتمكن العراق من زيادة طاقته الإنتاجية بشكل سريع وكبير؟ وحتى لو تم ذلك، هل سيؤدي إلى انهيار أسعار النفط كما يتوقع البعض؟

هل سيتمكن العراق من زيادة إنتاجه بسرعة؟

لن يتمكن العراق من زيادة إنتاجه بسرعة، ولن يتمكن من زيادة طاقته الإنتاجية إلى 6 أو 8 ملايين برميل يومياً خلال السنوات السبع القادمة كما يثير البعض. فالعراق لن يتمكن على المدى القصير من زيادة إنتاجه إلى مستويات ما قبل الاجتياح أو إلى مستويات ما قبل غزو الكويت (حوالي 3.5 مليون برميل يومياً) للأسباب الأربعة التالية:

من الممكن أن يزيد العراق إنتاجه ليتجاوز مليوني برميل يومياً ولكن لفترة قصيرة فقط



1- تشير البيانات التاريخية إلى انخفاض إنتاج كل الدول النفطية بعد كل تغيير في قيادتها السياسية. فقد انخفض إنتاج إيران بعد ثورة مصدق في الخمسينات، كما انخفض بعد الثورة الإيرانية في عام 1979م. كذلك انخفض إنتاج روسيا ونيجيريا وإندونيسيا والإكوادور وليبيا بعد تغير القيادة السياسية، كما انخفض إنتاج العراق بعد كل تغير سياسي منذ الخمسينيات، وانخفض الإنتاج بعد مجيء صدام حسين للسلطة في عام 1979م. وبالنظر إلى هذه الحالات نجد أن أغلب هذه الدول استغرقت من سنة ونصف إلى سنتين للعودة إلى الطاقة الإنتاجية التي كانت عليها قبل التغيير السياسي. لذلك فإنه من المتوقع أن يحتاج العراق إلى سنة ونصف على الأقل حتى يعود الإنتاج إلى المستويات التي كان عليها قبل الاجتياح الأمريكي- البريطاني للعراق. وهناك من يرى أن الوصول إلى مستويات ما قبل الاجتياح والاستمرار فيها يتطلب فترة أطول لأن التغير الذي حصل في الدول الأخرى لم يؤد إلى تدمير الطاقة الإنتاجية، ولم تعاني هذه الدول من مقاطعة اقتصادية لمدة 12 سنة كما هي الحال في العراق، ولم تتدمر بنيتها التحتية بالشكل الذي يعاني منه العراق الآن، ولم تحتل من قبل قوى أجنبية.

2- إن إنتاج النفط العراقي خلال السنوات العشر الماضية تم بناء على قرار سياسي وليس بناء على قرار فني من قبل الخبراء والمهندسين، الأمر الذي أدى إلى تدمير جزء من الحقول والآبار العراقية. لذلك فإن البعض يرى أن مستوى الطاقة الإنتاجية الذي كان سائداً قبل الاجتياح لا يمكن الوصول إليه الآن والاستمرار فيه لعدم وجود إمكانيات فنية تمكن من إنتاجه بتكلفة منخفضة من دون تبديد لموارد العراق النفطية. وتشير تقارير متخصصة إلى أن القرار السياسي بزيادة الإنتاج بدون أي اعتبار للعوامل الفنية أدى إلى انسياب المياه بكميات كبيرة إلى المكامن النفطية مما أدى إلى خسارة مئات الآلاف من براميل النفط. وهذا يعني أن تكلفة الإنتاج لم تكن تكاليف الاستخراج وعدم القدرة على تعويض النفط المستخرج فقط، وإنما شملت الكميات التي تمت خسارتها للأبد بسبب عدم القدرة على شفط الماء من المكامن.

3- من الممكن أن يزيد العراق إنتاجه ليتجاوز مليوني برميل يومياً ولكن لفترة قصيرة فقط؛ فالبنية التحتية اللازمة لإنتاج وتخزين ونقل النفط لا تدعم استمرار العراق في ضخ 3 ملايين برميل يومياً خلال الشهور القادمة.

4- إن أية زيادة في إنتاج العراق تحتاج إلى تطوير الحقول العراقية، وهذا يتطلب أموالاً ضخمة، وحكومة ممثلة للشعب العراقي، واستقراراً سياسياً، وهو أمر لا يمكن أن يتحقق خلال فترة قصيرة من الزمن.

أما على المدى الطويل فإن العراق لن يتمكن من زيادة طاقته الإنتاجية إلى 8 ملايين برميل يومياً كما يقول البعض، للأسباب التالية:

- إنهاء الاحتلال الأمريكي/البريطاني ووجود حكومة شرعية واستقرار سياسي، وهو أمر لا يبدو أنه سيتحقق في المستقبل القريب بناء على ما نراه الآن من تطورات.
- انعدام قدرة العراق على تمويل توسيع طاقته الإنتاجية: فقيام العراق بزيادة طاقته الإنتاجية إلى 8 ملايين برميل يومياً يتطلب عشرات المليارات من الدولارات، ليس لتطوير الحقول النفطية فحسب، وإنما لبناء وتطوير البنية التحتية القادرة على تسويق ونقل هذه الكميات. ونظراً لعدم توافر أموال كافية لدى الحكومات العراقية المستقبلية فإن هناك طريقتين لتمويل هذه المشاريع:

أولاً: الاستدانة من بيوت المال العالمية والدول الأخرى. إلا أن العراق لن يتمكن من زيادة طاقته الإنتاجية عن طريق الاستدانة لأسباب عديدة أهمها:

- لن تقدم بيوت التمويل العالمية وغيرها أي قروض إلا لحكومة شرعية تمثل الشعب العراقي ومعترف بها عالمياً، وهو أمر لن يتحقق إلا بعد فترة من الزمن.
حتى لو توافرت حكومة شرعية فإن بيوت التمويل العالمية وغيرها لن تقوم بتقديم أي قروض لأن العراق حالياً أكبر بلد مديون في العالم ولا يمكنه الوفاء بأي ديون إضافية أو دفع الفوائد المترتبة عليها. إن هناك شروطاً معينة يجب توافرها في العراق حتى تتمكن بيوت المال من إقراضه وهذه الشروط لا تتوافر حالياً.
- حتى إذا رغبت بعض البنوك في تقديم القروض لحكومة شرعية فإنها ستطلب ضمانات لذلك. وعادة ما تقوم البنوك بتقديم قروض للدول النفطية مقابل صادراتها النفطية، ولكن النفط العراقي مرهون لأجيال قادمة بسبب الديون القديمة والتعويضات التي يجب أن يدفعها نتيجة غزو الكويت. لذلك فإنه لا يمكن حتى رهن النفط العراقي مقابل هذه الديون.
- حتى إذا رغبت بعض بيوت التمويل والبنوك في تقديم القروض لحكومة شرعية فإنها قد تضع شروطاً مجحفة تتضمن أسعار فائدة عالية بسبب ارتفاع نسبة المخاطرة، وهو أمر لا يمكن لحكومة عراقية «ديموقراطية» قبوله. وهذا يعني أنه حتى لو وُجد البنك الذي يرغب في تمويل العراق فإن الحكومة سترفض شروط هذا البنك.

ثانياً: السماح للشركات الأجنبية بالاستثمار في حقول النفط وتملكها جزئياً أو كلياً. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تلاقي قبولاً لدى الأمريكيين والقادة العراقيين الذين كانوا في المنفى إلا أنها، إن تحققت، فإنها لن تتحقق إلا بعد وقت طويل؛

الأمر الذي لن يُمكن العراق من زيادة طاقته الإنتاجية بالشكل الذي أثارته وسائل الإعلام. إن استثمار الشركات الأجنبية في حقول النفط العراقية، إن تم، فإنه سيتم بعد سنوات من الآن للأسباب التالية:

- إن شركات النفط العالمية لن تستثمر في العراق إلا بعد توافر شروط عديدة أهمها الاستقرار السياسي، ونشوء حكومة شرعية وقوية، ووجود مناخ سياسي واقتصادي ملائم للاستثمارات الأجنبية. وهذه الأمور يتطلب تحقيقها وقتاً طويلاً.
- عدم توافر البنية التحتية: وإذا افترضنا أنه تم حل مشكلة التمويل بشكل سريع فإن المشكلة ستكمن في أنه يجب إعادة بناء البنية التحتية للعراق بشكل عام، والبنية التحتية لصناعة النفط بشكل خاص. وتشير التجارب التاريخية لكل من إيران والعراق والكويت أن الأمر يحتاج إلى عدة سنوات.
- الحاجة إلى اتفاقيات مع الدول المجاورة: بما أن العراق أرض شبه مغلقة لها فتحة صغيرة جداً على الخليج العربي فإنه مضطر إلى تسويق نفطه عبر الأنابيب، ولا يمكنه ضخ ثمانية ملايين برميل يومياً من دون بناء أنابيب جديدة تمر عبر الدول المجاورة أو بعضها، وهو أمر مكلف من حيث المال والوقت. ولا يتوقع أن تتم الأمور بسرعة وبسهولة؛ حيث أن المباحثات مع الدول المجاورة قد تستغرق عدة سنوات. وعلينا ألاّ ننسى أيضاً أن هذه الدول لن توقع عقوداً إلا مع حكومة عراقية شرعية بحيث تستمد العقود شرعيتها من الشعب العراقي وليس من الاحتلال الأمريكي الذي يمكن أن يزول في أي وقت. لذلك لا يمكن للعراق أن يرفع طاقته الإنتاجية إلى ثمانية أو حتى ستة ملايين برميل يومياً بحلول عام 2010م.
- الحاجة إلى تقرير مصير العقود النفطية: ستشهد الشهور القادمة صراعاً كبيراً بين عدة دول حول عقود النفط التي وقعتها حكومة الرئيس المخلوع صدام حسين منذ عام 1991م. ومن المتوقع أن يتم حل أكثر هذه الخلافات خارج المحاكم الدولية. إلا أن احتمال لجوء الروس والفرنسيين إلى المحاكم الدولية كبير، الأمر الذي سيؤدي إلى عدم قدرة الحكومة العراقية على تطوير الحقول المتنازع عليها لعدة سنوات. لذلك فإن هناك شكّاً في قدرة أية حكومة عراقية جديدة على رفع إنتاج العراق إلى ثمانية ملايين برميل يومياً خلال السنوات القادمة.

المفاوضات مع الشركات الأجنبية تتطلب بعض الوقت: بما أن الحكومة العراقية بحاجة لرأس المال الأجنبي لتطوير الحقول العراقية فإنها ستقوم إما بمشاركة هذه الشركات أو التعاقد معها للقيام بالخدمات اللازمة بناء على عائد معين. ولكن تجارب استثمار الشركات الأجنبية في الشرق الأوسط تدل على أن المفاوضات مع الشركات العالمية تأخذ وقتاً طويلاً، الأمر الذي سيمنع العراق من تطوير طاقته الإنتاجية بسرعة. فقد بدأت المفاوضات بين الشركات العالمية والسعودية والكويت منذ عام 1998م ولم يتم توقيع أي عقد حتى الآن. أما في إيران وفنزويلا فإن المفاوضات استمرت أقل من ذلك، ولكنها استغرقت وقتاً أيضاً.

- الحاجة إلى اتفاقيات مُرضية ضمن الفدرالية العراقية لتقسيم عوائد النفط: لا نعرف حتى الآن ماهية وشكل الحكومة العراقية المستقبلية. فإذا كانت هذه الحكومة فدرالية، فإنه على الأطراف العراقية المختلفة أن تتفق على كيفية توزيع العوائد النفطية، وهو أمر قد يستغرق بعض الوقت. وحتى إذا تم التوصل إلى اتفاق، فإن الاتفاق شيء وكيفية التطبيق على أرض الواقع شيء آخر، الأمر الذي قد يؤدي إلى مزيد من القلاقل السياسية في المستقبل.
- الحاجة إلى اتفاق مع الكويت: إن إحدى المشكلات التي ستواجه أية حكومة عراقية في المستقبل هي كيفية التعامل مع الحقول المشتركة (حقل الرتقة في الكويت هو امتداد لحقل الرميلة في العراق) مع الكويت والتي كانت سبباً مباشراً لغزو الكويت في عام 1990م. إن تطوير هذه الحقول يتطلب اتفاقاً مع الكويت، إما عن طريق اتفاق مماثل للمنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية، أو عن طريق أي اتفاق آخر يضمن تعظيم الربح للبلدين من هذه الحقول. ويتوقع أن تستغرق المفاوضات، لأسباب سياسية وفنية، وقتاً طويلاً من الزمن، الأمر الذي سيؤخر تطوير هذه الحقول، رغم أنها ستكون منتجة في البلدين طيلة تلك الفترة.

إذاً، سيحتاج العراق إلى فترة طويلة من الزمن كي يطور طاقته الإنتاجية لتصل إلى ثمانية ملايين برميل يومياً. فهو يحتاج إلى فترة من الزمن لتأسيس حكومة شرعية، وفترة لتقرير كيفية توزيع الإيرادات النفطية ضمن المناطق العراقية المختلفة، وفترة لإقرار قوانين الاستثمار وتهيئة الوضع الاقتصادي الملائم للاستثمارات الأجنبية، ثم فترة للمفاوضات مع الشركات والدول المجاورة، وفترة للدراسات الفنية، وفترة للإنشاء والتعمير والحفر والتنقيب. كل هذا يمكن أن يتم ضمن جدول زمني معين ولكن يجب ألا يغيب عن القارئ أننا نفترض هنا أن كل الأمور ستتم على ما يرام، وأن العراق لن يبقى تحت الاحتلال لفترة طويلة، وأن الأمن والسلام سيستتب بمجرد قيام حكومة شرعية. إن تجاوز أي من الافتراضات السابقة يعني أن العراق لن يتمكن من زيادة طاقته الإنتاجية، بل على العكس، فإنه قد يؤدي إلى خفض تدفق النفط العراقي.

سيحتاج العراق إلى فترة طويلة من الزمن كي يطوِّر طاقته الإنتاجية لتصل إلى ثمانية ملايين برميل يوميا



هل ستؤدي زيادة الإنتاج في العراق إلى انخفاض أسعار النفط؟

ركزت وسائل الإعلام خلال الشهور الماضية على دور العراق «الحر» في تخفيض أسعار النفط في المستقبل. وكانت أسعار النفط قد ارتفعت في الآونة الأخيرة بسبب انتشار هذا الاعتقاد حتى ضمن المتعاملين في أسواق النفط العالمية. فقد قام أصحاب المصافي وغيرهم باستخدام ما تبقى لديهم من مخزون النفط فخفضوا مشترياتهم على أمل شراء النفط بأسعار أقل مع عودة الصادرات العراقية، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسة لانخفاض المخزون في الدول المستهلكة. ولكن تأخر عودة الصادرات العراقية وانخفاض المخزون إلى مستويات حرجة أجبر البعض على الشراء، الأمر الذي أسهم في رفع أسعار النفط.

وبشكل عام فإن المعوقات التي سيواجهها العراق لزيادة إنتاج نفطه كثيرة، الأمر الذي سيمنع أسعار النفط من الانخفاض إلى مستويات لا ترغبها دول أوبك. وهناك من يعتقد أن عودة النفط العراقي للأسواق العالمية ستؤدي إلى انخفاض أسعار النفط خلال الشهور القادمة، وهو أمر صحيح إذا استمرت دول أوبك بتجاوز حصصها الإنتاجية. إن انخفاض أسعار النفط في تلك الفترة لن يكون بسبب زيادة إنتاج النفط العراقي، وإنما بسبب عدم قدرة أوبك على تخفيض الإنتاج والالتزام بالحصص الإنتاجية. لقد استطاعت أوبك التعامل مع تقلب صادرات

النفط العراقي منذ عام 1991م ويمكنها التعامل مع النفط العراقي في المستقبل. أضف إلى ذلك أن الفترة الحالية تشهد نوعاً من الركود الاقتصادي بسبب الحرب ومرض سارس، ولكن زيادة النمو الاقتصادي العالمي خلال العامين القادمين ستؤدي إلى زيادة الطلب على النفط بمعدل سنوي لا يقل عن مليون ونصف المليون برميل يومياً، الأمر الذي سيخفف من أثر أية زيادة في الإنتاج العراقي على أسعار النفط.

وعلى الرغم من أن أية زيادة في إنتاج النفط العراقي قد تؤدي إلى الضغط على أسعار النفط، إلا أن المتتبع للوضع في العراق يرى أن الوضع متأزم بشكل قد يؤدي إلى تقلب أسعار النفط وارتفاعها بشكل مفاجئ. فهناك احتمال استمرار القلاقل السياسية، ونشوب حرب أهلية، وتفجير أنابيب النفط والمنشآت النفطية.

وإذا افترضنا أن العراق تمكن بشكل أو بآخر من زيادة طاقته الإنتاجية بشكل كبير خلال السنوات القادمة فإنه لا يتوقع أن يؤدي ذلك إلى انهيار أسعار النفط، بل قد يساعد على استقرارها. ويعود ذلك إلى أن توقعات وكالة الطاقة الدولية ووزارة الطاقة الأمريكية تشير إلى زيادة كبيرة في الطلب على النفط في المستقبل.

وبالنتيجة فإنه يتوقع أن يزيد العراق إنتاجه بسرعة، و لن يتمكن من زيادة إنتاجه إلى 6 أو 8 ملايين برميل يومياً خلال السنوات السبع القادمة. بالإضافة إلى ذلك فإن أثر أية زيادة في إنتاج النفط العراقي على أسعار النفط سيكون ضئيلاً بسبب استيعاب أوبك لزيادة الإنتاج العراقي من جهة، ونمو الطلب على النفط العالمي من جهة أخرى. أما بالنسبة لأوبك فإنه لا يتوقع انسحاب العراق منها. وحتى لو قرر العراق الانسحاب من أوبك فإن ذلك لن يؤثر على أسواق النفط العالمية لأن العراق سينتج الكمية نفسها سواء أكان عضواً في أوبك أم لا.

إقرأ للطاقة

المدهش في تاريخ أوبك

بيار ترزيان

يروي المؤلف بيار ترزيان في كتابه «المدهش في تاريخ أوبك» أن ستة صحافيين فقط رأوا أن من المهم تغطية ذلك الاجتماع الذي عقد في سبتمبر 1960م في العاصمة العراقية بغداد لتأسيس منظمة للدول المصدرة للنفط سميت «أوبك». ويضيف أن صحيفة نيويورك تايمز الأميركية المعروفة بجديتها والتي تناولت الحدث بعد مرور أسبوعين عليه كتبت تقول إنه لا يجب الاهتمام بذلك الاجتماع وذهبت إلى حد الافتراض أنه حتى ولو انضم الاتحاد السوفياتي إلى المنظمة الجديدة يوماً ما، فإنها لن تستمر إلا عاماً أو عامين في أحسن الأحوال.

الكاتب ترزيان الذي يدير مركز «بتروستراتيجي» في باريس والذي يُعنى بدراسة الشؤون النفطية ويصدر مجلة أسبوعية تحمل عنوان الكتاب نفسه، يتعرض في 332 صفحة إلى مسيرة المنظمة التي باتت في عقدها الخامس، متخطية أزمات توقع الكثيرون في أميركا وأوروبا أنها ستقودها إلى الانهيار.

إلا أنها أصبحت أقوى منظمة في العالم، وخاضت العديد من الصراعات السياسية والاقتصادية وخرجت منها سليمة.

ويتضمن الكتاب الصادر عن دار «جون أفريك» في باريس، ونقلته إلى العربية «دار الحداثة» في بيروت، شرحاً وتحليلاً للظروف السياسية التي نشأت خلالها «أوبك»، والصراعات التي قامت حولها، وأدوار الدول المنتمية إليها، مع تركيز واضح على دور المملكة العربية السعودية فيها. كما يتطرق إلى الأدوار والمواقف الأمريكية المختلفة تجاه المنظمة، وكذلك أثر الخلافات العراقية الخليجية عليها.

وبعد أن يتوقف الكتاب مطوّلاً أمام منعطف العام 1973م، في مسار تاريخ المنظمة، يتناول دور النفط في تحرير مستقبل العالم العربي، وما هو مُرتجى من الثروات النفطية لدول المنظمة، وأيضاً لتلك التي هي من خارجها.

500 نوع يعرف منها المستهلك العادي 6 أو 8 فقط!

عالم زيوت التشحيم

تكاد تنحصر معلومات المستهلك العادي عن زيوت التشحيم في كونها مواد تحتاجها محركات السيارات. وهذا صحيح، فالزيوت مصنعة لمحركات وسائل المواصلات من سيارات وعربات. ولكن وسائل النقل هذه لا تكاد تستهلك إلا حوالي ثلاثين في المئة من زيوت التشحيم. والمستهلك الأكبر لهذه السلعة في كل مكان في العالم هو المعدات الصناعية الثقيلة والآليات الضخمة التي تشغّل المصانع.. الزميل خالد الطويلي يستعرض هنا مصادر هذه الزيوت وسبل صناعتها وفوائدها منذ ظهور الحاجة إليها حتى اليوم.



أرامكو السعودية

على الرغم من أن الشحوم الحيوانية لا تدخل في مكوناتها، إلا أن كلمة «التشحيم» تلاحقها أينما ذهبت. وللاسم مرجعية تاريخية، فالتشحيم قديم جداً، فقد كان الفراعنة يمسحون عجلات عربات النقل بالدهون وشحوم الحيوانات لتسهيل عملية دورانها بتقليل احتكاكها وتآكلها، وبالتالي تحسين أدائها وإطالة أعمارها في الخدمة. ويبدو أن الشحوم الحيوانية كانت أفضل المواد المتوافرة لأداء وظيفة «التزييت»، لذلك من المرجح أن اسم زيوت التشحيم جاء منها.

بقي التشحيم ضرورياً للأسباب نفسها تقريباً، ولكن تبدلت مصادره، فقد وجد الناس عبر عصور متلاحقة ضالتهم في خام النفط الذي كان يتدفق إلى السطح من تلقاء نفسه. ثم استطاع الإنسان، بعد ذلك، أن يفكّك مكونات خام النفط ويكرره في القرن التاسع عشر الميلادي، فوجد مواد ضمن مكوناته لها فاعلية عالية في تأدية مهمة التزييت فأطلق عليها اسم «زيوت الأساس» بعد تخصيصها لاستخدامات التشحيم. وفي الثلاثينيات الميلادية من القرن الماضي، تم التوصل إلى الإضافات الكيميائية التي تحسّن أداء زيوت الأساس لتأدية المهام المتعددة التي أصبحت مطلوبة منها.

خلال السبعين سنة التالية لذلك، تطورت هذه الإضافات الكيميائية التي تكسب زيت الأساس خواص جديدة ومفيدة من حيث الجودة واللزوجة، ووصل عدد الأصناف التي تضاف إلى زيوت الأساس إلى ما بين 13 و 15 صنفاً. وأصبحت زيوت التشحيم، بعد الإضافات، مجموعة زيوت أساس مخلوطة بمركبات كيميائية، يختلف المنتج النهائي منها باختلاف نوع الخلطة.

المهام البسيطة التي كان الفراعنة يطلبونها من شحوم الحيوانات لا تزال هي ذاتها المطلوبة من زيوت التشحيم اليوم. وما اختلف هو الوظائف الأخرى التي استحدثت استجابة لطبيعة التطور الذي طرأ على الآلات والمحركات المستخدمة في هذا العصر.

ومع التطورات الصناعية المتتالية، لم تعد مهمة التشحيم منحصرة في حاجات العجلات والآلات





وسائل تعبئة، وعبوات مختلفة يتم استخدامها في تسويق زيوت التشحيم

البدائية إلى شحوم تمنع أو تقلل الاحتكاك فيها وتشتيت الحرارة الناتجة عن الاحتكاك فحسب؛ بل تعدتها إلى مهام جديدة لتلبية متطلبات دقيقة وحيوية مثل نقل الشوائب وتنقية مواد التلوث الناتجة عن عمليات الاحتراق والتشغيل وحماية المعدات من الصدأ وخفض أصوات الأجزاء المتحركة من المعدات، وبالتالي تنوعت الزيوت المنتجة في مواصفاتها وجودتها طبقاً لتلك الاحتياجات المتعددة.

هذه الوظائف جعلت زيوت التشحيم ضيفاً مستمراً على المختبرات الصناعية، حيث تخضع لاختبارات التأكد من استمرار فاعليتها في أداء عملها في ظروف التشغيل المختلفة. وتقوم الاختبارات الفيزيائية والكيميائية واختبارات الأداء الفعلي بعمليات تقييم متواصل.

الأساس والمواد المضافة

تتكون كل زيوت التشحيم من «زيت الأساس» و«المواد المضافة». أما المواد المضافة فإن لكل منها خاصية ووظيفة، فمنها ما يسمى تقنياً بـ «مخفض لدرجات الانصباب» أي ما يجعل الزيت المنتج يتجمد عند درجات حرارة أكثر انخفاضاً من تلك التي يتجمد عندها من دونه. ومن هذه المواد الكيميائية ما يزيد من لزوجة الزيت. ومنها ما يجعله مقاوماً أفضل للرغوة في الآلات التي تحتويها. ومنها ما يزيد من مقاومته للتأكسد والصدأ. ومنها ما يمنع تآكل المعدات وبرْيها. ومنها ما يشتت الرواسب والأوساخ.

> هذه الوظائف جعلت زيوت التشحيم ضيفاً مستمراً على المختبرات الصناعية، حيث تخضع لاختبارات التأكد من استمرار فاعليتها في أداء عملها وفق ظروف التشغيل المختلفة

فمن الطبيعي مثلاً أن تحتاج المحركات المعدنية إلى مقاوم للصدأ، وهو ما توفره بعض الإضافات الكيميائية. كذلك فإن آلات تصنيع الأغذية تحتاج إلى مواد كيميائية غير سامة تعمل عمل المنظفات وتقوم بعملها أثناء عملية التشحيم. وهكذا تستحدث كل إضافة كيميائية لزيت الأساس حسب الحاجات لكل آلة أو محرك.

وتنتج شركات صناعة زيوت التشحيم اليوم حوالي 500 منتج مختلف في عبوات مختلفة ومواصفات متنوعة لمهام متعددة تكون في العادة مدونة على العبوات المسوّقة.

ومن أهم زيوت التشحيم، زيوت محركات الاحتراق الداخلي، ومحركات الدورة الثنائية، ومحركات (الجيربوكس) وزيوت الطوربينات وزيوت المكثفات والمبردات وآلات قطع المعادن، والزيوت الصناعية المختلفة بالإضافة إلى الزيوت البحرية وتلك الخاصة بالمعدات والطائرات.

تغيير زيت السيارة

من بين كل زيوت التشحيم يبقى «زيت السيارات» هو الأكثر شعبية. ومعظم أصحاب السيارات يبقون على شيء من التساؤل حول ما إذا كانوا قد اعتمدوا الزيت المناسب في كل مرة يتوجهون إلى إحدى محطات الخدمة لتغيير زيت السيارة.

وقبل أن نتعرف إلى زيت التشحيم الذي يناسب محرك هذه السيارة أو تلك، علينا أن نعرف أولاً ماذا يصنع هذا الزيت داخل المحرك، ولماذا يجب علينا أن نستبدله باستمرار.

لو نظرنا إلى الأجزاء والقطع داخل محرك السيارة بمكبر لوجدنا بعض التلال والأودية الصغيرة جداً فيها، فهي، بكلام آخر، غير مستوية تماماً. ويعمل زيت التشحيم على ملء الفراغات بين هذه التضاريس ليساعد فاعلية المحرك وقوته. ولذلك فإن كمية استهلاك الزيت في المحركات الجديدة أو الموضبة، يكون أكبر حتى يتم ملء هذه الفراغات، ويستمر هذا النوع من الاستهلاك إلى الوقت الذي تصبح فيه قطع المحرك ملساء أكثر، وأقل نتوءاً، ويتمكن الزيت من تكوين حاجز جيد لزج يسمح لحركة القطع المعدنية على بعضها بأن تصبح أكثر سلاسة.

ويلعب زيت التشحيم أدواره المختلفة على مراحل، وهي الآتية:

1- وقت تشغيل المحرك: يجب أن يكون زيت التشحيم قليل الكثافة إلى درجة تمكنه من



الوصول بسرعة إلى أماكن حيوية من المحرك فور تشغيله، إذ أن معظم التآكل في أجزاء المحركات ينتج عند بداية التشغيل.

2- التزييت ومنع التآكل: بعد تشغيل المحرك، ينتشر الزيت في كافة أرجائه، ومهمته منع تآكل بعض المعدن في بعضه الآخر. وهنا تكمن أهمية كثافة الزيت المناسبة أيضاً. فإذا كانت كثافته أقل من المطلوب؛ زاد الاحتكاك بين الأجزاء المعدنية.

3- الحماية ضد الصدأ: ينتج عن كل جالون من الوقود يحترق في المحرك، جالوناً أو أكثر من الماء. ومن الواجب أن يتبخر معظم هذا الماء من حارق السيارة، ولكن في الطقس البارد، لا تتبخر المياه بطريقة كافية ويحتجز بعضها داخل المحرك فيسبب الصدأ، ولذلك تضاف المواد الكيميائية إلى زيوت التشحيم لتشكل حماية عازلة للمعدات الحديدية في المحرك من الأكسجين المسبب للصدأ.

4- المحافظة على نظافة المحرك: لأسباب مختلفة، لا يمكن لمحركات البنزين والديزل أن تحرق كل الوقود بشكل كامل. ولذلك فإن ما لم يحترق تماماً يمر بتفاعلات كيميائية عديدة تُنتج أحياناً الكربون والشوائب التي تبقى داخل المحرك، ومع الماء الناتج عن الاحتراق الذي أشرنا إليه سابقاً، فإن مواد جديدة تنشأ وتترسب هناك وتمنع - أو تعيق - مرور الزيت بانتظام داخل أجزاء المحرك أحياناً ويسبب ذلك تصلب أجزاء مهمة من المحرك والعطل نتيجة عدم مرور الزيت منها. ومن هنا نشأت فكرة الإضافات الكيميائية التي تقوم بمهام تنظيف أجزاء المحرك لتفكيك وتفتيت مثل هذه الترسبات.

5- منع تسخين المحرك: ويعمل الزيت بطريقة مكملة لنظام التبريد داخل المحرك الذي يقوم بتبريد ستين في المئة من مكونات المحرك، فيما يقوم زيت التشحيم بتبريد الباقي عندما يمر خلاله.

الزيوت في السوق

سمير معتوق نوار مدير الإنتاج في الشركة العربية السعودية لزيوت التشحيم (بترولوب) التي تمتلك أرامكو السعودية نسبة 71% منها مع شركة إكسون موبيل، يقول إن هناك أكثر من 22 علامة تجارية لمنتجات زيوت تشحيم يتم تسويقها في السوق السعودية. فكيف يتصرف أصحاب السيارات أمام تنوّع الخيارات أمامهم؟

معظم السائقين يأخذون بنصيحة الشركة المصنّعة باستخدام الزيت الذي تقترحه عليهم، هذا ما يؤكده صالح عبدالله إمقبالي، عامل في محطة لصيانة السيارات على طريق بقيق - الظهران القديم، «أما الآخرون فيستمعون إلى رأي عامل الصيانة الذي يتعاملون معه»، وفي كل الأحوال فإن الخواص التي تميّز هذا الزيت عن الذي يليه عملية معقدة لها مواصفات تقنية مثل «عامل اللزوجة»



و«المعامل الحراري» و«القدرة على الطفو» وغيرها من المواصفات. المهم أن نفهم ما يفعله هذا الزيت داخل المحرك والفروق بين زيت تشحيم وآخر، وبالتالي معرفة الأفضل وأسباب استبداله باستمرار.

فبعض الزيوت مناسب جداً للسيارات التي تُستخدم في مناطق باردة تتجمد المياه فيها. لكن هذه الزيوت نفسها لا تصلح للسيارات التي تسير في مناطق شديدة الحرارة، حتى وإن كانت السيارات من النوع نفسه. إذ تحتاج السيارات في هذه الحالة إلى نوع آخر من الزيوت يناسب البيئة الحارة. وهذا ما تفعله الإضافات الكيميائية إلى زيوت الأساس للوصول إلى زيوت تناسب البيئات المختلفة فتؤدي عملها بشكل أفضل.

> **هناك أكثر من 22 علامة تجارية لمنتجات زيوت تشحيم يتم تسويقها في السوق السعودية، فكيف يتصرف أصحاب السيارات أمام تنوّع الخيارات أمامهم؟**

ويختلف انتظام الزبائن في تغيير زيوت محركات سياراتهم في الصيف عنه في الشتاء كما يقول إمقبالي: «في الصيف يستبدلونه كل ثلاثة آلاف كيلومتر، ويختلف الأمر في الشتاء ويصل إلى خمسة آلاف كيلومتر. والسبب هو أن للحرارة والغبار في الصيف دوراً أكبر في تلوث الزيت بشكل أسرع. كذلك فإن الزبائن يستبدلون زيت صندوق التروس (الجير) مرة كل ثلاثين إلى أربعين ألف كيلومتر».

الزيت المستعمل إلى أين؟

إن اتساخ الزيت بسبب استخدامه لا يعني بالضرورة أنه لقي حتفه، فالكثير منه بعد ذلك يستخدم كوقود للأفران والسخانات الصناعية الكبيرة، فيما يستمر بعضه في الدوران داخل حلقة مفرغة تعيده في كل مرة إلى نقطة البداية. والاستفادة من الزيت المستخدم ليست فكرة جديدة. فإن «الناريت» في بلاد الشام كان يعني منذ زمن بعيد زيوت التشحيم المستخدمة التي يتم خلطها بنشارة الخشب وتستخدم وقوداً لتشغيل سخانات المياه في الحمامات..!

في الماضي كانت هذه الزيوت المستخدمة تشكل تهديداً بيئياً لأنها تسكب وتتشرب بها الأرض وتنتشر بسببها بقع زيت واسعة خاصة أمام محطات صيانة السيارات. أما اليوم فتوجد بوادر حلول إيجابية تبدأ من إنشاء وسائل لتجميع الزيوت المستخدمة في المصانع ومحطات الخدمة لتبدأ بعد ذلك دورة حياة جديدة بعد أن يتم تحويلها إلى زيوت أساس من جديد، ثم إلى منتج نهائي يتم استخدامه قبل أن يعود إلى الدورة نفسها مجدداً. وهناك تقنيات عديدة تُستخدم حالياً لإعادة تكرير الزيوت المستعملة وإنتاج زيوت أساس مطابقة لتلك التي يتم إنتاجها من مصافي تكرير الزيوت ويمكن استخدامها لإنتاج مختلف أنواع زيوت التشحيم.

لا تشكّل نسبة استهلاك زيوت التشحيم أكثر من واحد على عشرة آلاف من الاستهلاك الإجمالي للنفط الخام في السنة الواحدة، ولكن هذه النسبة شديدة الأهمية على الرغم من ذلك، لأنها تؤكد استمرار وسائل المواصلات والصناعة في عملها بانسياب. وقد أجرى السيد دونالد لوفتوس من إدارة حماية البيئة في أرامكو السعودية دراسة عن الزيوت المستخدمة في المملكة العربية السعودية وناقش فيها نقاط عديدة مهمة، ومن المعلومات التي توصل إليها هي «أن أرامكو السعودية تستخدم أربعة في المئة من كامل الاستخدام المحلي من زيوت التشحيم وتعيد تكريرها واستخدامها بالكامل داخلياً». وأن «ما يتوفر في السوق من زيوت التشحيم المستخدمة يبلغ في أحسن حالاته مليونين ومئتي ألف برميل في السنة وهو ما يقدر بـ ثمانمائة وستين طناً في اليوم الواحد».

غير أن إعادة تصنيع الزيوت المستخدمة لم تصل إلى مستويات مهمة رغم المردود البيئي الجيد إلا في ظروف استثنائية مثل محدودية توفر خام النفط لدى القوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية. فقد اضطرهم ذلك إلى إعادة التكرير والتصنيع بكميات كبيرة كما يقول إيلمار ساندرز، أخصائي الهندسة الذي يعمل مستشاراً للأعمال في إدارة المشاريع المشتركة في أرامكو السعودية، وله خبرة سابقة في إدارة أعمال وتسويق زيوت التشحيم. ويشير ساندرز إلى أن المردود الاقتصادي من عمليات إعادة تدوير الزيوت المستخدمة لا يزال قليل الأهمية، مما يجعل الكمية الكبرى منها تذهب سدى.

قول في مقال

الوسطية الإسلامية في الحرية الإنسانية

بأي روح تكون رؤية التميز الإسلامي في النظر إلى الأفكار والحريات؟ لقد كانت هذه الرؤية مصدر إثراء للفكر الإنساني، لا مصدر نقص أو استعلاء. الدكتور **محمد عمارة** يناقش هذا الموضوع..

عندما يكون الحديث عن الحرية، والحرية الإنسانية على وجه التحديد، وعن مكانة الإنسان، التي تحددها له الحرية في الكون بإزاء الأغيار - وفي المجتمع - بإزاء الآخرين.

عندما يكون هذا هو موضوع الحديث.. فلابد من الإشارة إلى المذاهب التي شغلت العقل الإنساني، واستقطبت فلاسفته ومفكريه إزاء تلك القضية الأزلية.. قضية الجبر والاختيار.. فهل الإنسان مجبر.. مسير.. ليس له من الأمر شيء.. كالريشة المعلقة في الهواء تميلها حيث مالت!.. أم أنه حر مخير.. وهو الصانع الوحيد لأفعاله، على وجه الإطلاق!.. ثم.. ماذا عن موقف الإسلام من هذه القضية على وجه التحديد؟.. وماذا تعني الوسطية الإسلامية في هذا المقام؟

الإسلام.. دين وسط

منذ البداية ننبه على رفض الإسلام لمذهبي الجبر الخالص والتفويض المطلق كليهما!. فلا الذين قالوا بالجبر الخالص قد أصابوا في التعبير عن حقيقة فلسفة الإسلام في هذا المقام.. ولا الذين توهموه حراً لا تعرف حريته الحدود ولا القيود، قد أصابوا كذلك.. وإنما هو الموقف الوسطي، المعبر عن فلسفة الإسلام..

فأنت حر.. تلك هي الحقيقة الموضوعية والملموسة - لكن حريتك واختيارك، ليست حرية القادر على كل شيء، ولا الذي يفعل ما يشاء وكأنه في فراغ.. إنك تختار - نعم - ولكن من بين بدائل لم تصنعها أنت، فاختيارك محكوم بحدود هذه البدائل التي ليست من صنعك!.. وإرادتك حرة - هذه حقيقة - لكن هذه الإرادة الحرة هي ثمرة لمحيط ولعوامل ولمؤثرات ليست من صنعك، سواء أكانت حولك، أو في نفسك مما ورثته، أو لا تستطيع صنعه أو تعديله، فإنها جميعاً تسهم في تلوين إرادتك الحرة، وتحديد نطاق حريتها.

حريّة الإنسان النسبية

إذن، حريتك نسبية.. وأنت حرّ، ولكن في حدود. وإذا كانت حرية الإنسان هي القوة التي يختار بها ويريد ويفعل.. وإذا كانت العوامل المحيطة والملابسات المصاحبة هي القدَر الإلهي، الخارج عن نطاق الفعل الإنساني، فإن العلاقة بين هذين العاملين هي التي تحدد نطاق حرية الإنسان.. فالحرية، هنا، ليست نقيضاً للقدر، وإنما هو حاكم لإطارها ومداها.. ورحم الله فيلسوف الإسلام أبو الوليد ابن رشد، 520 - 595هـ (1126 - 1198م) الذي أجاد التعبير عن مذهب الإسلام في هذا الأمر المشكل فقال: «إن لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد. لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها الله لنا من الخارج، وزوال العوائق عنها، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين جميعاً: بإرادتنا، وموافقة الأفعال التي من الخارج.. وهذه الأفعال التي من الخارج هي المعبر عنها بقدَر الله.. فمذهب الإسلام هو التوسط بين الجبر المطلق والاختيار الذي لا يعرف القيود».

الإسلام.. وحرية اختيار المعتقد الديني

وإذا كان المقام لا يسمح باستقصاء تفاصيل هذا الموقف الإسلامي، من حرية الإنسان في المجتمع، بكل الميادين وإزاء سائر المشكلات، فإننا نكتفي بإرشادات توجز هذا الموقف في عدد من أبرز هذه الميادين والمشكلات..

ففي حرية الاعتقاد الديني.. شهد بذلك الإجماع المنعقد على انتصار الإسلام لحرية الإنسان في اختيار المعتقد الديني.. والقرآن الكريم عندما أعلن أنه «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ» (سورة البقرة: الآية 256)، لم يكن يصدر عن مجرد «التسامح الكريم» مع الذين اختاروا غير الإسلام ديناً.. وإنما كان يعبر عن الاتساق الفلسفي في قضية التدين، الذي يستحيل أن يكون طريقه الإكراه.. فالإيمان، في عرف الإسلام: تصديق بالقلب يبلغ درجة اليقين.. وبدون الاختيار الحر لا سبيل إلى تحصيل هذا اليقين بالإيمان. والألوهية الواحدة، هي جوهر التدين، في عرف الإسلام.. وهو قد حدد النظر العقلي سبيلاً إلى معرفتها واليقين بوجودها، لأن الإيمان بالوحي والنصوص والمأثورات تابع ومتوقف على التصديق بالرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي جاء بهذه النصوص والمأثورات، والتصديق بالرسول تابع ومتوقف على التصديق بوجود الإله، سبحانه وتعالى، الذي أرسل هذا الرسول.. فلابد من معرفة الألوهية والإيمان بها أولاً.. وأداة ذلك - قبل النصوص - هو العقل الذي يهتدي إلى الصانع بالنظر في الموضوعات.. وبدون الاختيار الحر لا سبيل لإعمال النظر العقلي الذي يفتح أمام الإنسان الباب الأول لجوهر التدين بالدين.

وهذا الانتصار الإسلامي لحرية الإنسان في الاعتقاد الديني، لا يقف عند رفض إكراه الآخرين على التدين بالإسلام، وإنما هو يرفض، كذلك، إكراه الذات إذا عرضت لها الوساوس والشكوك التي زلزلت منها يقين الإيمان.. فلو أن إنساناً تأمل، فشك فألحد، فإنه، بنظر الإسلام، مطالب بأن يبذل وسعه وجهده في البحث عن سبل ودلائل الاهتداء.. فإذا بذل الوسع، دون تقصير، وجاءته المنية دون أن يمتلك يقين الإيمان، فهو - إسلامياً - من الناجين.. لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ويمتنع في الإسلام تكليف ما لا يطاق.. وبعبارة الإمام محمد عبده 1266 - 1323هـ (1849 - 1905م): «فلقد قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالباً غير واقف عند الظن، فهو ناج»

لكن.. لما كان الإيمان والتدين، وسبيلهما العقل، هما من كمال العقل.. ولما كان التدين - بتحريره الإنسان من العبودية للطواغيت، وبتحقيقه إنماء الإنسان للكون، وإنقاذه إياه من الاغتراب - هو من أهم ركائز النظام الاجتماعي للمجتمع الإنساني الراشد، فإن الإسلام يمنع من أصابه مرض الشك وآفة الإلحاد من نشر عدوى مرضه وإشاعة جراثيم الآفة التي أصيب بها.. وهو هنا لا يحجر على حق ولا ينتقص من حرية، وإنما يحافظ على أساس النظام الاجتماعي من أن ينتقض إذا شاعت فيه الآفات والأمراض.. إنه لا يُكره المرضى على لبس تاج الأصحاء، لأنه لا يريد نفاقاً ومنافقين.. فقط يريد منهم البحث عن دواء أمراضهم، قدر الطاقة، والامتناع عن محادة الله ورسوله وتقويض الإيمان، باعتباره الأساس الراسخ للاجتماع الإنساني الرشيد.

الإسلام.. وحرية تملك الأموال والثروات

وفيما يتعلق بنطاق الحرية الإنسانية إزاء الأموال والثروات الاجتماعية.. فقد رفض الإسلام قطبي التطرف: تجريد الفرد من حق التملك، وإطلاق حريته في التملك دونما حدود.. ووقف الموقف العدل بين ظلمين، المعتدل بين تطرفين، موقف الوسطية الإسلامية، الجامع لا يمكن جمعه وتأليفه من القطبين جميعاً!.. فالمال مال الله، والناس مستخلفون فيه.. ملكية الرقبة - الحقيقية - في المال هي لله - وللإنسان فيه ملكية المنفعة - المجازية - وظيفة اجتماعية تتيح تنميته والاستمتاع به في حدود عهد الاستخلاف.. وللتنبيه على هذا المعنى والموقف، وإشارة إلى هذه الفلسفة الإسلامية في الأموال، كانت إضافة القرآن الكريم مصطلح المال - في آياته الكريمة - إلى ضمير الجمع في تسع وأربعين آية، وإلى ضمير الفرد في سبع آيات!.. وكانت آياته التي تعلن: «والأرض وضعها للإنام» (سورة الرحمن: الآية 10).. «وكذلك وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» (سورة البقرة: الآية 29).. وأيضاً: «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه» (سورة الجاثية: الآية 13).. وأخيراً «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه..» (سورة الحديد: الآية 7).

فالله سبحانه وتعالى، هو مصدر هذه الأموال جميعاً، خلقها وأودعها في الطبيعة، وهو وحده مالك الرقبة فيها. والإنسان - من حيث هو إنسان - وليس كفرد أو طبقة - مستخلف عن الله في هذه الأموال، يستثمرها بالعمل المشروع، ويحوز منها - كملكية منفعة ووظيفة اجتماعية - ما يحقق كفايته، وفق العرف ودرجة رخاء المجتمع وحظه من الغنى والثراء.. فميَز الله العدل، المؤسس على هذه الوسطية في الحرية المالية والاقتصادية، وهو العاصم للإنسان من الهبوط إلى درك الفقر الذي يفقد الإنسان مقومات حريته، ويسلب منه مضمون الانتماء لمجتمعه ووطنه.. وهو العاصم، أيضاً، لهذا الإنسان من الاستعلاء إلى درجة الاستغناء، الذي يركز ثروات الأمة فتكون دولة بين الأغنياء (سورة الحشر: الآية 7)، الأمر الذي يغريهم بالطغيان بواسطة سلطان المال.. «كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى» (سورة العلق: الآيتان: 6 و 7).. وهذا الطغيان المالي، مثله كمثل الفقر، عدو للحرية الاجتماعية للإنسان.

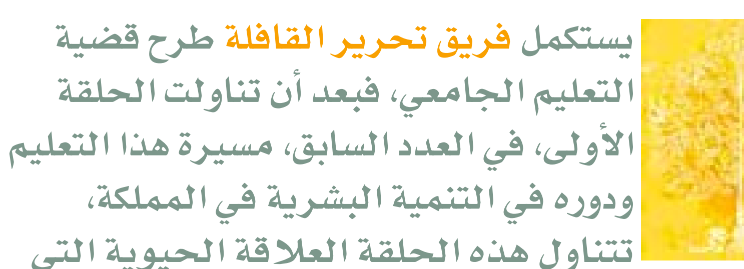
هكذا توسط الإسلام بالحرية الإنسانية إزاء الأموال والثروات، كواحدة من عمد المجتمع الإنساني.

العالم.. منتدى الأمم

وبعد.. فإننا نعيش على كوكب خلق الله أهله شعوباً وقبائل ليتعارفوا.. وجعل من آياته في خلقه اختلاف الألسنة والألوان.. ولو شاء سبحانه لجعلنا، نحن البشر أمة واحدة، ولكنه، جلّت حكمته، رأى وأراد الاختلاف والتمايز والتنوع مصادر للغنى والثراء.. وإذا كان الإنسان الراشد لا يجد حرجاً في أن يصافح الآخرين دون طمس لبصمته ومسخ لهويته، فكذلك الأمم العريقة ذات الشرائع المتميزة والحضارات الخاصة.. عليها أن تقبل كوكبنا كمنتدى لأمم الحضارات العريقة، يتم فيه التفاعل بين المستقلين الراشدين، مع الاحترام للتمايز فيما هو من الخصوصيات الحضارية، والإسهام في تنمية رصيد المشترك الإنساني العام..

وبهذه الروح تكون رؤية التميز الإسلامي في النظر إلى حرية الإنسان في المجتمع، مصدر إثراء للفكر الإنساني، لا مصدر نقض أو استعلاء !.. والله أعلم.

التعليم الجامعي وسوق العمل



يستكمل فريق تحرير القافلة طرح قضية التعليم الجامعي، فبعد أن تناولت الحلقة الأولى، في العدد السابق، مسيرة هذا التعليم ودوره في التنمية البشرية في المملكة، تتناول هذه الحلقة العلاقة الحيوية التي تربط التعليم الجامعي بسوق العمل، من خلال توصيف هذه العلاقة ودورها في التنمية الوطنية ضمن دائرة النقاش السائد في المنعطف الحالي..

على امتداد خمس وخمسين سنة تحمّل التعليم الجامعي، في المملكة، مسؤولياته إزاء المجتمع، ولبّى ضمن هذه المسؤولية متطلبات التنمية الشاملة التي تلاحقت خططها، في إطار بناء المجتمع السعودي الحديث وفق ثوابته المتعارف عليها.

وقد سعت مؤسسات التعليم العالي، في الجامعات والمعاهد والكليات، إلى أن تقدم المخرجات المتلاحقة، عبر مئات الآلاف من الخريجين والخريجات، وأن تؤسس أجيالاً من الكوادر البشرية.

ويرى الدكتور عبدالله نصيف، وهو مدير سابق لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، أن التوزيع الجغرافي للجامعات السعودية كان له أثره في تنمية المناطق التي أنشئت فيها هذه الجامعات. يُضاف إلى الأثر العلمي؛ حيث أصبحت الجامعات السعودية «متخصصة بطريق غير مباشر»، فـ «جامعة الملك فهد للبترول والمعادن متخصصة في العلوم التقنية كأساس والإدارة تخصصٌ ثانٍ فيها، وجامعة الملك عبدالعزيز متخصصة في العلوم التي لها علاقة بهذه المنطقة كعلوم البحار والأرصاد وعلوم الأرض والجيلوجيا، وجامعة الملك سعود تغلب عليها سمة الآداب إلى جانب الطب والهندسة، وهكذا بقية الجامعات السعودية التي تمثل -كلها مجتمعة- جامعة واحدة».

هذه الرؤية تشير إلى أن الجامعات السعودية كانت تضع عينها على احتياجات المجتمع؛ فتؤسس الكليات والأقسام والمعاهد وتقدم مخرجاتها السنوية من الكوادر البشرية؛ سعياً إلى تلبية هذه الاحتياجات. وهو ما انعكس واقعاً في مجالات العمل الرئيسة في القطاع العام على نحو واسع. فشُغلت الوظائف الحكومية، في تخصصات متعددة، بالخريجين

والخريجات السعوديين، واقتربت بعض المرافق الحكومية من الاكتفاء الذاتي، كمؤسسات التعليم العام التي يشغل السعوديون والسعوديات منها نسبة عالية جداً، وكذلك قطاع البلديات الذي يشغّله المهندسون والفنيون السعوديون بالدرجة الأولى.

الدكتور عبدالله نصيف: التوزيع الجغرافي للجامعات السعودية كان له أثر في تنمية المدن التي أنشئت فيها هذه الجامعات

وعلى الرغم من هذه الحقائق، فإن الجامعات السعودية لا يزال مطلوباً منها الكثير في علاقتها بسوق العمل، إذ أن سوق العمل لا ينحصر في الوظائف الحكومية التي تشبّع أكثرها بالخريجين والخريجات، وإنما يشمل كافة مؤسسات العمل في البلاد، بما فيها القطاع الخاص الذي لا تزال تجربته في توطين الوظائف محدودة ودون مستوى الطموحات الوطنية.

قوة العمل المستقبلية

حسب تقديرات خطة التنمية السابعة 1420-1425هـ، فإن قوة العمل المدنية في المملكة اقتربت من 7.2 مليون عامل في عام 1420هـ، ويتوقع أن ترتفع لتصل إلى حوالي 7.5 مليون عامل بنهاية عام 1425هـ، حيث تتوقع هذه الخطة توفير حوالي 329 ألف فرصة عمل جديدة خلال مدة الخطة. وقد قُدّرت مشاركة السعوديين في قوة العمل المدنية بحوالي 40%.

ويقدر عدد العاملين في القطاع المدني العام بحوالي 668.5 ألف موظف في عام 1419هـ، مقارنة بحوالي 520 ألف موظف في عام 1410هـ حسب إحصاءات وزارة الخدمة المدنية. ويمثل السعوديون حوالي 85% من العاملين في هذا القطاع مقارنة بحوالي 68% في عام 1410هـ. أما بالنسبة للقطاع الخاص فيقدر عدد العاملين المسجلين في سجلات التأمينات الاجتماعية بحوالي 1.5 مليون عامل في عام 1419هـ مقارنة بحوالي 1.12 مليون في عام 1415هـ. ويبلغ عدد المسجلين ضمن هذه الأعداد من السعوديين 137 ألف عامل في عام 1415هـ وقد ارتفع هذا العدد ليصل إلى 209 آلاف في عام 1419هـ أي بزيادة قدرها 53%، وإلى 249 ألفاً عام 1423هـ.

أما الوافدون فقد بلغ عدد المسجلين حوالي 984 ألف عامل في عام 1415هـ وارتفع هذا العدد ليصل إلى حوالي 1.3 مليون عامل في عام 1419هـ، أي بزيادة قدرها 32%. ويقدر عدد العاملين غير المسجلين في مؤسسة التأمينات الاجتماعية بحوالي 5 ملايين عامل. ويعمل معظم هؤلاء في مؤسسات صغيرة أو مهن حرة.

وتشير الدراسات التي أعدتها وزارة التخطيط إلى أن القوى العاملة السعودية ستزداد من 3.2 مليون عامل في عام 1420هـ إلى حوالي 4 ملايين عامل في عام 1425هـ، بمعدل نمو سنوي مقداره 4.69% في المتوسط، وإلى 8.3 مليون عامل في عام 1440هـ، وباستخدام هذا المعدل من النمو فإن القوى العاملة السعودية سوف يبلغ عددها في عام 1430هـ حوالي 5 ملايين عامل، وفي عام 1450هـ حوالي 12.5 مليون عامل.

وفي ظل تطورات هذه الأرقام من المهم الالتفات إلى علاقة سوق العمل في المملكة بمخرجات التعليم الجامعي على وجه التحديد، خاصة مع تجدد احتياجات السوق المتنوعة التي تفرزها الظروف الاقتصادية والاجتماعية وهذه بدورها تصنع احتياجات أكثر إلحاحاً من الاحتياجات الحالية؛ الأمر الذي سيضاعف الضغوط على الاقتصاد الوطني في حالة عدم قدرة سوق العمل على استيعابهم، خاصة في ظل تزايد حدة المنافسة مع العاملين غير السعوديين نتيجة لانفتاح السوق المحلي على العالم الخارجي والاستثمارات الأجنبية، والدخول المتزايد للمملكة في أنشطة إنتاجية وخدمية ذات تقنية متقدمة تتطلب مهارات فنية وتقنية عالية ومتخصصة.

توقعات تطوّر سوق العمل في المملكة حتى عام 1450هـ

السنة (هجرية)	إجمالي السكان من السعوديين (مليون نسمة)	السكان السعوديون في سن العمل (مليون عامل)	قوة العمل (مجموع العاملين من السعوديين) (مليون عامل)	الطلب على العمل (فرص العمل المتاحة في السوق) (مليون نسمة)
1420	15.7	9.7	3.2	7.2
1430	21.9	13.9	5	8.5
1440	29.7	20	8.3	10.7
1450	38.5	28.7	12.5	13.5

المصدر: وزارة التخطيط

تمثل التخصصات النظرية في الجامعات واحدة من أهم إشكاليات علاقتها بسوق العمل

وقد قطع التعليم الجامعي في المملكة شوطاً زمنياً طويلاً، وتكرست لديه العديد من الخبرات العلمية والعملية، وباتت قضية توطين الوظائف واحدة من قضاياه المؤرقة، وهذا ما حدا بالجهات المسؤولة في البلاد إلى ربط احتياجات سوق العمل ببرامج القبول في الجامعات، وهو ما يعني -بالضرورة- بناء العمل الجامعي على أساس احتياجات المجتمع على نحو أكثر دقة وشمولية ووعياً لمتطلبات التنمية.

تخصصات نظرية

وتمثل «التخصصات النظرية» المتكاثرة في الجامعات السعودية واحدة من أهمّ الإشكاليات التي تعانيها العلاقة بين الجامعات وسوق العمل. وعلى سبيل المثال وصل عدد خريجي الجامعات في العام الدراسي 1422/1421هـ إلى 64519 خريجاً وخريجة، وبلغت نسبة خريجي المجالات النظرية من هذا العدد إلى 86.82%، في حين لم تتجاوز نسبة خريجي المجالات العلمية 10.67%، وانخفضت النسبة في خريجي التخصصات الطبية إلى 2.5% فقط.

وتؤكد إحصائيات وزارة التعليم العالي أن توزيع التخصصات المختلفة يسير باتجاه معاكس للتوقعات، إذ أن النمو في تخصص العلوم الاجتماعية والإنسانية يتسارع بنسبة أكبر من باقي التخصصات، في الوقت الذي تزداد فيه أهمية العلوم والتكنولوجيا، حيث ازدادت نسبة الطلاب في الدراسات الإنسانية والاجتماعية من 59.2% في عام 1405هـ إلى 77.3% في عام 1416هـ، وانخفضت نسبة الطلاب في العلوم الهندسية من 11.8% إلى 4.6%، ونسبة الطلاب في العلوم الطبية من 9.4% إلى 2.7%، وكذلك انخفضت نسبة الطلاب في العلوم الطبيعية من 8.2% إلى 6.5%، وفي العلوم الزراعية من 3% إلى 1.4%.

وحسب دراسة أعدها الأستاذ الدكتور محمد عبدالله المنيع «أدت الضغوط الكبيرة على مؤسسات التعليم العالي إلى قبول أعداد كبيرة في التخصصات النظرية التي لا تحتاج إلى تجهيزات كثيرة، مما أدى إلى اختلال التوازن بين التخصصات النظرية والعلمية، مما نتج عنه زيادة في أعداد الخريجين من هذه الكليات بدرجة تفوق حاجة سوق العمل».

ويشير المنيع، في دراسته، إلى أن هذه الضغوط أنتجت أيضاً انخفاضاً في الكفاءة الداخلية والخارجية، ويتمثل ذلك في زيادة عدد السنوات التي يقضيها الطالب في الجامعة قبل أن يتخرج، وانتهى الأمر أخيراً إلى «عدم الانسجام بين مؤهلات الخريجين والخريجات في بعض التخصصات وتلك التي يحتاج إليها سوق العمل».

ضآلة التخصصات الطبية

ويُعتبر القطاع الطبي واحداً من أكثر قطاعات سوق العمل احتياجاً إلى الخريجين السعوديين، لكن دور الجامعات لا يزال محدوداً في مقابلة هذا الاحتياج. وتوضح الأرقام أن نسبة المقيدين في التخصصات الطبية لم تتجاوز 2.74% من بين مجموع الطلاب والطالبات المقيدين في الجامعات السعودية عام 1422/1421هـ حسب إحصائيات وزارة التعليم العالي. ويقابل ذلك شحٌّ واضح في الوظائف الطبية السعودية في المؤسسات الصحية الحكومية والخاصة. إذ لا تمثل نسبة الأطباء السعوديين فيها أهمية تُذكر قياساً بغير السعوديين، وهو ما يعني أن البلاد ستكون في حاجة -وعلى نطاق واسع- إلى الكوادر الطبية الوافدة إلى مدى غير منظور.

وفي العام الدراسي 1418/1417 وصل عدد خريجي التخصصات الطبية إلى 1041 خريجاً وخريجة. وكان المتوقع أن يرتفع هذا العدد في العام الذي تلاه، لكن ما حدث هو العكس إذ انخفض عدد الخريجي إلى 864 خريجاً وخريجة، ثم انخفض في العام 1420/1419هـ إلى 819.

التخصصات العلمية

وفي الوقت الذي تفرض فيه متطلبات التنمية المستقبلية احتياجات أكثر للتخصصات العلمية والتقنية؛ فإن واقع مخرجات التعليم الجامعي يسير بخطى أبطأ بكثير من الواقع المتسارع في التطور العلمي والتقني على المستوى العالمي والإقليمي.

خريجو التخصصات العلمية لا يتجاوزون 10.6٪ من مجموع الخريجين، في الوقت الذي تحتاج التنمية التقنية أكثر من ذلك بكثير

وللأستاذ الدكتور عبدالله ابن أحمد الرشيد، نائب رئيس مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لدعم البحث العلمي، رأي في هذا الموضوع. فقد أفرد بحثاً مطولاً حول (كفاءة أداء التعليم العالي) ووضع عدداً من المحاور لربط كفاءة التعليم العالي باحتياجات البلاد وسوق العمل.

وفي هذا البحث يؤكد الدكتور الرشيد أن «توطين التقنيات الاستراتيجية ذات العلاقة بالأمن الوطني الشامل أحد أهم التحديات الكبرى لمستقبل الاقتصاد السعودي.. فهناك تقنيات استراتيجية مهمة لا بد أن تكون لها الأهمية البالغة التي تكفل السيطرة عليها وطنياً، مثل تقنية تحلية المياه، وبعض التقنيات المتعلقة بالدفاع، وتأمين استمرارية عجلة الصناعات الأساس كالبتروكيميائيات.. كما أن هناك تقنيات جديدة تكمن فيها فرص واعدة وحيوية، يمكن للمملكة اعتماد بعضها ضمن محاور نشاطاتها الإنتاجية والخدمية المستقبلية، كالإلكترونيات والاتصالات والمعلومات، والمواد الجديدة، والتقنيات الحيوية، خاصة ما يتناسب منها مع ميزات المملكة، ويحقق طموحاتها المستقبلية».

وهذا الرأي يعني -بصورة أو بأخرى- أن نسبة 10.67% من خريجي الجامعات لا تكفي لتلبية احتياجات التنمية في المرافق العلمية والتقنية، فهي نسبة ضئيلة قياساً بالتوسع السريع الذي يشهده الاقتصاد السعودي في قطاعيه الخاص والعام، وقياساً بالتسارع الهائل لحركة الاقتصاد على المستوى العالمي.

ويؤكد الدكتور الرشيد على أهمية الوعي بالتحديات التي تنطوي عليها هذه التحولات والمتغيرات العالمية المعاصرة، وضرورة استنفار الإمكانات والقدرات الوطنية لمواجهتها وإدراك الفرص التي تتيحها واستيعابها واستغلالها بالسرعة المطلوبة.. مركزة في هذا الاتجاه على الدور المتعاظم للعلوم والتقنية عامة، والمعرفة على وجه التحديد في النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة للمملكة.. الأمر الذي يتطلب أن تبنى الرؤية المستقبلية للاقتصاد السعودي على قاعدة راسخة من العلم والتقنية والابتكار حتى يمكن للمملكة الاستفادة من الفرص التي تتيحها تلك التحولات ومواجهة تحدياتها.

سوق العمل والمرأة

وتشكل مخرجات التعليم من الكوادر النسائية مشكلة مضاعفة في سوق العمل. وتأتي أهمية الصناعات المعرفية والمعلوماتية -سواء الإنتاجية منها أم الخدمية- باعتبارها مصدراً جديداً ومهماً لتوليد فرص العمل الملائمة وزيادة دخل العاملين، إضافة إلى أنها تمنح المرأة السعودية فرصاً أوسع للإسهام في سوق العمل بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، خاصة وأن مساهمتها الراهنة في سوق العمل لا تتجاوز 6%.

ومن بين السكان السعوديين الواقعين ضمن شريحة العاملين؛ فإن نسبة النساء السعوديات العاملات لا تصل إلى 3% من مجموع السكان. وإذا استبعدنا قطاعي التعليم والتمريض، وهما الأكثر استيعاباً للكوادر النسائية السعودية، فإن بقية الوظائف لا تضع هامشاً معقولاً للمرأة السعودية، على الرغم من أن نسبة كبيرة من المتقدمات من النساء لسوق العمل يحملن مؤهلات جامعية. وحسب دراسة أعدها مجلس الغرف التجارية الصناعية في المملكة فإن نسبة البطالة لدى السعوديات قد وصلت إلى 13.2%. هذا على الرغم من أن نسبة العاملات غير السعوديات في القطاع الخاص وصلت إلى 69%.

وحسب معلومات وزارة التخطيط فإن الإحصاءات والأعداد المستهدفة في خطة التنمية السابعة تلمّح إلى أن المجتمع سوف يواجه أزمة في بطالة الخريجين والخريجات، ولكن بطالة الخريجات سوف تكون أبرز المشكلات التي سوف تواجه مخرجات التعليم العالي خلال خطة التنمية السابعة، خصوصاً وأن الفرص الوظيفية خارج نطاق التعليم محدودة، وهو ما يستدعي وضع الخطط والبرامج التي تساعد على إيجاد فرص وظيفية لهن ضمن التعاليم الإسلامية وعادات

وتقاليد المجتمع السعودي. ويضع الأستاذ الدكتور محمد عبد الله المنيع عدداً من المقترحات من بينها: «تطوير الدراسات العليا في كليات البنات بما يتلاءم واحتياجات تعليم البنات من ناحية وما يحتاجه المجتمع في بعض الوظائف الخاصة بالمرأة، والعمل على سد العجز في المؤهلات من أعضاء هيئة التدريس بدلا من التوسع في الدوائر التلفزيونية المغلقة والتعاقد للتدريس في كليات البنات».

ويضيف الدكتور المنيع مقترحات أخرى نوجزها في: «افتتاح مصانع خاصة بالسيدات يتناسب العمل فيها مع طبيعة المرأة وقدرتها ومؤهلاتها العلمية والتدريبية، والتوسع في فتح أقسام نسائية منفصلة في بعض الدوائر الحكومية للقيام بأعمال السكرتارية وحفظ الملفات، وتشجيع العمل الحر للسيدات المتوافق مع طبيعة المرأة، وإعادة تأهيل وتدريب خريجات الكليات والجامعات للقيام بأعمال تتطلب مهارات غير متوافرة في خريجات التعليم العالي».

إن قضية علاقة التعليم الجامعي في المملكة بسوق العمل ذات أبعاد متعددة ومتشعبة، ولذا فهي قضية مركبة، وهي إحدى الإشكاليات التي تعانيها الكثير من الدول، وبالذات الدول العربية. ومهما كثر الجدل فيها أو قلّ؛ فإن ضرورات التنمية تلحّ على القائمين على التعليم العالي بأن يضعوا أيديهم بأيدي مؤسسات الإنتاج في وضع الخطط الأكاديمية للجامعات، ورسم استراتيجياتها المستقبلية.

فمن بين أهم الأسباب الرئيسة في وجود الفجوة بين مخرجات التعليم العالي وسوق العمل؛ عدم وجود التواصل الطبيعي بين الجامعات ومؤسسات الإنتاج، الأمر الذي يفرز مجموعة من المشاكل؛ ربما من أهمها شغل كثير من الخريجين لوظائف لا تمتّ لتخصصاتهم بصلة وبالتالي ظهور البطالة المقنعة، وهذا ما يحدث، حالياً، في المجتمعات العربية بشكل عام.

والأسوأ من ذلك انتشار البطالة بين خريجي وخريجات الجامعات. وهذه البطالة التي بدأت تدق ناقوس الخطر بشكل جدي، وتحذر من عواقب المستقبل التي لا يمكن السيطرة عليها ما لم يتنبه المسؤولون إلى ما يدور في العالم، وما تحتاجه المجتمعات من منجزات ، ليس على مستوى الاستهلاك فحسب، وإنما على مستوى الإنتاج أيضاً.

خريجو الجامعات السعودية حتى عام 1421هـ

العام الدراسي	بنين	بنات	العام الدراسي	بنين	بنات
1390/1389هـ	795	13	1412/1411هـ	9845	7531
1395/1394هـ	1699	210	1413/1412هـ	11331	8467
1400/1399هـ	3447	1374	1414/1413هـ	10909	10820
1405/1404هـ	7220	3925	1415/1414هـ	10996	10893
1406/1405هـ	8020	4481	1416/1415هـ	12600	11650
1407/1406هـ	8538	5557	1417/1416هـ	14721	15542
1408/1407هـ	8574	5500	1418/1417هـ	13720	18188
1409/1408هـ	8509	6504	1419/1418هـ	20229	21221
1410/1409هـ	8955	6434	1420/1419هـ	14862	25041
1411/1410هـ	9938	7783	1421/1420هـ	16120	27294



يرى الدكتور عبدالواحد الحميّد، أمين عام مجلس القوى العاملة، أن ثمة جدلاً فلسفياً يتركز حول علاقة التعليم الجامعي بسوق العمل، وما إذا كان التعليم الجامعي هو «قيمة» بحد ذاته بغض النظر عن مدى ملاءمة خريجي المؤسسات التعليمية الجامعية لمتطلبات سوق العمل، أم أن هذه المتطلبات هي التي ينبغي أن توجه مسارات التعليم الجامعي باعتبار أن المجتمع يتكبد تكاليف باهظة من أجل توفير التعليم.

تحديات راهنة..
في مواجهة التعليم الجامعي

كان التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية، في البداية، هو الطريق إلى التوظيف في القطاع الحكومي حيث أن الجهاز الحكومي في فترة بنائه كان يحتاج إلى عدد كبير من خريجي التعليم الجامعي بغض النظر عن نوعية التخصص. ففي ذلك الوقت لم تكن مسألة ملاءمة مخرجات المؤسسات التعليمية الجامعية لسوق العمل مطروحة، وكانت رغبات وميول واتجاهات الطلاب هي التي تحدد التخصصات التي يختارونها. إلا أن المتغيرات الاقتصادية المحلية والدولية وتوسع دور القطاع الخاص في البلاد، وشحّ الوظائف في القطاع الحكومي فرض مسألة ملاءمة التعليم الجامعي لسوق العمل، ومن ثم إعادة النظر في مفهوم التعليم الجامعي وأهدافه، وضرورة تطوير منظومة التعليم الجامعي في المملكة سعياً لتعزيز مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية الآنية والمستقبلية.. وهذا يدعونا إلى إعادة بناء التعليم الجامعي في تصوراته وهياكله البنائية بعيداً عما يسمى بتعليم «النخب» الذي يهدف إلى العلم من أجل العلم فقط أو الوجاهة الاجتماعية.

بين الكم والكيف

تزايد الإقبال على التعليم الجامعي بوتائر عالية حيث استجاب التعليم الجامعي لرغبات معظم المتقدمين إليه من منطلق الأولوية للكم، إلا أن هذا التوجه كان على حساب نوعية محتوى التعليم وجودته وانخفاض كفاءته الداخلية التي أثّرت بالتالي على كفاءته الخارجية فأدى ذلك إلى ضعف الارتباط بين التعليم الجامعي ومؤسسات المجتمع من جهة، وسوق العمل من جهة أخرى، كما أن هذا التوسع أدى إلى تدفقات خريجي التخصصات النظرية التي وصلت إلى حوالي 80% على حساب التخصصات العلمية والتطبيقية رغم تشبع سوق العمل من هذه التخصصات النظرية ووجود فائض كبير منها في سوق العمل.

التركيز في المدن الكبرى

إن التوازن الجغرافي في توزيع مؤسسات التعليم الجامعي أمر له أهميته في سد احتياجات المجتمع المحلي من التعليم الجامعي في كل منطقة من مناطق البلاد، إلا أنه من الملاحظ تركز هذا التعليم في بعض المدن الكبرى دون غيرها بالإضافة إلى غيابه في كثير من المدن المتوسطة والصغيرة، ولا شك أن توفير التعليم الجامعي في ظل توازن إقليمي على مستوى المملكة يحقق المزيد من تلبية احتياجات أسواق العمل المحلية من مخرجات هذا النوع من التعليم بالإضافة إلى أن التعليم الجامعي هو مركز إشعاع في مجال تنمية وخدمة المجتمع بما يوفره من برامج هادفة. وانطلاقاً من ذلك صدرت في عام 1422هـ الموافقة على قرار المجلس الاقتصادي الأعلى المتعلق ببرنامج زيادة القبول في مؤسسات التعليم العالي، وإنشاء جامعات جديدة بمناطق المملكة المختلفة، وإنشاء ثلاث عشرة كلية مجتمع جديدة للبنين وخمس عشرة كلية مجتمع للبنات، وسبع كليات تقنية جديدة، وتحويل الكليات المتوسطة إلى كليات جامعية، وتشجيع القطاع الخاص على إنشاء جامعات أهلية. وإذا ما قدر لهذا التوجه أن يتواصل فسوف يحقق نقلة جوهرية في مسار التنمية المحلية على مستوى المناطق، ويسهم في إيجاد تنمية متوازنة تحد من الهجرة من الأرياف إلى المدن الكبيرة.

المناهج والتطوير

أصبح التوجه العام هو ضرورة البعد عن أسلوب التلقين واستبداله بالأساليب الحديثة التي تشحذ الفكر وتنمي روح المبادرة والاستنتاج والتفكير الخلاق. ولا شك أن متطلبات سوق العمل لا تقتصر على مجرد إتقان حرفة أو مهنة وإنما تتجاوزها إلى اكتساب القدرات والمهارات العقلية والاجتماعية التي تؤهل الفرد لمواجهة جميع المتغيرات التي تحدث في سوق العمل، مع ضرورة التركيز على إيجاد جسور تعاون بين التعليم الجامعي والمؤسسات المختلفة في سوق العمل وفي مقدمتها القطاع الخاص الموظِّف الرئيسي للقوى العاملة الوطنية.

تحديات الثورة المعرفية والتقنية

يواجه التعليم العالي تحديات كثيرة داخلية وإقليمية ودولية هي بمثابة انعكاس للتحديات التي تواجه المجتمع نفسه. من هذه التحديات، على سبيل المثال، تحدي التنمية والعلاقة التفاعلية والتبادلية بين التعليم والتنمية، والتحديات المتمثلة في العولمة، والتجمعات الاقتصادية العملاقة والشركات الاستثمارية الضخمة التي تتنقل بأعمالها حيثما تجد الظروف الملائمة للنمو والربحية، وظهور قوى اقتصادية كبرى خارج نطاق الدول الرأسمالية التقليدية، يواكب ذلك كله تقدم علمي وتقني يتمثل في ثورة المعلومات والاتصال والتكنولوجيا الحيوية وغير ذلك من تكنولوجيات أخرى جديدة.

وكما أشارت خطة التنمية السابعة فإن مواجهة هذه الإشكاليات والتحديات يتطلب تطوير الأداء في التعليم الجامعي، والارتقاء بمؤسساته من خلال متطلبات تهدف إلى جودة التعليم الجامعي وربطه باحتياجات المجتمع في ضوء الأسس الاستراتيجية لخطة التنمية السابعة نخص منها ما اشتمل عليه الأساس الاستراتيجي الثامن من حيث توسيع قاعدة التعليم العالي، ودراسة إمكانيات الاستفادة من الأنماط الجديدة مثل الجامعة المفتوحة والتعليم عن بعد، وتشجيع القطاع الخاص على المساهمة في توسيع قاعدة التعليم العالي، وزيادة الاهتمام بالبحث العلمي التطبيقي في الجامعات، وتوجيه سياسة القبول في مؤسسات التعليم العالي بما يتفق ومتطلبات سوق العمل المتغيرة، وتحديث وتطوير المناهج الدراسية، والتأكيد على تكامل ومرونة قنوات وروافد التعليم.

ولتحقيق هذه التوجهات الاستراتيجية فإن عناصر الارتقاء بالتعليم الجامعي وجودته تتطلب سياسات ومحددات من أهمها:

رفع الكفاءة الداخلية للتعليم الجامعي

تشمل منظومة الكفاءة الداخلية للتعليم الجامعي المدخلات البشرية المتمثلة في الطلبة وأعضاء هيئة التدريس، والمناهج، وكذلك المدخلات الإدارية والتنظيمية والمالية. ولرفع مستوى هذه الكفاءة فمن المهم معالجة عدد من القضايا كالخلل في توزيع الطلبة على التخصصات، ورفع كفاءة أعضاء هيئة التدريس ومعالجة الهدر في العملية التعليمية لا سيما الرسوب والتسرب وتوازن الطاقة الاستيعابية.

رفع الكفاءة الخارجية للتعليم الجامعي

وذلك من خلال توافق مخرجات التعليم الجامعي مع سوق العمل، وأن تكون التخصصات الجامعية ملبية لاحتياجات المجتمع بشكل عام والقطاع الأهلي بشكل خاص بما يسهم بالتالي في معالجة مشكلة بطالة الخريجين.

التوازن النوعي والجغرافي

يتركز التعليم الجامعي، كما أشرنا، في المدن الكبيرة كما أن هناك بعض الازدواجية في التخصصات التي تقدمها الجامعات في نفس المدينة أو المكان. ولمعالجة ذلك فإن من المهم تحديد مواقع وتخصصات المؤسسات الجامعية دون ازدواجية، ووضع وتحديد شخصية متفردة ومميزة لكل مؤسسة جامعية بحيث تتكامل تلك الجهود ولا تتعارض. لذا فإن التخطيط لإنشاء مؤسسات جديدة ينبغي أن يدرس بعناية في ضوء المؤسسات المتشابهة مع مراعاة التوزيع الجغرافي لهذه المؤسسات وعدم قصرها على المدن الكبيرة فقط. وتدل بعض القرارات الرسمية التي صدرت في الآونة الأخيرة على توجه الحكومة نحو إيجاد هذا التوازن النوعي والجغرافي.

> الاستجابة من منطلق الأولوية للكم كانت على حساب نوعية محتوى التعليم ومستواه

> سوق العمل يتسم بالديناميكية والتغير مما يعني أن الإشكاليات والتحديات هي أيضاً متغيرة

التوسع في برامج ما فوق الجامعي

ثمة حاجة واضحة إلى التوسع في تقديم برامج تعليمية لما بعد المرحلة الجامعية في درجة الماجستير والدكتوراة بالجامعات السعودية في التخصصات المطلوبة وإتاحتها للموظفين الذين لا تمكنهم ظروفهم من التفرغ الكامل للدراسة. وينبغي أن تكون هذه البرامج على فترتين صباحية للمتفرغين ومسائية للموظفين، وأن تكون في التخصصات التي يتطلبها سوق العمل.

القطاع الخاص والتدريب

توجد فجوة تفصل بين ما يدرسه الطالب على مقاعد الجامعة وما هو موجود على أرض الواقع في سوق العمل. ومن أجل تجسير هذه الفجوة يتعين تفعيل دور القطاع الخاص نحو المشاركة في تدريب الطلاب في مؤسساته، واحتساب مدة التدريب كأحد متطلبات التخرج.

الاستفادة من الاتجاهات الحديثة في الإدارة

تزخر نظريات الإدارة الحديثة بالاتجاهات التطويرية التي يمكن تطبيقها في مجال التعليم العالي وذلك لإحداث نقلة نوعية في العملية التعليمية بالجامعات وتقنياتها، ومنها منهج الجودة الشاملة والإدارة بالأهداف والنتائج، والهندرة في مجال الإدارة لرفع الكفاءة الداخلية والخارجية للتعليم الجامعي وتطويره.

تلك هي أهم الإشكاليات والتحديات الراهنة التي يواجهها التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية في إطار علاقته بسوق العمل، وما يمكن أن يوجد لها من حلول. غير أن من المهم التأكيد على أن سوق العمل يتسم بالديناميكية والتغير مما يعني أن الإشكاليات والتحديات هي أيضاً متغيرة، الأمر الذي يتطلب من مؤسسات التعليم الجامعي مواكبة هذه التغيرات بشكل مستمر والتفاعل معها بإيجابية وعدم التقوقع والجمود. ويمكن أن تكون المملكة العربية السعودية مثالاً للعديد من الدول النامية وخصوصاً في منطقة الخليج العربية.

لماذا ينجح التعليم في تحسين الموارد في بعض الدول حتى أصبح مرادفاً لثروتها الاقتصادية، ولا يصل إلى مثل هذه النتيجة في دول أخرى؟ الدكتور منير بشّور*، يرى في واقع التعليم في البلاد العربية مشكلة تعيق تقدمه وجدواه في ما هو متوقع منه على صعيد تنمية الموارد البشرية.

ماذا يحدث في المدرسة العربية؟!

ثروة الأمم كثروة الأفراد، تتعدى ما تملكه من موارد إلى ما تفعله بهذه الموارد. والتعليم هو في الأساس عملية تحسين لهذه الموارد وتفعيلها.

إن الموارد التي تهتم عملية التعليم بتحسينها وتفعيلها هي الموارد البشرية. ولا يعني ذلك أن كل تعليم وأي تعليم يؤدي إلى تحسين الموارد، تماماً كما أن حاجة الجسم للطعام لا تعني أن كل أنواع الطعام مفيدة للجسم. وهذا ما يدفعنا مباشرة إلى التمييز بين أنواع التعليم، والظروف المحيطة به والتي تؤثر فيه سلباً أم إيجاباً على صعيد دوره كعامل محسن لنوعية المواد البشرية.

إن التعليم في البلاد العربية خاضع لمنحى عمودي. تسود التراتبية في بنيته، فتسيطر المراتب الأعلى على الأدنى، وعملياته محكومة بعلاقات السلطة والتسلط بين آمر ومطيع، سائل ومجيب، آخذ ومعط. وفي المقابل هناك المنحى الأفقي الذي يعني المساواة والتبادل والمشاركة بين المواقع وفي العلاقات، الأمر الذي يبدو غائباً بشكل عام عن واقع التعليم في البلاد العربية. ونشير هنا إلى أن موضوعنا هو التعليم وليس التربية.

* أستاذ في دائرة التربية في الجامعة الأميركية في بيروت

بالطبع، ليس هناك مكان في العالم حيث ينحني الخط البياني باتجاه عمودي بالكامل، أو أفقي بالكامل. الاختلاف بين مكان وآخر يتمثّل في درجة الانحناء: هل هي أقرب إلى المنحى العمودي، أم إلى المنحى الأفقي؟ إننا ندّعي هنا أن هذا المنحى يميل كثيراً بالاتجاه العمودي في نظم التعليم العربية، مبتعداً كثيراً عن الاتجاه الأفقي. بإمكاننا أن نأخذ هذا الإدّعاء كما لو أنه فرضية بحاجة إلى إثبات، فننتقل من هذا البلد العربي إلى ذاك، أو من موقع إلى آخر داخل البلد العربي الواحد، لنجمع الأدلّة وننظر في صحة هذه الفرضية في ضوء الواقع وعلى أساس الدراسات الميدانية، فنقرّر صحتها، ونحكم على درجة انحناء المحور في هذا الاتجاه أوذاك.

ولتسهيل المتابعة، يمكننا النظر في هذه الفرضية من خلال ثلاث زوايا أو أضلاع تتفرع عنها.

أولاً: في مجال البنية والإدارة

إن البنى الإدارية التي تسيطر في المنظومة التعليمية في البلاد العربية بدءاً بمستوى الدولة وانتهاء بمستوى المدرسة تتميز بمنحى عمودي شديد الوضوح. فكل مسؤول يتصرف مع من أو ما هو دونه تراتبية وكأنه خاضع برمته لمشيئته. ونادراً ما تقف القوانين والأنظمة حائلاً بين رغبات المسؤول الحكومي أو مدير المدرسة وبين تنفيذ ما يرميان إليه.

من جهة أخرى، يعرف الجميع الإنجازات الهائلة التي بلغتها البلدان المتقدمة، فهي بادية للعيان. ولكن ما هو ليس باد، ويقع في صلب هذه الإنجازات ولعله سببها، هو اللجنة أو عمل الفريق. هذا اختراع كبير: عمل اللجنة أو الفريق، الأخذ والعطاء، التبادل، المشاركة، تقديم الرأي ونقيضه، المناقشة... فكل من خَبرَ العمل في هذه البلدان ولو لوقت قصير، وشارك في أعمال لجانها، لا بد من أن يصاب بالدهشة، كأنما المسيرة (مسيرة الاجتماع والمناقشة والعمل معاً) هي بحق أهم من الوصول إلى الهدف، كأنما هي الهدف.

ثانياً: في مجال الفعل - التعليم والتعلّم

غرفة الصف هي بؤرة النظام التعليمي بكامله. هنا يلتقي المعلّم مع تلاميذه، كما يلتقي التلاميذ بعضهم مع بعض. ما الذي يحدث في غرفة الصف؟

أشياء كثيرة تحدث، نصفها تلخيصاً بأنها تعليم وتعلّم. المعلم يعلّم والتلميذ يتعلّم. أحد الباحثين يلقي الضوء على ما يحدث في غرفة الصف في البلاد العربية، فيقول إنها تقوم على التلقين، وفرض النصّ من اتجاه واحد، من معلّم لا يقبل النقاش، مع طفل (تلميذ) لا حول له ولا قوة. وكتاب يحتوي نصوصاً غير قابلة للنقاش، تشيأت فيه المعرفة، وبدت حقائق مطلقة. امتحانات تغرس الخوف والرهبة وتضبط الخارجين على النصّ، ولا تقيس إلا الحفظ والتذكر. معرفة فرّغت من محتواها، من حيث هي في الأصل عملية بحث وكشف عن قوانين الحياة والوجود، ولكنها اختزلت إلى مجرد أشكال معبأة في كتب، تُنقل إلى التلاميذ نقلاً في نصوص جامدة تنقش في ذاكرتهم.

هذا يعني ببساطة سيطرة العلاقات العمودية بين المعلّم والتلميذ.

ما قلناه عن اختراع «اللجنة» وطريقة عملها في البلدان المتقدمة ينطبق هنا على ما يجري في غرفة الصف، وباستنتاجات لعلّها أخطر. نقول هذا لكثرة ما يقال عن دخولنا، منذ سنوات قليلة، ما يعرف بمجتمع المعرفة: المجتمع ما بعد الصناعي، ما بعد التكنولوجي، حيث «المعرفة» هي المادة الخام، أو «البضاعة» المنتجة والتي يتم تداولها. بيتر دروكر Peter Drucker الذي يُعزى إليه ابتكار هذا التعبير، يشرح هذا بقوله إن الجديد في هذا المجتمع أن المعرفة تستثمر في المعرفة بينما كانت من قبل تستثمر في المادة أو في رأس المال. كان الحرفي يستثمر معرفته في الفضة، فيحوّل القطعة منها إلى حلية للزينة تحظى بقيمة إضافية في السوق، ولكنها لا تخرج في طبيعتها عن الفضة. في مجتمع المعرفة ما يستثمر هو معرفة ما يدخل في تركيب الفضة واستخدام هذه المعرفة، لا الفضّة، للوصول إلى شيء جديد قد لا يكون له علاقة بالفضّة.

مجتمع المعرفة هو بطبيعته مجتمع الحركة الأفقية، الذي يفترض تواصلاً أفقياً في غرفة الصف بين المعلم والتلاميذ كما بين التلاميذ بعضهم مع بعض. والتعليم والتعلّم يحدثان بالتعاون والاشتراك، والمشاركة.

ثالثاً: في مجال الثقافة - التاريخ والجغرافيا

هناك نزوع في أوساط الثقافة العربية إلى التفكير بالماضي والعودة إليه. وليس ذلك بالأمر المستغرب تماماً، ذلك أن مثل هذا النزوع معروف في جميع الحضارات ذات التراث القديم، إذ يلجأ أبناؤها إلى الماضي للراحة، والشعور بالافتخار.

مثل هذه العودة من الحاضر إلى الماضي نوع من الحركة العمودية في نطاق الزمان: نقابل ما نحن عليه الآن بما كنا عليه من قبل. إنها حركة ضرورية ومحمودة لاكتشاف الأصول، وتوضيح الهوية، وتعميق الانتماء، ذلك إن بقيت ضمن حدود معقولة.

اللجنة، أو عمل الفريق من أهم الإنجازات التي حققتها البلدان المتقدمة، حتى أن مسار العمل في اللجنة يبدو بحق أهم من الوصول إلى الهدف

الحركة الأفقية تستدعي مقابلة ما نحن عليه الآن مع حال الآخرين في نطاق المكان. والمقابلة هنا بغرض تحديد الموقع بالنسبة للآخرين، في سبيل تحديد وجهة السير أو ما هو مطلوب للمستقبل.

والانشغال بالماضي في مناهج التعليم العربية، لا ينحصر في مواد التاريخ وكتبه، إنما هو منحى ذهني ينسحب على مواد أخرى كثيرة منها القراءة والآداب والعلوم الإنسانية بمجملها، ويصل إلى العلوم الاجتماعية وأحياناً إلى مداخل الرياضيات والعلوم الطبيعية. ولهذا تسيطر في أذهان الطلاب مهارة السرد والعودة إلى الجذور كمنهج في التحليل، بدل النظر في الظواهر والفوارق والنتائج والربط بين هذه وأسبابها.

كلمة اختتام

إن الأفكار التي قدمناها في هذه العجالة تُظهر الثقة الكبيرة بقدرة التعليم على تحسين الموارد البشرية وتفعيلها، وبالتالي المساهمة في تعظيم ثروة الشعوب والأمم. لكننا ربطنا هذه القدرة بأن يكون التعليم من النوع الملائم لمواجهة المصاعب والتحديات. ونعتبر أن النوع الملائم من التعليم هو الذي يسعى لتغيير المنحى العمودي في بنيته وفي علاقاته، أي منحى السيطرة والخضوع باتجاه المنحى الأفقي.

إن تحميلنا هذه المهمة للتعليم لم تأت اعتباطاً وإنما لاعتقادنا أن المنحى العمودي يسيطر أيضاً في بنية المجتمعات وفي الثقافة العربية بمجملها، وليس فقط في نظمها التعليمية - واخترنا أن يكون التغيير في التعليم رأس الجسر الذي يعبر بنا إلى المنحى الأكثر تقدماً ورفاهاً.

صورة شخصية

«ليموزين» الناصر تنهض بأسرة وتُخرّج أستاذاً جامعياً

مشوار الحياة.. وراء المقود

تخرج في جامعة الحياة، وجاب البلدان سعياً وراء الرزق متنقلاً من عمل إلى آخر، وقد بقيت السيارة رفيقة دربه ومحور حياته على مدى أكثر من أربعين عاماً...



خالد الطويلي

سلمان الناصر اسم لأكثر من شخص في قريته، لكن حين تربطه بالليموزين، فإنك لا تعرِّف بالشخص فحسب، وإنما تشير إلى تاريخ السيارة في بلدته، فهو من أوائل من قاد السيارة فيها. كما أنك تحكي تجربة كفاح، فقد فتح بيتاً، وكوّن أسرة، وربى أبناءً، وخرّج أستاذاً جامعياً.. وكله من وراء «الليموزين».

البداية

يتحدث سلمان عن البدايات فيقول إنه تعلّم القرآن في كتّاب القرية على يد المعلّم منصور، الذي علّمه أيضاً القراءة والكتابة. وتزوج عندما كان عمره خمس عشرة سنة، ورزق بأولاد أحدهم يعمل في أرامكو السعودية «وقد نفع اللّه به أمه، فمنذ ست سنوات أصيبت بالفشل الكلوي وبدأ مشوار معاناتها، وهي تتلقى العلاج المنتظم في مركز الظهران الصحي «على نمرته»، وقد دفعتني إلى الزواج، لكنني وفاءً لها رفضت ذلك. فقد قطعت معي مشوار الحياة الصعب وصبرت معي عليها».

مع السيارة

ويقول: «منذ أكثر من أربعين عاماً وأنا في صحبة هذا المقود، أول سيارة قدتها على خط الكويت وذلك في عام 1381هـ، أتذكر أنها كانت (هاف لوري)، وكنت أنقل عليها غرف نوم وأثاث وأقمشة من الكويت إلى الرياض وغيرها من مدن المملكة، وكذلك إلى الإمارات، كانت التجارة وقتها في الكويت عامرة وأكثر نشاطاً من بقية بلدان الخليج.

كانت الحياة صعبة، لكن المشوار من الكويت إلى الرياض بألف ريال، وكانت الألف وقتها مبلغاً مجزياً، فكان المردود المالي مشجعاً على تحمل المعاناة والأسفار والبعد عن الأهل، من أجل عيشهم الكريم».

مع الليموزين

في السبعينيات الميلادية، توقف سلمان عن العمل في النقل الثقيل. وبدأ مشواره مع «الليموزين». كانت أول سيارة اقتناها من طراز «تويوتا كريسيدا» اشتراها بـ 15 ألف ريال وباعها بعد ثلاث سنوات بـ 16 ألف ريال!!

«كان عملي على الليموزين عملاً رديفاً، لكنه كان الأحب إلى قلبي، والشيء الوحيد الذي لم يتغير في حياتي، ولقد عملت في مجالات عدة، فقد سجلت في أرامكو السعودية في بداية حياتي العملية، وتجاوزت الاختبارات، ووعدوني بإرسالي إلى المدرسة، عملت فيها لمدة 18 يوماً. لم أحسب أن أرامكو ستكون هكذا، ربما كنت صاحب مليون لو بقيت فيها، لكن ليس لك إلا ما كتب اللّه لك».

ويضيف: «عملت بعدها في الشركة التي أنشأت ميناء الدمام مدة سنة وأرادوا نقل خدمتي إلى الكويت لكني رفضت، ثم أسفت بعدها، وعملت في مطار الظهران في السبعينيات، وفي السنوات الأخيرة عملت في سابك حوالي تسع سنوات».

سيارة تنهض بأسرة

يعامل سلمان سيارته وكأنها ولد من أولاده. فيقول إنها مصدر الرزق، ولولاها بعد اللّه لما أكل الولد ولبس، ولما تربى وتعلم. «وعنايتي بها وحرصي عليها كعنايتي بأسرتي فهي مصدر معاشهم».

ويروي تفصيلاً مؤثراً يؤكد أهمية الدور الذي لعبته الليموزين في حياته فيقول: «لي أخ واحد، توفي أبي وكان صغيراً، فوُفّقت في تربيته ورعايته، وتعليمه، حتى صار أستاذاً جامعياً. العصا والسيارة علّما أخي وأولادي، العصا للتأديب والترهيب، والسيارة مصدر الرزق والترغيب. لقد قسوت على أخي في سبيل تعليمه، ولم أقس عليه في غير ذلك، فقد كان لليتم دور في تخفيف القسوة عليه دون الأولاد، لكن كان لا بد من الحد الأدنى منها ليستقيم في دراسته، وعندما أراد السفر لأمريكا لإكمال دراسته العليا دفعته للزواج قبل السفر حفاظاً عليه من المتغيرات الاجتماعية، وها قد آتت الجهود أكلها، ولا أشك في أنه تفهم ذلك عندما كبر ونضج».

بين الأمس واليوم

ويطيب لسلمان أن يتحدث عن سائقي وركاب أيام زمان، فيقول: خلال عقود من الزمن رأيت أصنافاً شتى من البشر، جنسيات مختلفة، أشكالاً مختلفة، نفوساً مختلفة، وأخلاقاً من القمة إلى القاع، وبعضهم نشأت بيننا وبينهم صداقة. كان سائقو الليموزين جميعاً من البلد، وكانوا أكثر احترافاً والتزاماً بقوانين المرور وأصول السلامة، وكان يعاون بعضهم بعضاً، فلو رأى سائق آخر منقطعاً بركابه في الطريق، فيبادر إلى مساعدته وإيصال ركابه إلى حيث يريدون دون أجر، فالأجر لصاحبه. أما الآن فأكثر السائقين أفقدوا المهنة بريقها.

الركَّاب كذلك، كان معظمهم من المواطنين، وكان كبار السن منهم يتجاذبون معنا أطراف الحديث، فكنا نقطع الطرق الطويلة ولا نشعر بالزمن، أما الشباب فكان يغلبهم الخجل. أما الآن فمعظم الركَّاب من الأجانب.

وما الذي تغيّر غَيْرَ الناس؟
«الشوارع.. كانت ضيقة وخطرة، فإذا أردنا الذهاب إلى الرياض مثلاً، كنّا نملأ خزان السيارة بالوقود ونأخذ معنا (تنكة) وقود احتياطي، لعدم انتشار المحطات على الطريق. كان الشارع من الجبيل إلى الظهران عرضه حوالي 4 أمتار فقط، فإذا تقابلت سيارتان فلا بد أن تأخذ إحداهما جانباً لكي تعبر الأخرى. لكنها أفضل من الآن!!

لماذا؟ لأن السير فيها أكثر سلامة!! وذلك لانعدام زحمة السيارات، ولأن سائقي السيارات أقل تهوراً، ولو وقعت حوادث فإنها حوادث خفيفة ونادراً ما تكون حوادث كبيرة، أما الآن فمعظم الحوادث قاتلة. ويضيف: خلال فترة قيادتي للسيارة التي تجاوزت الأربعين عاماً وقعت لي ثلاث حوادث خفيفة، كان المخطئ فيها الطرف الآخر، ولم أرتكب فيها أية مخالفة مرورية.

وحول ما إذا كان يعتزم يوماً ما ترك قيادة الليموزين يقول: ستبقى يدي على مقود السيارة ما حييت، فهي تمثل لي الحياة والحركة والنشاط، كما تمثل لي عمري مختزلاً في شريط الذكريات منذ عهد الشباب إلى أن يختار اللّه أمانته.

يصنف الكثيرون مادة البلاستيك على لائحة المواد المضرّة بالبيئة. يُعزز هذا التصنيف النسبة الكبيرة التي تشكلها المواد البلاستيكية من بين النفايات الصلبة والمدة الزمنية الطويلة التي يحتاجها البلاستيك للتحلل في الطبيعة أو التربة. فما هي صحة هذا الاعتقاد الشائع؟ مراسل القافلة في لندن **رياض ملك** يسلط الضوء على أهمية البلاستيك وتاريخ صناعته ويبدد الكثير من الصور القاتمة التي رسمناها في أذهاننا حوله..

البلاستيك..

يحيط بنا من كل صوب..
أعدو هو أم صديق؟

يكفي المرء أينما كان أن يدقق النظر قليلاً في ما حوله ليكتشف في لحظات إلى أي حد اكتسح البلاستيك حياته اليومية: القلم الذي نكتب به، الهاتف، أرضية المكتب، ورق الجدران، الكومبيوتر، أكياس التسوّق، الملابس، الأدوات المنزلية وبعض المفروشات، أوعية حفظ الطعام وتغليف الأدوية، قناني تعبئة مياه الشرب... كلها مصنوعة بشكل كامل أو جزئي من البلاستيك. وإذا كان بعض هذا البلاستيك خافياً عن عيوننا من حولنا مثل ذلك الذي يغلف الأسلاك الكهربائية داخل الجدران، فإن الذين يستعملون النظارات أو العدسات اللاصقة الحديثة يرون العالم بأسره من خلال عدسات هي على الأرجح من البلاستيك.

تاريخ البلاستيك

يعتقد الكثيرون أن البلاستيك مادة حديثة العهد دخلت حياتنا خلال السنوات الخمسين أو الستين الأخيرة. والواقع أن هذه المادة هي من مواليد القرن التاسع عشر. فقد عرضت أول مادة بلاستيكية من صنع الإنسان في المعرض الدولي الكبير الذي أقيم في لندن سنة 1862م تحت اسم باركسين (Parkeine)، نسبة إلى مخترعها الكسندر باركس.

لم تكن هذه المادة مشتقة من النفط أو الغاز الطبيعي كما هي مادة البلاستيك اليوم، وإنما كانت مادة عضوية مستخرجة من السليلوز. الجديد فيها كان في قابليتها تحت تأثير الحرارة لأن تأخذ شكل أي قالب، ومتى بردت تصبح صلبة وتحتفظ بالشكل الذي صُبّت فيه.

حاول باركس تسويق هذه المادة كبديل عن المطاط الطبيعي الذي كان يستعمل في نواح صناعية كثيرة. ولكن كلفة إنتاجها المرتفعة لم تساعده كثيراً. ولذلك عمد باركس إلى إنتاج مادته بنوعية متدنية لتخفيض كلفتها، مما ألحق بها سمعة سيئة أدّت في النهاية إلى إفلاس شركة باركس عام 1868م.

تلت محاولة باركس محاولات أخرى ظهرت على إثرها مواد جديدة تم تسويقها تحت أسماء تجارية كانت مشهورة جداً في ما مضى، منها مادة السلولويد التي استعملت في نهاية القرن التاسع عشر في صناعة كرات البلياردو بدلاً من العاج الطبيعي الذي أصبح نادراً وثميناً. ثم تلتها مادة البيكلايت نسبة إلى مخترعها ليو بيكلاند، وكانت هذه مادة صلبة غير قابلة للاحتراق، استعملت في مجالات عديدة بما فيها الصناعات الحربية.

وتعاقب اختراع المواد البلاستيكية ليلبي متطلبات سوق تتبدل بسرعة فظهرت مواد جديدة لاستعمالات مختلفة لا بد وأن القارئ قد سمع بمعظمها وعرفه، ومنها السيلوفان، النايلون، التيفلون.. وجميعها لا تزال تنتج وتستعمل إلى وقتنا الحاضر.

> بفضل البلاستيك تم توفير الكثير من الموارد الطبيعية مثل الأخشاب والمعادن وحتى بعض المنتجات الحيوانية

غير أن البداية الفعلية لصناعة البلاستيك على مستوى تجاري واسع تعود إلى العقد الرابع من القرن العشرين أي ما بين سنة 1930م و 1940م. كان أكثر ما شجع هذه الصناعة نمو الحاجة إليها أثناء الحرب العالمية الثانية. فأحد المنتجات البلاستيكية في ذلك الوقت كان البوليثيلين. وقد استعمله الحلفاء كمادة عازلة ساعدت إلى حد كبير في تخفيف وزن الرادارات مما مكّن من حملها على متن الطائرات بدلاً من تثبيتها على الأرض. وبعد نهاية الحرب، استمرّت هذه الصناعة في التطوّر والنمو لتلبية حاجة السوق الاستهلاكية وتزويدها بمنتجات لا حصر لها. وعلى سبيل المثال فإن إنتاج السوق الأميركية وحدها الآن من مادة البلاستيك يزيد على 300 بليون دولار سنوياً، ويقدر عدد العاملين في هذا الحقل بمليون ونصف المليون شخص من مختلف الاختصاصات.

لماذا البلاستيك؟

قد يتساءل القارئ عن سرّ نجاح مادة البلاستيك واستعمالها المستمر لما يزيد على قرن من الزمن من دون انقطاع. والجواب عن هذا السؤال يكمن في طبيعة المادة نفسها ومواصفاتها التي تؤهلها لاستعمالات غاية في التنوع وفي شى المجالات، حتى في تلك التي لا يلحظها الإنسان في حياته اليومية. هذا بالطبع إضافة إلى تدني كلفة إنتاجها نسبة إلى البدائل الأخرى. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا المسمّى يشمل مجموعة واسعة من المنتجات، لكل منها اسمه الخاص وتركيبه الكيميائي المحدد، والذي تنتج عنه مواصفات معينة تؤهله لاستعمال يتطلب هذه المواصفات. وإذا كان المجال لا يتسع للدخول في هذه التفاصيل التي يعلمها أهل الصناعة فمن الممكن تعداد مواصفات البلاستيك بشكل عام على أنه مادة خفيفة الوزن، مقاومة

للعوامل الطبيعية لا تصدأ ولا تتآكل، مطواعة إلى حد كبير، أي يمكن تشكيلها على أية صورة أو قالب، قوية ومتماسكة سواء أكانت على هيئة صلبة أو لينة، عازلة للحرارة والبرودة، قابلة للإنتاج بألوان مختلفة، جميلة المنظر، وأخيراً وليس آخراً قليلة التكاليف. وهذه الصفات لا تتوافر مجتمعة في أية مادة طبيعية أخرى. فلو أردنا على سبيل المثال استبدال مادة البلاستيك بمادة أخرى في توضيب أية سلعة، فإن ذلك سيضاعف وزنها أربع مرات ويضاعف حجمها مرتين. هذا بالإضافة إلى زيادة الكلفة واختلاف الشكل. وهذه الزيادة في الوزن والحجم ستؤثر إلى حد كبير على سعر السلعة للمستهلك نظراً إلى الزيادة في كلفة النقل ومراحله ووسائله المتعددة.

من معدات تستخدم في الفضاء إلى أبسط الأواني المنزلية.. تلك هي استخدامات البلاستيك!

ولو أخذنا جانباً آخر يتعلق بمقاومة البلاستيك للعوامل الطبيعية، لاكتشفنا ما له من أهمية على صعيد توفير المياه في المدن. هذه القضية التي تزداد أهميتها يوماً بعد يوم في العالم بأسره. فمعظم مدن العالم تشكو من هدر المياه نتيجة تسربها من القساطل القديمة وضياعها في الأرض. وفي بعض المدن تصل نسبة الهدر هذه إلى حوالي خمسين في المئة نتيجة تآكل القساطل المعدنية واهترائها. ولذا اعتمدت البلدان المتقدمة سياسة إبدال الشبكات المعدنية بشبكات جديدة من البلاستيك، مقاومة للتآكل، لا تتكسر بفعل الحوادث، علاوة على أنها تحافظ على نوعية الماء نظراً لطبيعة مادتها. يضاف بالطبع إلى هذا كله سهولة تركيبها وانخفاض كلفتها. بالإمكان طبعاً إيراد أمثلة عديدة أخرى للبرهان على الاستفادة من خصائص البلاستيك في استعماله بدءاً من السيارات والطائرات ورحلات الفضاء إلى أبسط الأدوات المنزلية في أكثر البيوت تواضعاً. الموضوع في النهاية مسألة طلب وكلفة مع الأخذ في الاعتبار الكفاءة العالية للمادة.

البلاستيك والبيئة

لتقويم أثر البلاستيك على البيئة لا بد من التعرض لناحيتين مهمتين. أولاهما علاقة البلاستيك بالحفاظ على الموارد الطبيعية وثانيهما موضوع التلوث البيئي. إن الحفاظ على الموارد الطبيعية يتطلب أمرين: الاقتصاد في استعمال هذه الموارد، ثم الاستفادة منها إلى أقصى درجة ممكنة. لقد حلت مادة البلاستيك محل مواد طبيعية أخرى في الصناعة أكثر ندرة في الطبيعة. فقد استعيض بالبلاستيك، بأشكاله المختلفة، عن الخشب والمطاط والزجاج ومعادن أساسية مثل الحديد والنحاس والألمنيوم وحتى عن بعض المنتجات الحيوانية مثل الصوف والعاج ومواد كثيرة أخرى. ولنأخذ مثالاً بسيطاً لنرى ما تعنيه هذه الاستعاضة في حالة واحدة فقط وهي استبدال أكياس التسوّق الورقية بتلك من البلاستيك (البوليثيلين) التي

نستعملها جميعاً كل يوم. هل يمكننا أن نتصور العدد الهائل من الأشجار التي كانت ستقطع لصنع مادة الورق لتوفير ملايين الأكياس الورقية يومياً بدلاً من الأكياس البلاستيكية والتأثير السلبي لذلك على البيئة. علاوة على ذلك فإن هذا الاستبدال يحقق العنصر الثاني للمحافظة على الموارد الطبيعية، أي الاستفادة القصوى من المادة المستعملة. فأكياس البلاستيك يتم استعمالها مرات عديدة بالمقارنة مع أكياس الورق التي تتلف من المرة الأولى، وفي أفضل الحالات من المرة الثانية. ولكن فائدة الاستبدال لا تتوقف عند هذا الحد؛ لأن هناك فوائد أخرى لا تقل أهمية، ومنها على سبيل المثال أيضاً أن عدد الأكياس التي يمكن نقلها في شاحنة واحدة فيما لو كانت من البلاستيك، يصبح بحاجة إلى سبع شاحنات في حال كانت هذه الأكياس من الورق. وهذا لا يعني فقط توفيراً في كلفة النقل لمصلحة المستهلك، وإنما يعني أيضاً اقتصاداً في استعمال الموارد الطبيعية، ومساهمة حقيقية في الحفاظ على نظافة البيئة بحرق كمية أقل من الوقود.

ولكن ماذا عن هذه الكميات الضخمة من المخلفات البلاستيكية التي تملأ شوارعنا بالمناظر المؤذية؟ وما هو مصير هذا الكم الكبير من المنتجات البلاستيكية الأخرى عندما تنتفي الحاجة إليها. أليس هذا هو التلوث البيئي بعينه؟

طبعاً الحديث هنا هو عن تدوير النفايات التي يشكل البلاستيك جزءاً منها نظراً إلى دخوله في معظم الصناعات. لقد أصبح تدوير النفايات مقياساً يقاس به تقدم المجتمعات، فكلما ارتفعت نسبة ما يدوره مجتمع ما من نفاياته دلّ ذلك على تقدمه ووعيه للموضوع البيئي. لذلك فإن انتشار الأكياس والقناني في الشوارع لا يعكس عيباً في البلاستيك بقدر ما يعكس خللاً في التصرف وقصوراً في استيعاب أهمية التدوير واستطراد التلوث البيئي. بل ربما كان البلاستيك من أكثر المواد قابلية للتدوير، يؤكد ذلك وجود مئات الشركات التي تعمل في هذا المجال، والتي تؤمن بالإضافة إلى نظافة البيئة آلاف فرص العمل.

مشكلة النفايات البلاستيكية في شوارع المدن وعلى الشواطئ تعود إلى عيب في سلوك الناس وليس إلى المادة نفسها



أما نتيجة عملية التدوير نفسها فهي منتجات جديدة من البلاستيك المدور بعضها معروف للقارئ مثل طاولات وكراسي الحدائق المنزلية ورياض الأطفال، وصفائح البلاستيك المستخدمة في نواح عديدة مثل صنع اللافتات، والخشب البلاستيكيّ الذي يأتي على شكل ألواح تماثل الألواح الخشبية وتحمل كثيراً من خصائصها، والبلاستيك السائل المستعمل في التصليحات الدقيقة. وفي ذيل القائمة تأتي الكرات البلاستيكية التي تستعمل وقوداً بدل الفحم والتي تعطي مردوداً حرارياً عالياً عند احتراقها. أما أنواع البلاستيك القليلة غير القابلة عملياً للتدوير فإنه يتم حرقها لإنقاص حجمها إلى العشر ثم يجري طمرها بعد ذلك في حفر خاصة في الأرض.

باختصار، لا يبدو في البلاستيك ما يستحق كل هذا الحنق عليه. والمكانة التي صارت تحتلها هذه المادة في حياتنا اليومية صارت أكبر من أن تقبل التقهقر أو التراجع أمام المواد المثيرة للحنين مثل الخشب والنحاس. فكل ما يتطلبه البلاستيك منا على الصعيد البيئي هو أن نحسن التصرف معه بعد انتفاء الحاجة إليه.

قصة ابتكار

المكيف

لطالما شكل الطقس الحار تحدياً للإنسان في التأقلم معه أو التخفيف من شدته، فابتكر أساليب عدة، تارة من خلال بناء المنازل من حجر رملي يحفظ البرودة أو الدفء، وتارة عبر استحداث كوىً في أعلى الجدران مفتوحة على تيارات الهواء. وجرت أول محاولة لتبريد مكان مغلق في منتصف القرن الثامن عشر حين عمد بعض مستشفيات الهند إلى طريقة بسيطة في التبريد تقوم على دفع الهواء عبر أنابيب من الثلج.

في العام 1902م وبعد عام واحد على تخرج ويليس هافيلاند كارير من جامعة كرونيل الأميركية بدرجة ماجستير في الهندسة صمم أول مكيف للهواء يتحكم بالحرارة والرطوبة لمطابع بروكلين لمنع التقلبات في الحرارة والرطوبة من إفساد الألوان المطبوعة على الورق. وساعد مكيف الهواء في إيجاد بيئة مستقرة مما جعل الألوان الأربعة للطباعة ثابتة ومضمونة النتيجة.

فكرة المكيف لمعت في رأس كارير فيما كان ينتظر القطار. كانت ليلة ضبابية عندها سرح بفكره في كيفية السيطرة على الحرارة والرطوبة. وحين وصل القطار، كان كارير توصل إلى فهم العلاقة بين الحرارة والرطوبة وقطرات الندى.

عدّل كارير تصميم المدفأة البخارية بحيث أصبح باستطاعتها استقبال الماء البارد والهواء المبرد المدار بواسطة المروحة. وتكمن مهارته الحقيقية في حسابه الدقيق وتعديله المتقن لحرارة الهواء وتدفقه، بحيث لم يبرّد النظام الهواء وحسب بل أزال رطوبته أيضاً.

إحدى براءات الاختراع الذي نالها كارير كانت لـ «آلة تعالج الهواء» وكان ذلك في العام 1906م. وعلى الرغم من أن كارير يُعرف بأنه «والد» مكيف الهواء إلا أن هذا المصطلح لم يطلق على هذا الجهاز إلا على يد المهندس النسيجي ستيوارت كرامر، الذي استخدمه في براءة ذمة لجهاز أضيف بخار الماء إلى الهواء فيه، لـ«تكييف» خيوط القطن والصوف في معامل النسيج.

وفي العام 1921م تمكن كارير مع ستة مهندسين آخرين من خلال شركة لم يتجاوز رأسمالها 35 ألف دولار، من اختراع مكيفات جديدة تعمل بالطرد المركزي مما سمح بتكييف مساحات كبيرة. وكانت آلات التبريد السابقة تعمل بواسطة جهاز ضاغط للغاز من خلال محرك ترددي، وكان الأمر يتضمن مخاطر التسمم، واحتمال اشتعال مادة الأمونيا، إلا أن الجهاز الجديد كان أكثر أماناً وفاعلية في التبريد.

ولم يبدأ استخدام مكيف الهواء لراحة الإنسان إلا في العام 1924م، حين تم تركيب ثلاثة محركات تكييف من تلك التي صممها كارير في متجر هادسون في ديترويت - ميتشيغن فتدافع الزبائن أفواجاً إلى المتجر المكيف. وانتشرت المكيفات لراحة الناس في المتاجر وقاعات السينما والمسارح. وفي العام 1928م، طوّرت الشركة أول مكيف منزلي عرف بـ «صانع الطقس» (Weather Maker). وإذا كانت الحرب العالمية الثانية تسببت في تراجع هذه الصناعة لبعض الوقت، فإن المبيعات راحت ترتفع بشكل مضطرد بعد الحرب. وصار الباقي تاريخاً، تاريخ منعش ومريح.

قصة مبتكر

سيث توماس

يكاد سيث توماس أن يكون أكثر الأسماء شهرة في عالم صناعة الساعات في الولايات المتحدة الأميركية. جمع ثروته من صناعة أول ساعة من الخشب ثم من النحاس. وكان صانع الساعات الأول الذي اخترع ساعة المنبه بالشكل التقليدي الذي نعرفه، حين توفي واحداً من أغنى أغنياء ولاية كونيكتيكيت.

ولد توماس في 19 أغسطس عام 1785م من أب يعمل نحّاساً، وحين بلغ الرابعة عشرة من عمره عمل لدى النجار دانيال توتيل في بليموث لتعلم الصنعة. وقرابة العام 1807م عمل توماس مع سيلاس هودلي لدى إيلي تيري في صناعة الساعات الخشبية الطويلة الشكل. بعد ذلك اشترى مصنعاً للساعات في بليموث - كونيكتيكيت قدر ثمنه في ذلك الوقت بألف وخمسمائة دولار، وتابع عمله منفرداً في صناعة صناديق الساعات الطويلة الشكل. إلا أن التطور الذي أحدثه شريكه السابق إيلي تيري على صناعة الساعات عام 1814م بصناعته ساعة الرف، ولذي اعتبر في حينه تحولاً في تاريخ هذه الصناعة، دفع توماس إلى شراء حقوق هذه الساعة وبدأ بإنتاجها بأشكال مختلفة.

وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر باشر توماس في إنتاج الساعات النحاسية الرخيصة وأرسل ابن شقيقته ماركوس برنس إلى بريستول لتعلّم صناعة الأجزاء المحولّة للحركة داخل الساعة. وعُرِف عن توماس أنه لم يكن مبادراً إلى تغيير إنتاجه أو أسلوب إنتاجه إلا إذا أُرغم على ذلك بفعل المنافسة. وفي العام 1853م أسس شركة خاصة به لصناعة الساعات. وبعد 23 سنة على تأسيس الشركة، أنتج توماس في 24 أكتوبر عام 1876م أول ساعة منبه ميكانيكية.

واختراع ساعة المنبه لم يكن حكراً على الأميركي توماس وإن كان الفضل يعود إليه في ابتكار التصميم التقليدي لها. ففي القرن الرابع عشر صُنعت أول ساعة ميكانيكية في العالم، وكانت ضخمة الحجم، ولم تُعرف الساعات المنزلية حتى العام 1620م، وبعضها كان منبهاً ميكانيكياً يعمل بواسطة التعبئة كل 12 ساعة وعندما يحين الوقت يسقط ثقل معين دافعاً مطرقة في اتجاه جرس يصطدم به من دون توقف حتى انتهاء العملية أو بإسكاته يدوياً.

وتوالى اختراع الأشكال البدائية من ساعات المنبه في بداية القرن الثامن عشر وصولاً إلى سيث توماس الذي كان أول من اخترع ساعة المنبه التي توضع إلى جانب السرير، وشاعت هذه الساعات وراحت شركات الساعات الأميركية تتنافس على إنتاجها وتلتها في ذلك الشركات الألمانية.

توفي توماس في العام 1859م عن 73 سنة في بلدة بليمون هولو. وبعد ست سنوات على وفاته أطلق على البلدة اسم توماستون (Thomaston) تخليداً لذكراه. وفي العام 1932م توفي حفيده سيث اي. توماس، وفقدت الشركة أية صلة لآل توماس بها إلا أنها بقيت تعمل حتى العام 1982م حين اشترتها مصانع تايلي في جورجيا.



لماذا يعجز الطب عن المواجهة؟

والآن سارس

لوحة فرانسيس باكون

أثار وباء الالتهاب الرئوي اللانمطي «السارس» موجة رعب عالمية منذ الأيام الأولى لتفشيه في الصين وهونغ كونغ، على الرغم من أن عدد ضحاياه كان لا يزال آنذاك نقطة في بحر قتلى حوادث السير والتدخين، وحتى السمنة الزائدة. فسبب الرعب لا يكمن في عدد ضحايا هذا الوباء الجديد، بل في احتمالات تفشيه الهائلة وقدراته اللا محدودة على عبور القارات، أي في احتمال انتقاله إلى مرحلة الفتك بالملايين، خاصة في البلدان التي لا تمتلك البنية الصحية والطبية المتطورة. وما يزيد الطين بلّة ويضاعف من هلع الناس هو أن مرض «السارس» ليس ظاهرة منعزلة، بل يندرج في إطار سلسلة من الأوبئة والأمراض التي باتت تتوالى بسرعة كبيرة. فمن الإيدز والأيبولا، إلى جنون البقر في شكليه الحيواني والبشري يجد المرء نفسه، رغم الاختراعات والاكتشافات الطبية المدهشة معرضاً أكثر من أي وقت، أو هكذا يعتقد، لخطر الهلاك على أيدي أجناس مجهولة من الفيروسات والبعوضات والبكتيريا التي لا يوجد في صيدلياتنا الضخمة ما يستطيع مجابهتها.

الصراع بين الإنسان والجراثيم صراع بقاء بين طرفين حيين، يطوّر فيه كل منهما كامل أسلحته ويحارب حتى النفس الأخير

طواعين الماضي

إنها ليست المرة الأولى التي تجابه فيها الإنسانية مثل هذه التحديات والأخطار، فالمؤرخون ما زالوا عاجزين عن إعطاء تفسير مقنع لطبيعة «الوباء العظيم» الذي فتك بأهل أثينا عام 430 ق.م، وفي القرن السادس الميلادي، وتحديداً بين 542 و564م، خرج وباء الطاعون من منطقة البحر الأسود ليعمّ أوروبا وإفريقيا وآسيا ويقضي على نحو ستين مليوناً من البشر. وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تفشّى في أوروبا وباء «الطاعون الدُمّلي» والذي عرف في حينه بالطاعون الأسود نظراً للون الدم القاتم في الدمامل التي كان يتسبب بها. وقد قضى هذا الوباء على مدن بأكملها في سنة واحدة. إذ توفي آنذاك نصف عدد سكان فلورنسا والبندقية، وبلغ عدد الوفيات في إنجلترا ألف شخص يومياً.

وكان الطاعون الذي تفشى في فلسطين وبعض بلاد الشام من العوامل التي أدت إلى هزيمة نابليون بونابرت عند حصاره لمدينة عكا في بداية القرن التاسع عشر. وفي العقدين الأولين من القرن العشرين، أهلك وباء الكوليرا «الهواء الأصفر» مئات الآلاف في البلاد العربية على دفعتين ضربتا بلاد الشام في عامي 1901 و 1913م.

غير أن أشهر أوبئة القرن العشرين كان وباء «الأنفلونزا الإسبانية»، الذي تزامن انتشاره مع نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918م وسمي آنذاك بـ «الجريب». فقد قضى هذا الوباء على أكثر من ثلاثين مليوناً من البشر خلال ستة أشهر فقط، في حين أن ضحايا الحرب على مدى أربع سنوات كانوا تسعة ملايين فقط! وقد تفشّى هذا المرض عالمياً حتى أنه أعطى اسمه لاحقاً في الثقافة الشعبية لمرض الأنفلونزا ككل، وذلك لتشابه عوارض الوبائين.

وكان لا بد من انتظار اكتشافات باستور وكوخ لعالم الجراثيم في القرن التاسع عشر، واكتشاف البنسلين عام 1928م على يد فليمنغ، لكي تتنفس الإنسانية الصعداء، ويتم إنقاذ حياة مئات الملايين من البشر من عدو مخيف اسمه الجرثومة.

وعلى مدى أكثر من نصف قرن ظل الخط البياني المؤشر لانتصارات الطب على الجراثيم يتجه صعوداً، فأمراض مثل السل، الكوليرا، السفلس، وغيرها لم تعد قاتلة، بل صار علاجها أمراً ممكناً إذا تم ذلك في الوقت المناسب. كما أن اللقاحات أمّنت دروعاً واقية للأجسام غير المصابة، بحيث أن تفشي الأمراض الجرثومية كأوبئة صار أمراً مستبعداً.

وطواعين اليوم

شهد الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي بداية تفشي أوبئة جديدة زعزعت اطمئنان الإنسان إلى قدرات الطب. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن السارس لا يزال محاصراً بشكل عام في مناطق جغرافية محددة في الشرق الأقصى، والأيبولا لم يخرج عملياً عن دوائر محددة وضيقة نسبياً في إفريقيا، يمكننا القول أن الإيدز كان آخر وباء

يضرب البشرية على اتساع دول العالم بأسرها. وعلى الرغم من أن الإيدز لم يعد يتصدر عناوين الصحف ونشرات الأخبار التلفزيونية كما كان الحال عند بداياته في الثمانينيات الميلادية، فإن أعداد ضحاياه قد تجعله قريباً الوباء الأشد فتكاً في التاريخ.

فالإحصائيات التي أصبحت اليوم أكثر دقة مما كانت عليه أيام الطاعون الدملي، تشير إلى أرقام مذهلة ومرعبة. إذ بلغ عدد الذين ماتوا بسبب الإيدز في العام الماضي فقط مليونين ونصف المليون نسمة، بينما بلغ عدد الوفيات منذ بداية انتشاره وحتى الآن أربعة عشر مليوناً. أما عدد المصابين به حالياً فيزيد على ثلاثة وثلاثين مليوناً. أي أننا لو افترضنا جدلاً أن هذا الوباء توقف اليوم عن الانتشار، لكان مجمل ضحاياه أكثر من سبعة وأربعين مليون نسمة.

العبث بقوانين الطبيعة وراء ظهور أمراض جديدة وتفشيها على الصعيد العالمي ومهمة الطبيب صارت معالجة آثار الفوضى التي تعمّ العالم

عجز الطب عن المواجهة تجلّى أيضاً في وباء «جنون البقر» الحيواني المنشأ والقادر على اجتياح الإنسان أيضاً. فأمام فقدان أي علاج للأبقار المصابة، واحتمالات تفشيه الخطيرة، لم يكن هناك من «حل» لمواجهة هذا الوباء سوى إبادة كل قطيع يظهر هذا المرض على بقرة واحدة فيه!؟ يقول البروفيسور بيار ماري ليدو المدير في مركز البحوث العلمية الفرنسية والباحث في معهد باستور: «في حين أن الهدف المعلن لبحوث علماء الأحياء هو إطالة عمر الإنسان، تأتي الأمراض المعدية الجديدة لتهدد كل إنجازاتنا دون أن نستطيع تنظيم هجوم معاكس حتى الآن».

حروب بين أقوياء

يقول التعريف البسيط للوباء إنه انتشار سريع لمرض جرثومي، ليشمل منطقة جغرافية معينة، أو عدة مناطق، وأحياناً العالم كله. وقد وضع العلماء مقاييس ومصطلحات لوصف هذا الانتشار كإحصاء نسبة الإصابات في عدد السكان وعدد الإصابات خلال فترة زمنية محددة وفي مساحة جغرافية معينة.

والمرض الجرثومي أساسه «ميكروب» سواء أكان من نوع البكتيريا أم الفيروس، الذي ينفذ بطرق مختلفة إلى الجسم ثم يدخل في صراع مع جهاز مناعته. هذا الصراع قد ينتهي بالقضاء على الميكروب، أو بموت الشخص المصاب. إذن هو صراع بقاء بين طرفين حيين، ولذلك فهو صراع شرس يطوّر فيه كلٌ من الطرفين كامل أسلحته ويحارب حتى النفس الأخير.

ففي مجال محاربة البكتيريا، طوّر الإنسان أشكالاً متعددة من المضادات الحيوية للقضاء على البكتيريا المختلفة مثل تلك المسببة للملاريا والسل. أما الفيروس الذي يختلف حجماً وتركيباً عن البكتيريا، فلا يحارب مباشرة بالأدوية، بل بتنشيط جهاز المناعة في الجسم من خلال إعطائه جرعة مخففة من الفيروس نفسه تدفعه إلى إنتاج الأجسام المضادة التي تهاجمه وتشلّ حركته عندما يدخل الجسم بشكل جدي. وهذا ما يعرف بالتلقيح. إذن، لإنتاج لقاح ضد فيروس ما يجب أن نتعرف عليه أولاً، وهذا يحدث بعد وقوع الإصابة. فالفيروسات كائنات مجهرية يلزم تكبيرها مئات آلاف المرات لرؤيتها، تتواجد في الماء والحيوان والتربة. لذلك من غير الممكن البحث عنها واصطيادها قبل ظهورها داخل الجسم مسببة له المرض. وحتى عند التعرف على الفيروس، فإن ذلك لا يعني بالضرورة التمكن من إيجاد لقاح مضاد له. وفي هذا المجال يقول مدير البرامج الصحيّة في «منظمة اليونيسيف» الدكتور علي الزين: «إذا كنا نستخدم فيروساً واهناً للقاح ضد الحصبة مثلاً، فإننا لا نستطيع ذلك تجاه مرض الإيدز، لأن لا أحد يجرؤ على ذلك. فنحن لا نعرف إن كانت الفيروسات المستخدمة وهنت بالفعل أم لا». ويضيف: «إن التطورات التقنية ساعدت في الكشف عن طرق معالجة كنا نجهلها، حتى أن التقنيات العسكرية صارت تستخدم في الطب وحققت نجاحات كثيرة. لكن هذا لا يعني أن أسطورة الطب القادر على القضاء على أي مرض صحيحة، فهناك مشكلات جديدة تظهر، وبعضها يأخذ منحىً تفجيرياً».

ويعتقد الطبيب المتخصص في الأمراض الجرثومية في الجامعة الأميركية في بيروت، الدكتور مروان عويضة، إن النظرة التي كانت تُبجّل قدرات الطب في القضاء

على الأمراض الجرثومية قبل نحو ربع قرن، صارت اليوم أكثر تواضعاً. لا بل إنها انتقلت من فكرة القضاء على الجراثيم إلى التفكير في طريقة للتعايش معها.

فالجراثيم حسب ما تبيّن للأطباء والعلماء أقوى بكثير مما كانوا يتصورون، وهذا أمر لا يدعو إلى الاستغراب، فهي كائنات حية، تتغير حسب ظروفها، ولديها القدرة على أن تتطور للدفاع عن نفسها والبقاء، وحتى لأن تصبح أكثر فتكاً. وعلى سبيل المثال، فإن دواء البنسلين كان كفيلاً في الماضي بالقضاء على «داء الرئة»، إلا أن الجيل الجديد من الجراثيم نفسها بات قادراً على مقاومة البنسلين ومضادات حيوية أخرى، خاصة وأن سوء استعمال هذه المضادات الحيوية منح الجرثومة قوة وقدرة على التنوع. ويحذر الدكتور عويضة من أننا في ظل هذه الحلقة المفرغة قد نصل إلى «حقبة ما بعد المضادات الحيوية» ولا أحد يعرف ما قد يحصل في هذه الحال.

تقول الدوائر الطبية والعلمية في بريطانيا إن ظهور أمراض جديدة هو أمر حتمي. وظهور السارس لم يكن مفاجأة لأهل العلم، بل على العكس، كانوا يتوقعون شيئاً من هذا القبيل. ويعود بعض الذعر عند بداية تفشي

من رواية «الطاعون»
ألبير كامو



1

– طبعاً أنت تعرف ما هو يا ريو؟

– أنتظر نتيجة التحليلات.

– أما أنا فأعرفه، ولست بحاجة إلى التحليلات. لقد مارست جزءاً من مهنتي في الصين، وشاهدت بعض الحالات في باريس منذ عشرين عاماً. بيد أنهم لم يجرؤوا آنذاك على إطلاق اسم عليها.. ثم، كما يقول أحد الزملاء: «مستحيل فجميع الناس يعرفون أنه اختفى من الغرب». أجل كان الجميع يعرف ذلك، ما عدا الأموات. كفى يا ريو، فأنت تعرف مثلي تماماً إنه..

قال: «نعم يا كاستيل. إن هذا يكاد لا يصدَق. ولكن يبدو جيداً أنه الطاعون».

2

«كان يعرف ما كان هذا الجمهور الفَرِح يجهله، وأن بإمكان المرء أن يقرأ في الكتب أن قصيمة الطاعون لا تموت ولا تختفي قط، وأنها تستطيع أن تظل عشرات السنوات نائمة في الأثاث والملابس، وأنها تترقب بصبر في الغرف والأقبية والمحافظ والمناديل والأوراق التي لا حاجة لها، وأن يوماً قد يأتي يوقظ فيه الطاعون جرذانه، مصيبة للناس وتعليماً لهم، ويرسلها تموت في مدينة سعيدة».

السارس إلى الاعتقاد في أن يكون فيروس هذا الوباء متحدراً من فيروس «الأنفلونزا الإسبانية» التي أشرنا إليها سابقاً، والتي لا تزال ذكراها تؤرق الأطباء بعد أكثر من ثمانية عقود على انحسارها. فالفيروس مثل البكتيريا ينهزم ويتراجع، إلى أن يطوّر أسلحته ويعود إلينا في ثوب جديد. ولكن الاعتقاد لاحقاً بأن الفيروس الجديد قد يكون حيواني المنشأ، ولا علاقة له بفيروس الأنفلونزا الإسبانية أراح أعصاب الأطباء قليلاً.

عولمة الآفات

إلى ذلك، هناك عوامل لا تزال تنتصر للجراثيم في معركتها ضد الإنسان. والأدهى من كل ذلك أن بعض هذه العوامل هو من صنع الإنسان نفسه، وعلى علاقة بمقومات العولمة المبنية على نمط جديد من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. فمن تجليات العولمة على الصعيد الصحي أن أمراضاً غير معروفة وكامنة تاريخياً في بقع جغرافية ضيقة صارت مرشحة للتفشي على الصعيد العالمي. إذ أن قدرة المرء على التجوال في العالم خلال ساعات قليلة، وآلاف الرحلات الجوية ما بين عواصم العالم يومياً سهّلت انتقال الجراثيم المصاحبة للإنسان من مكان إلى آخر.

وإذا كان الإنسان قديماً يأكل ما يزرعه، فإنه الآن لا يعرف شيئاً عن مصدر طعامه، إذ أن عملية الاستيراد تشمل كل شيء بالإضافة إلى طريقة التصنيع. وهذه خزانات تحمل معها أشياء لا نعرفها، ولا شيء يضمن عدم احتوائها على جراثيم مسالمة أو قاتلة لم تكن موجودة أصلاً في البلد المستورد.

إلى ذلك يبدو أن نجاح الطب في إطالة عمر الإنسان كان سيفاً ذا حدين. إذ يرى الدكتور عويضة «أن الهدف، أي جسم الإنسان، صار سهلاً على الجرثومة التي تسعى إلى اختراقه، ولا سيما أن الإنسان صار يعيش عمراً أطول، مما يجعله ضعيف المناعة أكثر فأكثر».

وأيضاً هناك العامل الاقتصادي الذي لا يمكن إغفاله، بدءاً باستغلال التقنيات للحصول على الربح السريع في إنتاج المواد الغذائية مروراً باستخدام المبيدات وصولاً إلى التعديلات الوراثية التي لا يمكن التكهّن سلفاً بكافة نتائجها. أليس مرض جنون البقر في شكله الإنساني هو أوضح تعبير عن هذا الاستهتار بقوانين الطبيعة عندما أصبح الركض وراء الإنتاجية المفرطة والاستهلاك الجنوني سبباً لتغيير طريقة تغذية البقر، وهي حيوانات لا تأكل سوى النبات، بتقديم الطحين الحيواني لها وحقنها بمختلف أنواع الهرمونات، لا لشيء سوى إنتاج المزيد من اللحوم ذات النوعية السيئة لتحقيق المزيد من الربح في أسرع فترة ممكنة؟.

وإذا كانت الجهة التي تملك قوة الإنتاج في العالم تمتلك العلم أيضاً، فإن للعولمة نتائج إيجابية في حفز هذه القوة على توظيف قدراتها لمكافحة الأوبئة التي تظهر في أي جزء من العالم انطلاقاً من الحفاظ على مصالحها فيه.

وداعاً.. لأسطورة الطب القادر على كل شيء

فمرض الملاريا الذي كان مستوطناً في مناطق فقيرة من العالم لم يكن يثير اهتمام الدول الرأسمالية التي كانت تعتقد أن هذا الوباء لا يلامس حدودها ومجتمعاتها. والحمى المالطية التي تصيب الآلاف في العالم العربي لا تجد من يهتم في لقاح للقضاء عليها. أما أمراض مثل «جنون البقر» و«الإيدز» و «سارس» التي تخطت كل الحدود أخيراً فقد شهدت استنفاراً عالمياً لمكافحتها والقضاء عليها وتمكنت الأبحاث، التي انطلقت بمبادرة من منظمة الصحة العالمية وخلال أقل من شهرين، من حل لغز التركيب الوراثي لفيروس «سارس». الأمر الذي يشكل خطوة كبيرة إلى الأمام قد تختصر الوقت اللازم لمواجهة هذا المرض والقضاء عليه.

المضادات الحيوية تفقد قدراتها تدريجياً، والدكتور عويضة يحذر من الوصول إلى «حقبة ما بعد المضادات، إذ لا أحد يعرف ما قد يحصل آنذاك»

والسياسة أيضاً..

وماذا عن السياسة بمعناها الدقيق؟ هل لها من دور في هذه المواجهة ما بين الإنسان والجراثيم. ظاهرياً، يبدو للكثيرين أن تحالف بني البشر ضد الأوبئة القاتلة أمر بديهي. ولكن نظرة مدققة إلى الأمر تكشف أن الأطباء العلماء في المختبرات يعملون أحياناً تحت مؤثرات سياسية غير مثالية. فعندما أعلن مركز أطلنتا في مطلع الثمانينيات الميلادية، وهو من أهم المراكز العلمية لرصد الأمراض القديمة والطارئة في العالم، عن اكتشاف مرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز)، لم تكن ردة فعل إدارة الرئيس رونالد ريغان المحافظة على مستوى جرس الإنذار، لا بل كان فيها بعض اللامبالاة تجاه هذا المرض الذي اعتبرته «معيباً»، ولم تكرس أية أموال تذكر لدعم الأبحاث ومحاربته، فقام الفنانون ونجوم السينما بالتبرع لسد هذه الفجوة. أما اليوم وبعد تفشي هذا الوباء، فقد وصلت الأرصدة التي خصصتها إدارة الرئيس جورج بوش إلى خمسة عشر مليار دولار لمحاربته ومنع استفحاله، وإيجاد لقاح يقي منه. ومن المرجح بالطبع أن هذه الأرصدة كانت ستكون أكثر جدوى عند بداية انتشار الوباء.

وتظهر العصي السياسية في دواليب العلم ومكافحة الأوبئة بصورة أوضح خلال أزمة السارس الحالية، فقد احتاجت منظمة الصحة العالمية إلى إذن من الصين لتفقّد تايوان عند بداية تفشي المرض فيها. واتهمت تايوان الصين لاحقاً بعرقلة مساعي المنظمة الهادفة إلى مساعدتها بحجة أنها ليست عضواً فيها.. وفيما ينهمك الدبلوماسيون في البلدين بتبادل الاتهامات، يزحف فيروس السارس من شخص إلى آخر، مستفيداً من انهماك خصومه في خلافاتهم.

على كل حال، ولو افترضنا جدلاً أن العلم توصل إلى تصنيع الأدوية القادرة على معالجة المصابين بهذه الأوبئة، أو اللقاحات الواقية منها، فهذا لا يعني بالضرورة استفادة الجميع من هذه المكتشفات، فالأبحاث العلمية صارت مكلفة للغاية وتحتاج إلى موارد مالية كبيرة، أي أن العامل الاقتصادي صار مؤثراً وطرفاً في اللعبة، فالإحصائيات تشير إلى أن نحو 95 في المئة من المصابين بالإيدز هم في إفريقيا. ولكن الشركات الغربية التي أنتجت أدوية تبطئ مفعول الفيروس، لا تسمح للأفارقة بإنتاج هذه الأدوية محلياً بتكلفة رخيصة، وتصر على بيعه إليهم بأضعاف كلفة تصنيعه محلياً حتى لا تتأثر أرباح مساهميهم (تصل كلفة أدوية إبطاء مفعول الفيروس إلى حوالي ثلاثة آلاف دولار شهرياً!). وإذا أردنا أن نذهب إلى نهاية المطاف في هذا المجال نشير إلى أن هناك تلميحاً خفيفاً في بعض دول العالم الثالث وخاصة في إفريقيا إلى أن الدول المتقدمة تمنع عنها عمداً تقنية الأدوية لا لأسباب تجارية فقط، وإنما للحد من الزيادات الهائلة في أعداد سكانها والتي قد تشكل تهديداً للدول المتقدمة في المستقبل.

كل هذا يدفع الأطباء إلى القول أن لا سياسة عالمية تُصنع للمصلحة العليا للإنسان، ومهمة الطبيب صارت معالجة آثار الفوضى التي تعم العالم.

وإذا كان هناك من أمل في أن يتمكن الطب من القضاء على الأوبئة التي تفتك بالبشر حالياً، فالمؤكد أن ذلك لن يكون في القريب العاجل، كما أنه لن يكون بالعلم وحده.

ملحقات

السارس.. الدليل العلمي*

هو التهاب شديد غير نموذجي يصيب رئة الإنسان، ينتج عنه إصابة الجسم بفيروس جديد لم يسبق للعلماء التعرّف عليه من قبل، وينتمي إلى عائلة تُعرف بـ «الفيروسات التاجية» (لظهورها تحت المجهر في صورة التاج).

ينتقل هذا الفيروس من شخص مصاب إلى شخص سليم عن طريق ما يعرف بالقطيرات. فعندما يعطس المريض أو يكح، تنتشر آلاف القطيرات في الهواء المحيط به. ويعيش الفيروس في هذه القطيرات لمدة ست ساعات، ويبقى على قيد الحياة لثلاث ساعات أخرى بعد أن تجف القطيرة.

ومن طرق حدوث العدوى الملابس والمناشف الملوثة، كما أن سقوط القطيرات الملوثة على يد المريض قد ينقل الفيروس إلى شخص سليم من خلال المصافحة مثلاً. غير أن انتشار المرض عبر استنشاق القطيرات الحاملة للفيروس يبقى الأكثر حدوثاً.

لا تختلف عوارض مرض سارس كثيراً عن غيره من الأمراض الصدرية الحادة، إذ يصاب المريض بارتفاع في درجة الحرارة، وتحدث له نوبات ارتعاش وكحة، وصعوبة تنفس وألم في الصدر، إضافة إلى بعض الأعراض غير المألوفة في الأمراض الرئوية الأخرى مثل الصداع وألم العضلات والغثيان والإسهال وألم الحلق.. إلا أن التشخيص النهائي للمرض يعتمد على التعرف على الفيروس في إفرازات الجسم كاللعاب والمخاط.

أما علاج المرض فيقوم أولاً على عزل المريض ومن ثم تنفيذ خطة علاجية ذات شقّين: أولهما علاج الحالة العامة للمريض: راحة تامة، وتغذية جيدة لتقوية المناعة، وإعطائه الأدوية التي تعمل على خفض الحرارة، وتهدئة الكحة، وحماية المريض من أمراض أخرى قد تضعف مناعته. أما الشّق الثاني للعلاج فيتكون من المضادات الحيوية القاتلة للبكتيريا التي قد تصاحب الفيروس في هجومه على الجسم. وتتوافر أيضاً أدوية تعطّل نشاط الفيروس المسبب للمرض ومنها «ريبافيرين»، كما أن للمركبات الاستيرويدية (مثل الكورتيزون) دوراً في علاج مرض سارس، إلا أن ذلك لا يزال قيد الدراسة.

* مساهمة من:
الدكتور حذيفة أحمد الخرّاط
مستشفى جامعة القاهرة


المحترف السعودي

درهم وقاية.. غسل الأيدي

تشدد المختصة في علمي الجراثيم والأوبئة سمر خازندار على أهمية الوعي العام في الحرب على الأوبئة والأمراض الجرثومية، لما للوقاية من دور فاعل في القضاء على هذه الأمراض من خلال تقطيع سلسلة انتشارها ما بين الناس. وللدلالة على سهولة انتقال الجراثيم من شخص إلى آخر تضرب خازندار مثلاً بقولها: «إن الغطاء الجرثومي الموجود على جلد أي إنسان منّا، يتبدّل تماماً عندما يمضي هذا الإنسان يومين في المستشفى (الذي يعتقد أنه أكثر الأماكن أمناً على هذا الصعيد)، فيصبح غطاءه الجرثومي الجديد مؤلفاً من خليط من الجراثيم التي يحملها المرضى في المستشفى».

وتفاجئنا الباحثة خازندار في حجم الأهمية التي توليها لأبسط أشكال النظافة المعروفة ألا وهو غسل الأيدي بالماء والصابون كواحدة من أبرز وسائل وقف انتشار الأمراض الجرثومية. وتقول: «لو أن كل إنسان يغسل يديه بالماء والصابون كما يجب وفي كل مرة يكون فيها الأمر ضرورياً، لكان أطباء الأمراض الجرثومية عاطلين عن العمل..».

وحول نوعية الصابون وما إذا كان يجب أن يكون خاصاً ومطهراً، تقول «إن الصابون المطهر ضروري في حالة وجود مخاطر كبيرة ناجمة عن أنواع معينة من الجراثيم، ولكن حتى الاكتفاء بالصابون العادي يمكنه أن يكون كافياً في معظم الأحيان».

من الحيوان إلى الإنسان

من المعروف أن ثلاثاً من كل أربع حالات من الأمراض الجرثومية التي تصيب الإنسان، تتأصل أولاً في الحيوان. وبطريقة ما ينتقل المرض من كائن حيّ إلى آخر. فإضافة إلى الإيدز الذي انتقل إلى الإنسان من القردة، وجنون البقر، هناك البعوض الذي نقل فيروس غرب النيل إلى الإنسان. وفيروس «هانتا» المميت يأتي من الفئران.

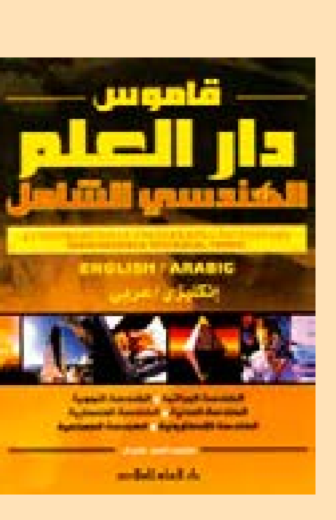
وفي ماليزيا تعرّض الناس في سبتمبر 1998م إلى مرض غامض أدى إلى حمّى وألم في العضلات وإلى تورّم في الدماغ. بدأ المرض في الجزء الشمالي في الجزيرة وانتشر عبر البلاد خلال سبعة شهور وأدى إلى مقتل 105 أشخاص. وعندما تقفى المحققون أثر المرض وصلوا إلى مزرعة خنازير في مدينة إيبوه وهي مستوطنة عرفت بأنها مصدر للفيروس، ولم يتم تحديد كيفية انتقال المرض نحو الإنسان. إلا أن منظمة الصحة العالمية ترجح أن الفيروس بدأ في وطاويط الفاكهة والخنازير كانت وسيلة الإنتقال إلى الإنسان.

انتبهوا بريونات

منذ أن برز مرض جنون البقر الغريب بدأ يلوح في الأفق شبح أمراض جديدة يجهل العلماء كل شيء تقريباً عنها. والعامل المسبب لهذه الأمراض المعدية ليس ميكروباً ولا بكتيريا ولا طفيلية ولا فيروس. إنه البريون. كلمة لا تزال تدخل الرعب في قلوب العلماء. فالبريونات لا تدخل ضمن أية فئة معروفة من العوامل المُعدية. إنها على الحدود بين عالم الفيروسات وعالم المجهول، عالم الأحياء والجماد. ونظراً لخطورتها المفترضة وعدم وجود أي علاج لظواهرها؛ فقد اختارت السلطات الطبية والسياسية اعتماد مبدأ الوقاية المطلقة إزاءها. فعندما تكتشف حالة إصابة بجنون البقر، تعمد السلطات البيطرية إلى إبادة القطيع بكامله، ليس خوفاً على البقر، بل من إمكانية انتقال هذا البريون المسبب للمرض إلى البشر، خاصة وأن بعض الحالات البشرية قد سجلت هنا وهناك وقضى المصابون بها من دون استثناء.

باستثناء التأكيد على أن هذه البروتينات الغامضة هي وراء إصابة البقر بالجنون، والبشر بمرض كروزفيلد جاكوب (الشكل البشري لجنون البقر)، فالعلماء يجهلون كل شيء عن شكل هذه البروتينات وحجمها. كل ما يعرفونه عنها هو أنها تفتك بالخلايا والبروتينات السليمة بمجرد الاحتكاك بها. وهي لا تتأثر بالمضادات والمطهرات ولا بالحرارة، فتدمر خلايا الدماغ حتى يتحول شكل هذا الأخير كالإسفنجة.

إقرأ للعلم

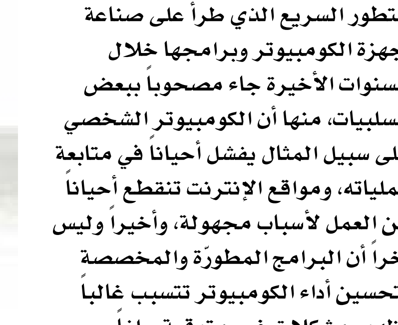


قاموس دار العلم

جاء في البيان الصحفي الصادر عن دار العلم للملايين أنها أصدرت أحدث وأكبر قاموس هندسي حديث إنجليزي - عربي». هذا القاموس الصادر في شهر مايو 2003م، يضم أكثر من 150000 مفردة فنية وعلمية وتقنية قديمة وحديثة».

وعلى الرغم من أن البيان الإعلاني ركّز على موضوع الهندسة أكثر من سواه ولأسباب ترويجية على الأرجح، فإن هذا القاموس يحتوي على كل ما يحتاجه المهندس من مصطلحات ويساعد المهندسين في التطوّر في مجالات أعمالهم..الخ. ويقع في 1400 صفحة ويشمل معظم العلوم المعروفة في حياتنا المعاصرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الطب، الطيران، الأعمال المصرفية والمالية، الكيمياء، التجارة، أنظمة الاتصالات وقواعد البيانات، الكومبيوتر، الهندسة بفروعها، المال وإدارة الأعمال، النفط والصناعة النفطية، الصيدلة، الرياضيات، البحرية التجارية، العسكرية، النقل البحري والبري والجوي، القانون، الدبلوماسية الدولية، رموز واختصارات أشباه المواصلات، البكتيريا، التأمين.. الخ.

الكومبيوتر يداوي نفسه



التطور السريع الذي طرأ على صناعة أجهزة الكومبيوتر وبرامجها خلال السنوات الأخيرة جاء مصحوباً ببعض السلبيات، منها أن الكومبيوتر الشخصي على سبيل المثال يفشل أحياناً في متابعة عملياته، ومواقع الإنترنت تنقطع أحياناً عن العمل لأسباب مجهولة، وأخيراً وليس آخراً أن البرامج المطورة والمخصصة لتحسين أداء الكومبيوتر تتسبب غالباً بظهور مشكلات غير متوقعة سلفاً.

لذا قام فريقا أبحاث من جامعتي «ستانفورد» و«كاليفورنيا» بتصميم نظام متكامل مهمته استدراك الخطأ واستعادة المعلومات التي أضاعها الكومبيوتر بأقصى سرعة ممكنة، وأطلق عليه اسم (Recovery-Oriented Computing) أي «الحوسبة ذات التوجه الاستدراكي».

ويقول مصممو هذا النظام إنه يقوم على قواعد أربع هي:

1 - الاستدراك السريع انطلاقاً من أن المشاكل واقعة لا محالة.

2 - قيام الموردين بتأمين معدات أفضل تساعد العاملين على الأجهزة في اكتشاف مصادر الأخطاء، خصوصاً في الأجهزة متعددة الأجزاء.

3 - إضافة إمكانية «إلغاء الأمر» على أنظمة التشغيل، ليتسنى للعاملين على هذه الأنظمة تصحيح الأخطاء.

4 - قيام علماء الكومبيوتر بتطوير برامج لفحص الأخطاء والمساعدة في تدريب العاملين عليه، أي بعبارة أخرى أن يقوم الكومبيوتر بإصلاح نفسه بنفسه.

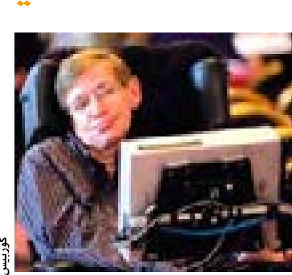
تشبّهوا بأبي بريص!

لاصق.. بلا صمغ!

قدرة أبو بريص في السير على سقف الغرفة أو أي مكان آخر كانت تحيّر الناس، لكنها كانت تثير استغراب العلماء وإعجابهم. إنه يلصق قدميه على الجدار ويتعلق بهما وفي نفس الوقت يسير بسرعة مذهلة.

مع تقدم العلم استطاع العلماء كشف لغز هذا الالتصاق، لكن من أين لهم أن يقلدونه.. مؤخراً نشر مجموعة من العلماء الإنجليز بحثاً في مجلة (ناتشور ماتيريالز) يصفون فيها كيف استطاعوا نسخ وسيلة أبو بريص في التعلّق بالسقف وهم بالتالي في سبيلهم إلى ابتكار لاصق بدون صمغ. فقدرة هذا الكائن الصغير اللاصقة تأتي من شعيرات صغيرة في أسفل أقدامه تلتصق بأي سطح تلمسه من خلال حركة شَعرية وقوى إضافية نابعة من تفاعلات ما يُسمى الكهرباء الراكدة Electrostatic Interaction وتتعزز هذه القدرة بوجود أعداد هائلة من هذه الشعيرات في أسفل قدم أبو بريص وهو ما لم يستطعه العلماء، بل اكتفوا بأعداد أقل ولكنها تبدو فعّالة كما تدل التجارب الأولى. ويؤكد قائد الفريق العلمي أنه في حال لبس رجل قفازات عليها اللاصق الجديد (الذي لا يتوافر منه الآن إلا قطعاً صغيرة) فإنه يستطيع التعلق بأي مكان بكفاءة أبو بريص تماماً. وفي حال نجاح التجارب فلا شك أنه سوف يكون لهذا اللاصق استخدامات هامة لا حصر لها في كل مجال يخطر بالبال.

نظرية كل شيء مستحيل!



اعترف ستيفن هوكينغ أشهر علماء الفيزياء النظرية المعاصرين بأن العلم لن يتمكن من الوصول إلى النظرية التي تفسّر كل شيء (Theory of everything)، الشهيرة والتي بموجبها ستتم المصالحة بين نظرية الجاذبية عند آينشتاين التي تفسر حركة الأشياء على النطاق الكوني الكبير ونظرية الكوانتم (Quantum) التي تدرس حركة الجزئيات دون مستوى الذرة. وقد أعلن هوكينغ ذلك في آخر محاضرة له، علماً بأنه في كتب سابقة كان يتنبأ باقترابه من الحل، أي الوصول إلى النظرية. واللافت في ذلك أن السبب في عدم قدرة العلم للوصول إلى تلك المعرفة، كما قال، هو السبب المعروف على نطاق واسع في أوساط العلماء الفيزيائيين منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، وهو أن المشاهد في نظرية الكوانتم يلعب دوراً في الحدث نفسه أو أنه نفسه هو جزء من الحدث. وبما أننا نحن البشر ننتمي إلى الكون الذي نحاول معرفته «وجب علينا أن ننظر إليه من خارجه لنعرف ماهيته» وذلك ما ليس في قدرتنا.

وهوكينغ هو صاحب كتاب «تاريخ الوقت»، وأيضاً كتاب «الكون في قشرة جوز» الذي صدر مؤخراً بالعربية عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت.

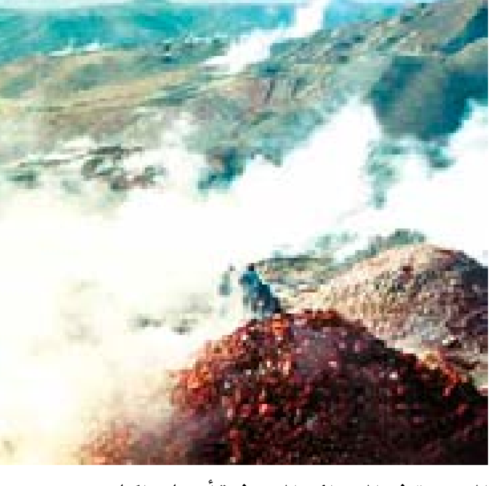
الصين.. تحترق من الباطن

عشرة ملايين طن من الفحم تحترق تحت الأرض في الصين. هذا هو الرقم الذي تعلنه السلطات الرسمية في بكين، في حين أن بعض الخبراء الغربيين يرفع الرقم إلى ما بين مئة ومائتي مليون طن سنوياً.

وتنفث هذه الحرائق المندلعة في العروق الفحمية على أعماق متفاوتة وتمتد حتى عشرات الكيلومترات في بعض المواقع ما بين 2 و 3 في المئة من مجموع ثاني أوكسيد الكربون الناجم عن احتراق الوقود الفحمي في العالم بأسره، أي ما يعادل مجمل ثاني أوكسيد الكربون الناجم عن كل السيارات في أميركا.

واندلاع هذه الحرائق الجوفية يعود إلى أن بعض عروق الفحم الخام تكون قريبة في بعض المواضع من سطح الأرض، ويحتك مباشرة بأوكسجين الهواء، فيتأكسد، وترفع هذه الأكسدة حرارته. وباندلاع النار في طرف العرق يستمر الحريق في الامتداد من دون توقف وصولاً إلى نهايته.

والحرائق الجوفية في مناجم الفحم ليست جديدة، وتعاني منها بلدان عدة في القارات الخمس. غير أن الصين التي تمتلك أكبر احتياطي في العالم من الفحم يقدر بـ 115 بليون طن، تعاني من الحرائق الجوفيه في 86 موقعاً مختلفاً على طول حزام الفحم الذي يلفها شمالاً بطول يزيد على 5000 كيلومتر.



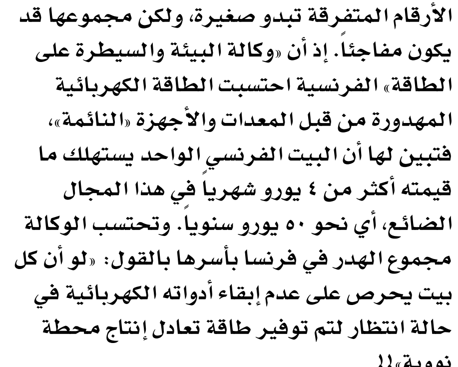


D.R. جيلاند - جوزايت

الخبيرة في الحرائق الجوفية أنوبا براكاش من جامعة آلاسكا تقول: «إن إطفاء هذه الحرائق مستحيل تقنياً ومادياً.. وأفضل ما يمكن القيام به هو التركيز على الحرائق الجديدة التي يمكن الوصول إليها..».

والأسوأ من كل ذلك أن بعض الدول الغربية عرض تقديم المساعدة على الصين لإطفاء هذه الحرائق على مدى عشرين عاماً، مقابل أن يُسمح له بإنتاج حصة موازية من ثاني أوكسيد الكربون من دون ضغوط واعتراضات دولية..!

نائمة.. وتستمر في استهلاك الكهرباء



أنظمة «التنويم» التي دخلت على الأدوات الكهربائية المنزلية، بحيث صارت تسمح بتشغيلها بكبسة زر واحدة بدلاً من اثنتين أو ثلاث، تحوّلت إلى مسرب لهدر الطاقة الكهربائية، وبكميات لا يمكن تصديقها.

فالتلفزيون والكومبيوتر والفيديو والراديو والمنبه وسخّانات الميكروويف ومعظم الأدوات التي تبقى موصولة بالتيار تستهلك كميات مختلفة من الطاقة حتى عندما تكون متوقفة عن العمل.

الكومبيوتر الشخصي مثلاً يستهلك نحو 140 واط خلال العمل، وعندما يكون نائماً يستهلك 27 واط، وعندما يكون مطفئاً (off) يستهلك نحو 5 واط. ولوقف الاستهلاك تماماً يجب سحب الفيشة.

المثل المدهش هو التلفزيون. إذ أن مشاهدة التلفزيون يعمل بقوة 80 واط لمدة ثلاث ساعات يومياً يؤدي إلى استهلاك 240 واط. ولكن الجهاز نفسه يستهلك 15 واط في الساعة لمدة 21 ساعة يكون فيها «نائماً»، أي ما مجموعه 315 واط ونحن لا نرى منه غير زر أحمر صغير مضاء.. أي أن التلفزيون مكلف على صعيد استهلاك الكهرباء وهو مطفأ أكثر مما هو عليه وهو يعمل!!

الأرقام المتفرقة تبدو صغيرة، ولكن مجموعها قد يكون مفاجئاً. إذ أن «وكالة البيئة والسيطرة على الطاقة» الفرنسية احتسبت الطاقة الكهربائية المهدورة من قبل المعدات والأجهزة «النائمة»، فتبين لها أن البيت الفرنسي الواحد يستهلك ما قيمته أكثر من ٤ يورو شهرياً في هذا المجال الضائع، أي نحو ٥٠ يورو سنوياً. وتحتسب الوكالة مجموع الهدر في فرنسا بأسرها بالقول: «لو أن كل بيت يحرص على عدم إبقاء أدواته الكهربائية في حالة انتظار لتم توفير طاقة تعادل إنتاج محطة نووية»!!

اطلب العلم



حدود الآلـة

حمل العدد السابق من القافلة مقالتين لا علاقة مباشرة بينهما، ظاهرياً على الأقل. الأولى كانت حول الموسيقى التي صارت تؤلَّف على الكومبيوتر الشخصي وفق برامج خاصة، والثانية كانت حول التصوير الرقمي.

انتهت المقالة الأولى التي كتبها المهندس جورج نحّاس إلى خلاصة مفادها أن الموسيقى المؤلفة وفق برامج الكومبيوتر، على الرغم من دقتها التقنية المدهشة، لا تزال فاشلة في إثارة الأحاسيس والمشاعر. أي أنها لا تزال عاجزة عن الإرتقاء إلى مستوى الموسيقى المؤلفة بالطرق التقليدية وتعزف على آلات حقيقية. أما المقالة الثانية التي كتبها المصور المعروف جمال السعيدي فانتهت إلى نتيجة مشابهة في العمق لنتيجة المقالة الأولى، وتقول إن التصوير الرقمي لم يستطع حتى الآن على الأقل من الحلول بالكامل محل التصوير التقليدي. فالتصوير الفني والإعلاني لا يزال يعتمد على الآلات التقليدية التي تترك للمصور حرية أكبر كي يتدخل في أدائها ويحصل على الصورة التي يريدها وبمواصفات أفضل من مواصفات التصوير الرقمي الجديد.

إذن، في الفن لا تزال شريحة السيليكون الباردة عاجزة عن الحلول محل الفنان ومزاجه الذي لا يمكن ضبطه في أطر محددة. ولكن ألا يمكن لهذه الملاحظة التي يقر بصحتها الكثيرون من أن تكون منطلقاً للتفكير بشكل أسهل في علاقتنا بالآلة بشكل عام؟

في مجال التكنولوجيا الحديثة (وحتى التقليدية) ينقسم العالم إلى قسمين: عالم منتج وآخر مستهلك يشتري من الأول. الأول يفكر طويلاً قبل إنتاج السلعة التقنية الجديدة، يصنعها بحذر وبطء بالاعتماد على خبرات سابقة متراكمة، لتلبية حاجات مستجدة. فتشكل المسيرة الطويلة لظهورها مجالاً لدخولها في نسيجه الثقافي وتصبح بالتالي جزءاً طبيعياً منه. أما الثاني فيستيقظ بين ليلة وضحاها ليجد أمامه ابتكاراً تقنياً جديداً معروضاً عليه لامتلاكه واستعماله فوراً.. وهنا تبدأ المشكلة.. المشكلة عند المستهلك طبعاً.

يمكننا أن نقرأ ما يفضح أحد وجوه هذه المشكلة (من دون أن يحصرها) في الإعلانات الترويجية للآلات الحديثة، أي في الخطاب الذي يتوجه به العالم الأول المنتج والبائع إلى الطرف الثاني المشتري والمستهلك. فبشكل عام، نلحظ أن هذه الإعلانات صارت تقوم أكثر فأكثر -وربما لأن ذلك هو السبيل الأقصر إلى إقناعنا- على إظهار المبتكرات الجديدة وكأنها «دمى» ممتعة ومسلية. سواء أكان الموضوع كومبيوتر جديد، أو هاتف خلوي جديد، أو كماليات طراز جديد من السيارات. والأسوأ من ذلك كله هو تشكيل الانطباع عند المستهلك المفاجأ بابتكار لا يعرف عنه شيئاً، بأن هذه الدمية تتمتع بقدرات خارقة لا حدود لمجالات استعمالها.

لو أخذنا السيارة كمثل بسيط للغاية لقلنا أن فلسفتها تقوم أساساً على توفير وسيلة نقل تسمح للإنسان بالوصول إلى هدفه بسرعة مئة كيلومتر في الساعة بدلاً من عشرة أو عشرين على ظهر الحصان. ولكن محاولة تشغيل السيارة بسرعة مئتي كيلومتر في الساعة إما لأنها «دمية ممتعة»، وإما للاعتقاد الخاطئ بأن قدراتها غير محددة، لا بد وأن تُنهي الرحلة في مكان ما قبل نقطة الوصول.. ومراجعة الأسباب المؤدية إلى حوادث السير تؤكد أن الكثير منها يعود في النهاية إلى هذا النوع من التعامل مع السيارة.

وبالغوص في ما هو أعمق من هذا المثل البسيط، يمكننا أن نتأكد من أن سوء استعمال الآلة في العالم الثالث عموماً يقف وراء الكثير من الهدر والخسائر في بعض المجالات، أو أنه لا يؤدي إلى النتيجة المرجوة من الآلة على صعيد الإنتاج في مجالات أخرى.

والحل؟
لا حل قبل أن يصبح المجتمع المستهلك لتكنولوجيا معينة هو نفسه منتجها. ولكن خلال هذا الوقت قد يكون من المفيد أن يبقى هذا المستهلك متنبهاً إلى حقيقتين: الأولى، وهي أن للآلة، أية آلة، حدود استعمال لا يمكن تجاوزها. والثانية، أن ما من اختراع في العالم يمكنه أن يحل محل عقل الإنسان، وإن استطاع في بعض الأماكن أن يحل محل جسده. ففلسفة الآلة هي أولاً وأخيراً تسهيل تنفيذ الأوامر الإنسانية وليس الحلول محلها.

عبود عطية

في الناس والطبيعة..

ريم الفيصل.. تبحث عن السؤال!

في صور ريم الفيصل روح تبحث عن السؤال.. أكان في الإنسان أو الطبيعة. أحياناً تجد علامة السؤال صريحة في المشهد نفسه، بشكل أو بآخر، كما نراها في الصورة هنا.

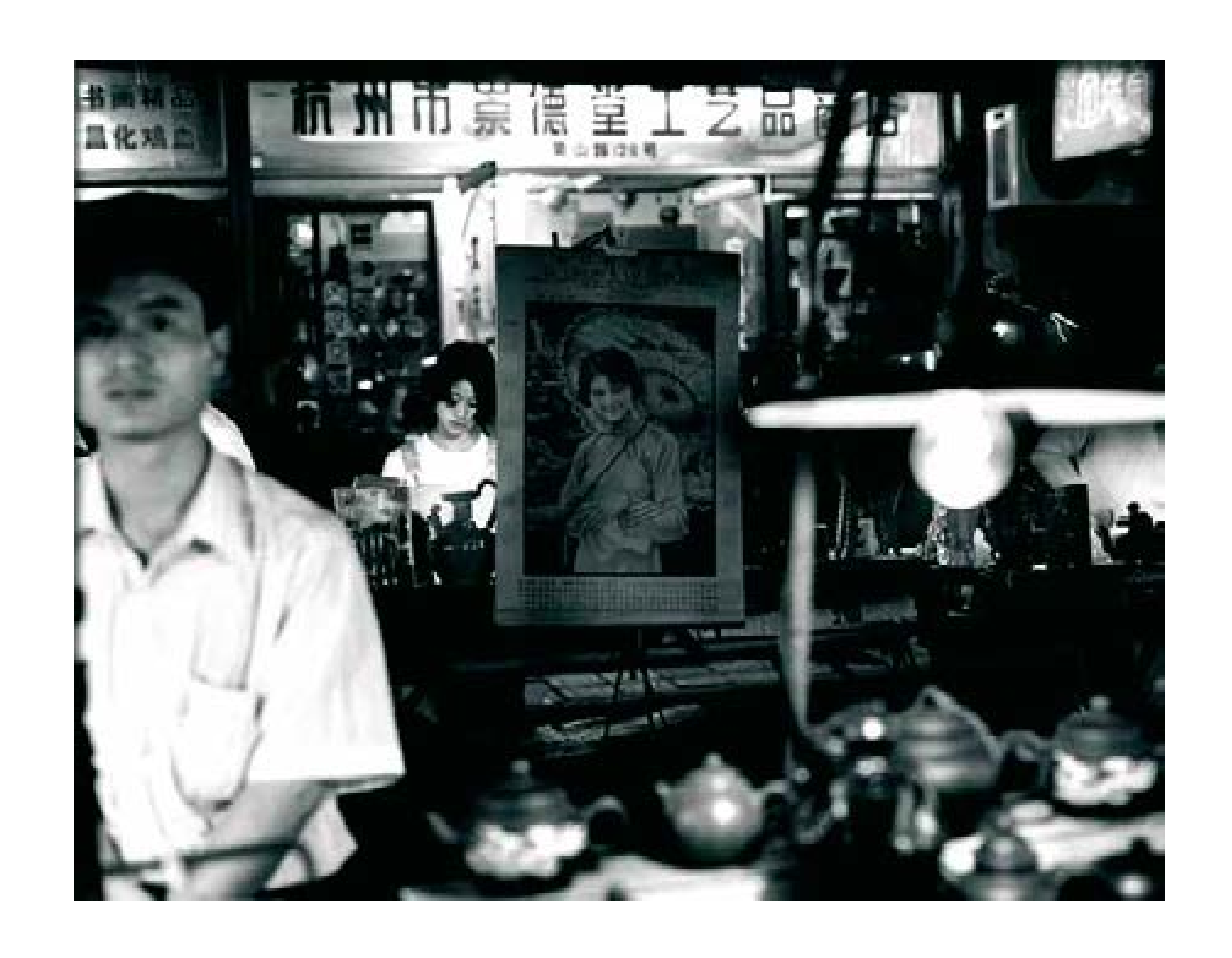
في مقدمة كتابها (ديوان النور) استشهدت بآية كريمة تحمل سؤالاً.. «وفي أنفسكم أفلا تبصرون».

والسؤال في النفس البشرية أشد حضوراً وأعمق وجوداً من الإجابات. السؤال يبقى والأجوبة تتغير. وما يطبع أعمال هذه الأميرة المصورة التي جابت أصقاع الأرض بحثاً عن سؤالها، سكون غير هادئ، وحميمية عن بعد، وعاطفة دون إفصاح!



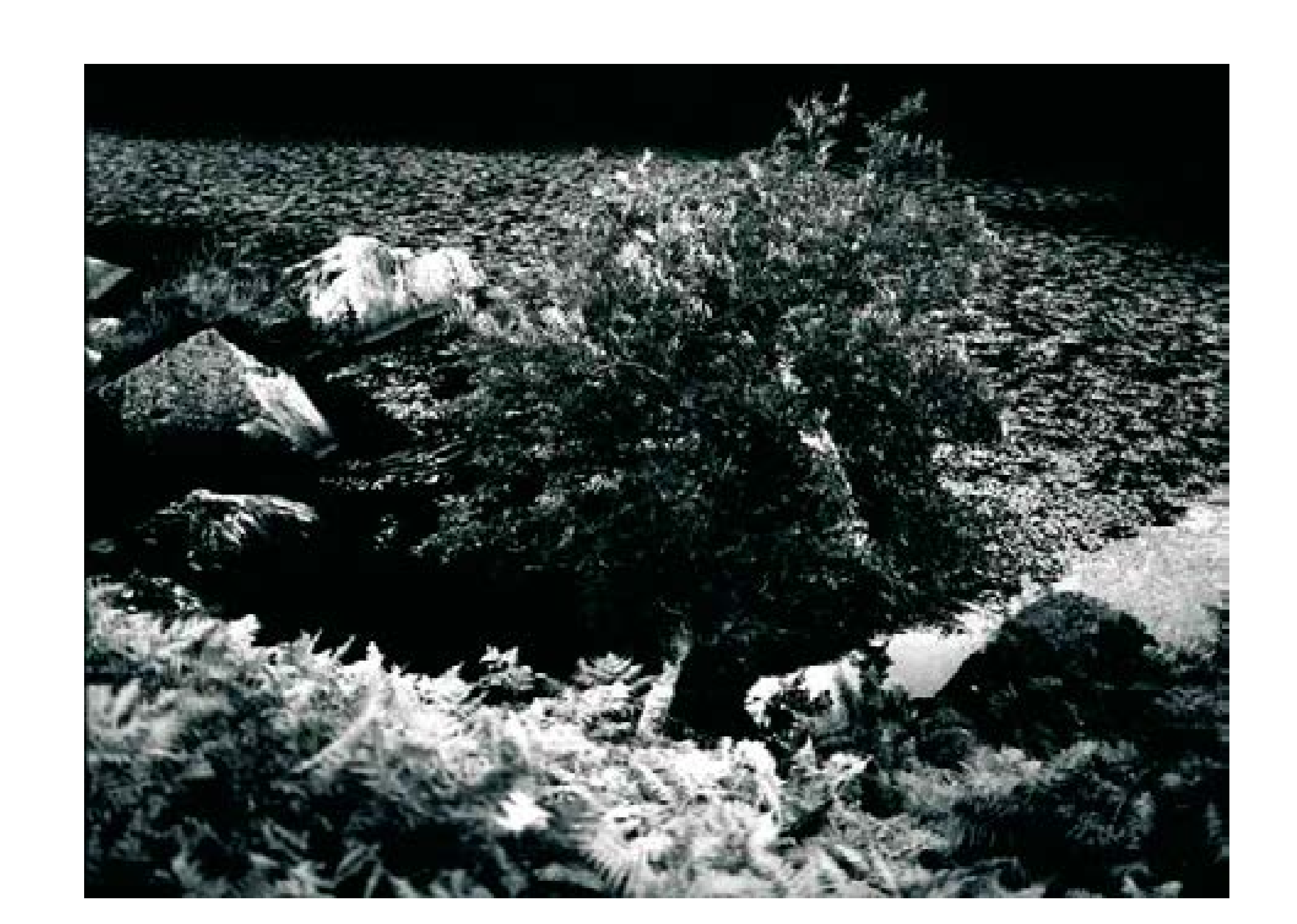
ريم محمد الفيصل

تلقت تعليمها في جدة، وفيها عرضت أعمالها الأولى ثم في القاهرة وبكين ولوكوم بألمانيا ونيس وباريس حيث استضافها معهد العالم العربي.
نشرت لها المجلة الناطقة La photo on pro ومجلة L'insense' وتقويم السفارة السعودية بواشنطن.
وأهم إصداراتها كتابها المصور بعنوان (ديوان النور) والذي ضم نخبة من صورها بالأبيض والأسود، منها ميناء جدة وصور في الصين والحج ومشاهد أخرى من المملكة.


杭州市崇德堂工艺品商店







الأشياء البسيطة.. أكثرية صامتة

فليبتكروا من الأشياء ما شاءوا، ويجددوا ويبدعوا، ويدهشوننا كباراً وصغاراً.. لكن لن يحل شيء محل الأشياء البسيطة، التي رافق بعضها الإنسان منذ أزمنة بعيدة.

من يراجع تفاصيل حياته اليومية يكتشف كم أن أبسط الأشياء المتوارثة لا تزال تشكل عماداً في سد غالبية حاجاته وتوفير أسباب راحته.

الماء البارد من كوب زجاجي شفاف، الصابون.. الصابونة إياها التي نغسل بها أيدينا من دون أي تجديد منذ قرون، تبقى الأسهل والأفضل بين المطهرات الطبية تحت كل الظروف.. وخيرها أبسطها!

خذ مثلاً الكرسي، ماذا تغير في الكرسي الذي نجلس عليه خلال القرون الأخيرة؟ الكرسي المريح هو الكرسي الوحيد، وكذلك الثوب والحذاء، والمنشفة القطنية البيضاء، التي تعب الماء دون عناء.. المنشفة التي تبحث عنها كل صباح. أما أدوات التجفيف الأخرى كمنفاخ الهواء فأين هي من فاعلية ومتعة المنشفة؟

وما الذي يحضن رأسك، وقد أضناه عمل يوم شاق، خير من وسادة بسيطة ومريحة، فيها القدر المطلوب من الطراوة والثبات.. وعليها وعلى السرير البسيط تُمضي ساعات الليل الطويل محتضناً غطاءً قطنياً بسيطاً بدوره؟

وهناك، أيضاً، أشياء لا نكنّ لها أي عطف أو تقدير مثل الطاولة العادية ذات الأرجل الأربع. هل اختلفت يا ترى منذ العصور السحيقة؟!

وحتى في المأكل، فالخبز أو الرز أبسط الأطعمة لا ينازعهما على مكانتهما شيء. ومهما أغرتك الوجبات الفاخرة.. تأتيك لحظات تشعر معها أنك تتوق للقمة خبز ساخن أو ملعقة أرز لذيذة.

ثم أي قلم تستخدم؟ تمر بك عشرات الأقلام الفاخرة بأشكالها وأنماطها وأسمائها الذائعة، ولا يبقى في يدك إلا قلم الحبر الجاف المخلص البسيط، قلم عملي يحمل كلماتك إلى الورق بمنتهى اليسر والكفاءة.

وربما يكون بعض أبلغ ما أضافته الحياة المعاصرة إلى الإنسان يندرج في لائحة الأشياء البسيطة. فإلى جانب القلم الجاف خذ مثلاً الـ (تي شيرت) وبنطال الجينز. كم هي عملية وأنيقة في أي وقت ومكان.

أما في الألعاب، فإليك هذه النصيحة: قدّم لأي طفل في أي وقت بالوناً أحمر يطير في الهواء أو اثنين، سيفرح ويلهو بهما كأغلى لعبة رائجة وربما أكثر! والأطفال يفرحون بالأشياء البسيطة التي تتحول إلى ألعاب أكثر بكثير مما نظن، وربما حتى أكثر مما يظنون هم، ففي القرى والساحات كم يلهو الأطفال بإطار معدني يُدحرجونه ويتسابقون معه وحوله، أو كرة بالية أو حتى شبه كرة يتقاذفونها ويقفزون حولها ويعدون ويضحكون! والكرة تنتمي إلى هذه العائلة من الأشياء ومنها «العجلة» التي تدهش بقدرتها على التقدم بمجرد إعطائها دفعاً صغيراً. وهذه الدهشة هي مزيج من الاحتفاء باكتشاف عظيم متوارث، وانبهار بأنه لا يزال يتكرر بنجاح كل مرة.

إن زهرة تهديها للحبيبة تعادل جوهرة، أو كتاباً تقدمه لصديق مع إهداء بيدك يمثل عنده قيمة كبيرة، ويحتفظ به كأعز المقتنيات.

لنتذكر دائماً الأشياء البسيطة إنها في حياتنا تشبه في دورها الأكثرية الصامتة، تحيط بنا من كل صوب وتقدم لنا الكثير من دون تظاهر أو منّة.

كميل حوا



يمثّل قضاء ساعة من الوقت في السير على الأرصفة المزدحمة لأية مدينة من مدن العالم ثروة لا يُستهان بها في التعرّف إلى مدى التطوّر العمراني فيها، وفي سبر الكثير من سلوكيات ساكنيها وأذواقهم. المهندس حمزة فضل شبلاق* يقرأ في هذا الموضوع الوجوه المتعددة للرصيف كجزء من تكوين المدينة..

الرصيف..

عمران وحياة.. وحلم

الرصيف جزء من حياتنا، من حركتنا الدائمة في ذهابنا إلى العمل، أو قضاء احتياجاتنا في التسوق والتنزه، أو في مجرد التسكع والتمعن بكل ما هو لافت وجديد في واجهات المحلات. وحيدين نكون أحياناً أو مع شلة من الأهل أو الصحاب. وعلى مقاهي الرصيف يحلو للكثيرين الجلوس في صباح مشمس لتناول القهوة وقراءة الصحف أيام العطل، أو في مساء لطيف نلتقي فيه بأحبائنا. وقد تُفاجئنا قطرات المطر منذرة بوابل منه، فنسرع بالنهوض دون أن ننسى دفع ما علينا فنلملم أشياءنا على عجل، ونهرب بخطى متسارعة، وفي لحظات يفرغ مقهى الرصيف.. ويفرغ حتى الرصيف.

هكذا هو مشهد الرصيف.. عالم يصخب بالناس كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً ويزدحم بالأشياء، بالأضواء والألوان والضجيج نهاراً، ويمتد إلى ساعات من الليل ثم يخلو ويصبح صفصفاً. يكون الرصيف هادئاً حالماً في ليالي الصيف بنسماتها الهادئة، وفي الشتاء يصبح عاصفاً بالمطر والريح، يشتد زمهريرها فيهتز لها كل ما عليه من أشجار وأعمدة وتتطاير الأشياء حتى المقاعد المهجورة في مقهى الرصيف.

إنه جزء من تكوين المدينة التي نعيش فيها. نحن ابتدعناه وكل واحد منا بإرادته أو بدونها أسهم في أن يصبح الرصيف رصيفاً. فهو ملكنا جميعاً. بعضنا يمرّ فيه عابراً، والبعض الآخر يقيم فيه أو على جنباته طوال يومه لأنه يعمل في محل أو مكتب أو مقهى يطالعه الرصيف كيفما التفت. وفي العواصم والمدن الكبيرة شريحة من الفقراء والمعوزين لم يتبقَ لها من عالم سوى الرصيف تفترشه لتنام.. وتلك صورة مؤلمة لعالم اليوم الذي تفتقده الرحمة.. أو لعله يفتقدها.

وبهذا التميّز في التعبير عن سلوكياتنا وثقافتنا وذوقنا العام وحتى حركة السوق والاقتصاد لدينا، يتفوق الرصيف على المكونات الأخرى للنسيج العمراني للمدينة من مبانٍ وشوارع. ففي المباني يقبعُ الناس في محلاتهم وخلف مكاتبهم أو في بيوتهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً في معظم الأحيان، وفي الشوارع نجلس في سياراتنا، أقفاصٌ سريعة تنهب الطريق من تحتنا وتنقلنا من مكان إلى آخر.

أما الرصيف فإنه يسمح لنا بأن نمارس حواسنا الخمس الأساسية. لقد تناوله الفنانون والأدباء. روائيون وشعراء في الكثير من أعمالهم وخاصة في الدول العربية والأوروبية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط حيث لفصول السنة طقوسها. وحيث أفرزت الحضارات المتلاحقة نسيجاً ثقافياً مبدعاً تمتد خيوطه من أعمق الحضارات قدماً في التاريخ إلى أكثرها حداثة.

كيف نشأ الرصيف وكيف تطوَّر؟

منذ كانت الطرق المرصوفة في الحضارات القديمة كان الرصيف، فهو الجزء الذي يرتفع قليلاً عن مستوى الطريق من على جانبيها، ويخرج إليه الناس من بيوتهم أو من الأماكن العامة. وأحياناً كانت قنوات صرف المطر تحتل الجزء المنخفض قليلاً ما بين الطريق العام وحافة الرصيف. كان الرصيف إذاً عتبة ضيقة ممتدة على جانب الطريق، وظيفته الأساسية حماية المباني والمنازل على جانبي الطريق من مياه المطر. وجد هذا في طريق الأعمدة الممتدة إلى المعبد الرئيس في العمارة الفرعونية، وحول المعابد والمباني العامة أحياناً في ساحات المدن الإغريقية والرومانية.

وفي مركز المدينة (Forum) في العمارة الرومانية كان للمباني المحيطة بالساحة الرئيسة امتداد مبني من العقود الحجرية وغالباً ما كانت أرضية هذا الامتداد – الرواق مرتفعة قليلاً عن مستوى الساحة العامة وكان الغرض من الرواق هو حماية الناس من حرارة الشمس صيفاً ومن مياه الأمطار شتاءً. إنه رصيف مغطى بالعقود، ويصل عرض الرواق إلى بضعة أمتار. تطور الرصيف الرواق فعرض فيه التجار والباعة بضائعهم، واكتظ الناس بالناس والأشياء. وامتدت الطرق من الساحة الرئيسة إلى اتجاهات متشعبة وامتد معها الرصيف الرواق، وتأثرت كل الطرز المعمارية اللاحقة في أوروبا والشرق العربي بهذا العنصر الجديد، فتحولت الساحة المركزية التي نشأ فيها الرصيف الرواق إلى ملتقى للطرق يتخذ شكل الدائرة أحياناً، وأحياناً أخرى تصبح الدائرة مستطيلاً أو مضلعاً. وهكذا ترك الباعة والمشترون الساحة المركزية وانتقلوا إلى الرصيف المسقوف (الرواق). وفي عصر النهضة في أوروبا تسابق البنّاءون في تشكيل الواجهات بالطرز الإغريقية والرومانية.

وازداد الرصيف أهمية، وصار ركناً أساساً في التكوين العمراني للمدينة، وزيِّنت التماثيل ونوافير المياه الساحات المركزية التي تلتقي فيها الطرق، وغادرها الباعة مع بضاعتهم إلى محلات داخل المباني تفتح على الرصيف الرواق أو تحتل جزءاً منه.

وفي مصر وبلاد الشرق العربي خلال حكم الفاطميين وعهد المماليك ازداد الاهتمام بالرواق ولكن الساحة المركزية حافظت على جزء كبير من أهميتها. أما الطرق المتشعبة عن الساحة فصارت تضيق وتتعرج. تفتح على أحواش السكن من جانبيها وكانت هذه الأحواش تنمو أحياناً لتصبح حارة مستقلة في مجتمعها إلى حد كبير. وكانت بعض الحارات تُغلق بواباتها الكبيرة مساءً ولا تُفتح إلا مع صلاة الفجر. لقد فرضت العوامل المناخية نفسها إلى جانب العوامل الاجتماعية، فالطريق تتفرع منه شبكة من الأزقة الضيقة المسقوفة في الغالب، والمرصوفة بالحجر حيث اختفى الرصيف. نجد هذا واضحاً في الحارات القديمة حول قلعة حلب، وتلك التي تزخر بها مدن المشرق والمغرب العربي القديمة مثل القدس ودمشق وفاس.

الرصيف في عالم اليوم

قبل أكثر من قرن من الزمان بدأت السيارات تظهر في طرقات المدينة. هجر الناس الطريق والتجأوا إلى الرصيف الذي أوكلت إليه وظائف عديدة فازداد عرضاً؛ ليستوعب أعداداً أكبر من المشاة الذين اعتادوا استعمال الطريق طولاً وعرضاً.

والأرصفة التي نسير عليها كل يوم تخفي تحتها جملة من الإنشاءات التحتية، وشبكات الخدمات العامة تغذي المباني والأحياء. فتمتد تحت الرصيف شبكات المياه والكهرباء والغاز، إلى جانب شبكة المجاري العامة ومصارف مياه الأمطار. إنها شبكات معقدة تجري تحت أرصفتنا على أعماق مختلفة. إنه عالم ما تحت الرصيف.

وللرصيف عالم غير الذي تحته. إنه عالم ما فوق الرصيف حيث أعمدة الإنارة وإشارات المرور والأعمدة التي تحمل لافتات إرشادية أو إعلانية مختلفة. وقد نجد على الرصيف مقاعد ثابتة من الحجر أو الخشب أو الأسمنت، كما تنتشر كبائن الهاتف العمومي والأكشاك المختلفة ومظلات خفيفة لانتظار وسائط النقل العام. وفي أحيان قليلة قد نرى أحواضاً للزهور وأشجاراً جميلة خضراء.. إنه العالم الذي نراه ونتعامل معه أثناء سيرنا على الرصيف.

وهكذا أثقل كاهل الرصيف بما تحته من شبكات الخدمة العامة وما استحدث فوقه من عناصر جديدة، فصار هو الشريان الرئيسي في جسد التكوين العمراني لمدن العالم.

* مهندس عمارة وتخطيط مدن

خلال هذا الصيف، كما في كل عام، سيقوم الآلاف منّا برحلات سياحية إلى أنحاء المعمورة، لكن تنظيم هذه الرحلات صار يتطلب وقفة أمام شروط الرحلة السياحية الممتعة.

فريق تحرير القافلة بحث مدى توافر هذه الشروط في واحدة من أكثر أشكال السياحات رواجاً، ألا وهي «السياحة المعلبة».



هل حان وقت السفر؟

1 السياحة الحرة.. والأخرى المعلبة

من السائحين من يعود إلى بيته وهو يشعر بأن رحلته كانت تستحق فعلاً ما بذله في سبيلها من وقت ومال. ومنهم من يعود خائباً، متمنياً لو أن بعض الأمور كانت خلال الرحلة على غير ما كانت عليه، أو أنه تكلف الكثير دون أن يحصل على المردود النفسي المرتجى من فسحة في الخارج. والسبب في الاختلاف بين هذا وذاك يعود إلى أنه ما بين اتخاذ القرار بالقيام برحلة سياحية إلى بلد ما، والعودة منه، تتعدد الطرق والمفترقات التي على السائح أن يختار سلوك بعضها دون الآخر، وعلى قراراته هذه تتوقف نتائج سياحته.

فمنذ البداية، يجد المسافر نفسه أمام خيارين: إما وضع برنامج رحلته وتنظيمها من الألف إلى الياء، وإما الانخراط في برنامج سياحي تنظمه، جملة وتفصيلاً، إحدى الشركات السياحية المتخصصة.

الخيار الأول لا يخلو من المحاذير، رغم هامش الحرية الكبير الذي يتركه للمسافر. فهو يستطيع تحديد شركة الطيران التي يريد، واختيار الفندق المناسب، وحجز غرفته بواسطة الإنترنت.. ولكنه قد يواجه بعض المتاعب غير المتوقعة. فصور الفنادق مثلاً، خاصة المتوسط منها، تكون عادة على الإنترنت أو الكتيب السياحي أجمل مما هي عليه في الواقع، وقد يواجه السائح خيبة أمل غير متوقعة عند وصوله إلى غرفته.. وما هو أهم من ذلك هو أن أسعار تذاكر الطيران والإقامة في الفنادق المعروضة على الأفراد هي أعلى بشكل ملحوظ مما تعرضه وكالات السياحة التي تحصل على حسومات كبيرة جداً قد تصل أحياناً إلى نصف السعر الرسمي. وهذه النقطة بالذات هي التي تدفع بالكثيرين إلى الاتجاه صوب وكالات السياحة وبرامجها المعدة سلفاً.

الشركات السياحية

مرت خدمات هذه الشركات بمراحل متعددة. واستطاعت جذب الناس إليها منذ ثلاثين عاماً أو أكثر. وكانت مزاياها مغرية في شكلها العام، إذ أنها تدعو المسافر إلى رحلة منظمة تضم مجموعة كبيرة من الناس (وربما من جنسيات مختلفة في بعض الحالات)، مقابل سعر معقول يشمل تذاكر السفر وحجوزات الفنادق وزيارات المعالم السياحية.. وبفضل هذه البرامج انتعش سوق السياحة كثيراً على الصعيد العالمي.

ولأن السياحة باتت تشكل مردوداً اقتصادياً مهماً في اقتصاد الكثير من الدول، فقد تدخلت الحكومات لتضع الضوابط اللازمة لجذب السياح عبر هذه البرامج. كما أن المنافسة الشديدة بين الشركات والدول قادت إلى تحسن كبير في نوعية الخدمات ومستوى كلفتها. وأسهمت الدعاية المباشرة أو عن طريق الانطباعات التي حملها الناس عن رحلات هذه الشركة أو تلك في انتظام السياحة الجماعية وانتشارها.

طبعاً، البعض يعود راضياً من رحلة سياحية ضمن مجموعة وفق برنامج محدد سلفاً، وقد لا يكون عنده سوى بعض الأمنيات القليلة لو أن هذا الأمر أو ذاك كان مختلفاً عما كان عليه.

ولكن الكثيرين ممن اختبروا السفر السياحي لمرات ومرات، ويعرفون مدى توافر احتمالات أفضل ينتقدون سياحة المجموعات بوصفها «سياحة معلبة»، تملؤها تفاصيل البرنامج اليومي المرتب بدقة مقيدة لحرية السائح الذي يكون بموجب نظامها مقيداً في كل تحركاته بالمجموعة. لا بل يمكن أن تكون هذه السياحة المعلبة في بعض مراحلها مصدر غيظ للسائح يجعله يندم على الاشتراك فيها.

فالبرنامج الموحّد للمجموعة يفترض سلفاً أن الاهتمامات هي واحدة عند كل أفرادها. والأمر غالباً غير صحيح. فإذا كان السائح مثلاً مهتماً بالآثار أكثر من غيره وقصد قصر الحمراء في إسبانيا ضمن مجموعة سياحية منظمة، لا يستطيع تمضية ساعة إضافية هناك لمزيد من الاستمتاع بما هو «الأهم» بالنسبة إليه، فالمجموعة لن تنتظره وعليه أن يترك القصر للحاق بالحافلة.

إلى ذلك، فإن هذه البرامج التي غالباً ما تكون مضغوطة، قد تصيب السائح بالإرهاق أو بالشعور بـ «القسرية»، الأمر الذي يتنافى مع أهم متطلبات الإجازة السياحية، وهي الراحة الجسدية والذهنية.

وفي معظم الأحيان يشعر السائح أن رحلته إلى الأماكن نفسها كان يمكنها أن تكون أفضل دون ضغط البرامج المعلبة التي تفتقر إلى الفرصة الكافية لإشباع المتعة السياحية، بل ربما فكر في العودة في

رحلة فردية لاحقة إلى المكان نفسه بغية الاستمتاع به والاستكشاف الشخصي لجماله وخصائصه.

والواقع أن بعض برامج السياحات المعلبة وصل في «لا سياحيته» إلى ما هو أقرب إلى تنظيم المعسكرات منه إلى السياحة، إذ يقضي بنقل المسافر من بلده إلى منتجع محدد، وإبقائه داخل الأسوار الذهبية لهذا المنتجع معزولاً تماماً عن البلد المضيف ومعالمه الثقافية والحضارية والاجتماعية. ولهذا النوع من الرحلات زبائنه الخاصين به، وهم الذين يحتاجون إلى الراحة فقط، وليس إلى السياحة بالمعنى المتعارف عليه.

السياحة إلى المكان نفسه..؟

في فلم «المدينة» للمخرج الفرنسي جاك تاتي، يدور أحد المشاهد داخل مكتب لإحدى الشركات السياحية، حيث نرى على الجدران مجموعة ملصقات دعائية لمدن العالم المختلفة. الصورة على الملصقات كانت هي نفسها وتمثل ناطحة سحاب زجاجية، وتحتها يتبدل اسم المدينة: باريس، ريودي جانيرو، هونغ كونغ، آبيدجان.. هذا المشهد الطريف الساخر من توحيد المعالم الثقافية في العالم، يكاد يتكرر حرفياً على أرض الواقع في عالم السياحة، ولكن دون طرافة على الإطلاق.

فالإعلان السياحي النموذجي لجزيرة قبرص صار مشابهاً في جوهره للإعلان عن السياحة إلى موسكو أو القاهرة أو سنغافورة: مجموعة من أربع صور مثلاً، تمثل قصراً أثرياً، فندقاً، مطعماً، ومنتجعاً ترفيهياً..

وأين المشكلة؟

المشكلة تكمن في أن هذه الصور لا تعبّر بالضرورة وفي معظم الأحيان - إن لم نقل دائماً - عن حقيقة البلد المضيف، ولا حتى عن أفضل ما فيه من حيث القدرة على إمتاع السائح.

فالسياحة الناجحة ليست تلك التي تنتقل بك لاهثاً من قصر تاريخي إلى مطعم، ومن مطعم إلى مسبح، ومن مسبح إلى قصر آخر، ثم إلى السوق، وذلك خلال ست ساعات فقط.. مقياس النجاح في السياحة - إذا كان من الممكن وضع مقياس - هو في مدى توافر أشياء يحب السائح أن يتحدث عنها أو أن يتذكرها بعد عودته إلى موطنه. ولو عدنا إلى أحاديث الذين خبروا السياحات المختلفة للاحظنا بسرعة أن أكثر ما استمتعوا به كان المفاجئ، والمكتشف صدفة، وليس بالضرورة ذلك الذي كان ضمن البرنامج. فإذا شاء المسافر أن يستفيد من الحسومات المالية الكبيرة على أسعار بطاقات السفر والإقامة في الفنادق والتي تؤمنها له الشركات السياحية دون غيرها، فيمكنه أن يسافر من خلال هذه الشركات وفق برنامج يترك له حرية تنظيم برنامجه الخاص في البلد المضيف. ولعل هذا من أفضل الحلول، حتى أنه أصبح هناك شركات كثيرة تعتمد مثل هذا البرنامج الحر نظراً لتزايد الإقبال عليه.

على كل حال، هناك من لا تناسبه إلا السياحة «المعلبّة»، لأنها تضبط له إيقاع السفر، فيكون لديه استعداد للتأقلم مع إزعاج المواعيد المحددة سلفاً في سبيل التخلص من منغصّات أخرى مثل ركوب سيارات الأجرة، أو قيادة السيارة بنفسه في بلد لا يعرفه.

ويضيف أصحاب وجهة النظر هذه أن عدم معرفة اللغة التي يتحدث بها أهل المنطقة المضيفة قد يكون عائقاً للسياحة الحرة، فيكون المرشد السياحي في هذه الحالة هو الوسيط للتعامل مع الناس والأماكن السياحية.

إضافة إلى ما تقدم، وبعيداً عن الجانب التنظيمي، هناك مجموعة شروط يعتبر السائح نفسه مسؤولاً عن توافرها للحصول على سياحة ممتعة حقاً.



سياحة المجموعات بقيادة الدليل

رويترز

أول هذه الشروط هو أنه على المسافر ألاّ يتوقع الكثير مما يعتقد أنه سيلاقيه، خاصة إذا كانت الصورة المطبوعة في ذهنه تعود إلى الصور الدعائية أو الإعلام، لأن توقع الكثير قد ينتهي إلى شعور بالخيبة، حتى ولو لقي الكثير مما توقعه..

ثم على السائح أن يكتفي بوضع الخطوط العامة لبرنامجه في البلد المضيف من دون الدخول سلفاً في الكثير من تفاصيله، وبشكل خاص، من دون لَيّ ذراع الوقت بمخططات أكثر طموحاً مما يجب.

فالركض إلى ما يظنه السائح مفرحاً، لا يوصله بالضرورة إلى هدفه، ولكن استرخائه وانفتاحه على العالم الذي يجد نفسه فيه، قد يوفر له مفاجآت ممتعة تكون، رغم عدم توقعها، أجمل ما عاشه في رحلته.

وأخيراً، هناك أمر يعرفه أصحاب الخبرات والتجارب في السياحة، ويحتاج إلى بعض الوقت للاعتياد عليه والتمكن منه، ولكن لا شيء يمنع تجربته ولو في الرحلة السياحية الأولى، ألا وهو اكتشاف بلد معيّن كما هو، من خلال ارتياد الأماكن التي يرتادها أهل البلد أنفسهم.

ففي معظم بلدان العالم صارت هناك أماكن شبه خاصة بالسيّاح، تقدّم لهم ما يتوقعونه، وهو عادة ذو شكل شبه موحّد عالمياً بدءاً من تعابير المجاملة في قطاع الخدمات، إضافة إلى الأطعمة التي هي حصيلة لمحاولة تكييف مختلف الأذواق في طبق واحد لا طعم له ولا هوية.. ولذا، يطالب السيّاح العارفون ببواطن السياحة الناجحة بالأماكن والمطاعم التي يرتادها أهل البلد أنفسهم. وحتى لو لم يحب السائح طعامهم، فقد يجد لذة عندما يعود إلى بلده ويخبر أصدقاءه أنه تناول طعاماً غريباً مؤلفاً من كذا وكذا..

وبشكل عام، فإن أبناء البلد المضيف البعيدين عن مرافقه السياحية هم ألطف من أولئك العاملين في خدمة هذه المرافق والذين يتطلعون إلى السائح على أنه مورد رزق فقط، وأكثر انفتاحاً منهم على السائح الذي يعاملونه كصديق.. ومن المرجح أن أفضل المتع السياحية هي تلك التي تأتي من هذا التواصل الإنساني مع الناس أياً كانوا، ومن الاكتشاف الممتع للأشياء والأماكن، واختلاس اللحظات المدهشة التي تتناغم مع ما بداخل السائح، والذكرى التي لا تنسى عن رحلة ما.

2 سياحة المكتبات ثقافة.. وكل سياحة ثقافة

حتى القرن العشرين -وربما حتى اختراع الطائرة- كانت السياحة نشاطاً ثقافياً في الدرجة الأولى.. والأخيرة. كان السائح رحّالة يحمل أمتعته ويخرج من دياره قاصداً جهات لا تشدّه إليها غير صور ضبابية يريدها أن تكون أوضح. وأحياناً لا يشدّه إلى وجهة معينة غير الرغبة في استكشاف المجهول..

كانت السياحة عملاً عظيماً حكراً على علية القوم من الأثرياء والمغامرين غير الآبهين بما قد يتعرضون له. وكثيراً ما أثمرت هذه السياحات الكبرى أعمالاً أدبية وعلمية خالدة، بدءاً بـ «معجم البلدان» لياقوت الحموي، وصولاً إلى «رحلة الشاعر لامارتين» إلى الشرق.

وبمرور الزمن تغيّرت الأحوال.. بالأمس كانت السياحات طويلة الأمد، تدوم لأشهر عدة وأحياناً لسنوات. أما اليوم فإن متوسط أعمار سياحاتنا صار يتراوح ما بين الأسبوع والشهر الواحد في معظم الأحيان.

بالأمس كانت العودة بالمشاهدات ووصفها إنجازاً ثقافياً كبيراً، أما اليوم فلم يعد مطلوباً من السائح أن يرجع إلى بيته بكتاب يصف فيه البلد الذي زاره لأن هذا الكتاب صار موجوداً بألف صيغة وصيغة أينما كان.

ولكن وسائل النقل وأشكال السياحة لم تتغير وحدها، فمفهوم الثقافة نفسه قد تغير بمرور الوقت، والرغبة

في السفر والسياحة تتغذى من مجموعة صور تكون في ذهن السائح قبل انطلاقه في رحلته، وهي ما تجعله يختار هذا البلد أو ذاك. هذا ما دفع الرحّالة الكبار إلى سياحاتهم التاريخية، وهذا ما يدفعنا اليوم إلى السفر لمدة أسبوعين خلال هذا الصيف إلى هذا البلد أو ذاك.

أي أنه على الرغم من أن الحاجة إلى الراحة من تعب العمل ورتابة الحياة اليومية صارت من ضمن الدوافع الكبرى للقيام برحلة سياحية، فإنها لا تزال لوحدها أضعف من أن تشكل مبرراً وبرنامجاً لسياحة ناجحة، إذ لا يزال «البعد الثقافي» بمعناه الواسع من أهم مقومّات السياحة الناجحة التي تؤمنها أشكال مختلفة. منها:

1- سياحة الثقافة العامة القائمة على زيارة المتاحف والقصور والمعالم العمرانية، وهي من أكثر أشكال السياحة رواجاً في العالم. وهي تتوجه إلى أولئك الذين يريدون تكوين فكرة عامة عن شخصية البلد المضيف، أو بالأحرى عن أجمل ما فيه.

2- السياحة الطبيعية، والغاية منها استكشاف المعالم الطبيعية المميزة لهذا البلد أو ذاك، والاستمتاع بمناظرها والعيش وسطها لبعض الوقت. وهي تتراوح ما بين جبال الألب في سويسرا مثلاً والغابات الاستوائية في أندونيسيا.. تماماً كما جذبت الصحارى في بلادنا بعض الرحّالة والسياح الأجانب..

3- سياحة المناسبات، وتتراوح هذه المناسبات ما بين المهرجانات الثقافية و«أشهر التسوق» التي راجت في السنوات الأخيرة، مروراً بالمعارض الدولية وما شابه. ونظراً لتزايد الأهمية المعلقة على هذه السياحة، صار الكثير من بلدان العالم ينسق برامج المهرجانات وأشهر التسوّق بشكل يلائم برامج العطل السنوية في البلدان التي يرغب في جذب أبنائها إليه.

4- سياحة الحياة اليومية، وهي من البرامج السياحية اللافتة للنظر بغرابتها، وبدأت تروج في الآونة الأخيرة، وتقضي باستقبال السائح في بيت أسرة متوسطة في بلد ما، وتركه وسط أفرادها يحيا حياتهم اليومية والعادية جداً لبضعة أيام. ويعد نجاح هذه السياحة دليلاً على وجود رغبة عند الكثيرين في معرفة شعب آخر على حقيقته.

5- سياحة المكتبات، وهي من المعالم البارزة في المدن الكبرى التي يرغب السائح عادة بزيارتها. وفي أحيان كثيرة تكون سياحة المكتبات هي الدافع الأول عند السائح المثقف إلى القيام بزيارته السياحية.

وعلى الرغم من أن مكتبة مدبولي أو سور الأزبكية لا يظهران على الملصقات الدعائية للسياحة في القاهرة، فمن النادر أن يزور سائح عربي العاصمة المصرية من دون المرور بمكتبة مدبولي حيث يجد معظم الإصدارات المصرية الحديثة بشكل خاص، ذات التلوّن الذي يُرضي أكبر شريحة من اهتمامات القرّاء. أما على سور حديقة الأزبكية فيمكنه أن يجد الكتب القديمة، وبعضها يكون نادراً، كما يجد مجلات تعود إلى عقود خلت مما لا يجده في أية مكتبة حديثة أخرى.

وفي باريس فإن التجوال على مكتبات شارع سان ميشال، وشارع سان جيرمان والأزقة المتفرعة منهما، يمكنه أن يكون بحد ذاته متعة كبرى، تضاهي متعة زيارة أي قصر أو متحف. حتى أن منظر الكتب الفنية المعروضة بأسعار منخفضة على قارعة الرصيف يكاد يكون بحد ذاته متعة للعين.

وفي لندن لا تكتمل الزيارة السياحية إذا لم يزر السائح المكتبات المنتشرة هناك بكل اللغات. والسائح العربي بالذات لديه مكتباته العربية اللندنية مثل الساقي والكشكول والأهرام وغيرها، مما لا يعتبر نفسه سائحاً إلا إذا تأبط مجموعة من كتبها.

ومن أغلى الذكريات التي عاد بها أحد السيّاح العرب من اليونان، كانت مجموعة كتب بالعربية والفرنسية من إصدارات القرن التاسع عشر، اشتراها من سوق لبيع الأشياء المستعملة. ولأن اللغتين العربية والفرنسية مجهولتان تماماً في اليونان، فقد اشترى السائح كنزه بدراهم قليلة لا تزيد على أثمان الصحف اليومية.

وأخيراً وليس آخراً، هناك سياحة المنتجعات الترفيهية التي قد يرى البعض أنها أبعد ما تكون عن السياحة الثقافية بالمعنى التقليدي. إذ أنها تقوم على السفر بهدف الإقامة في أحد المنتجعات التي تضم بعض مرافق التسلية والترفيه كالمسابح وما شابه لممارسة بعض الرياضات وتقطيع الوقت..

ولكن، حتى هنا لا يخلو الأمر تماماً من أبعاده الثقافية العائدة إلى الاحتكاك مع المختلف، سواء أكان هذا المختلف نزيلاً آخر في الفندق نتعرّف عليه، أم نوعاً غريباً من الأصداف نعثر عليها على شاطئ البحر.

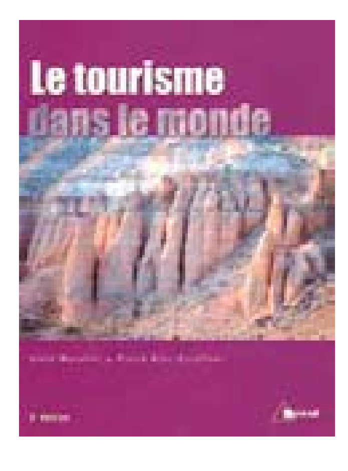
إلى ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن كل هذه السياحات المتنوعة، تترك مجالاً لحرية الحركة، أي لإضافة مكتسبات جديدة نضمها إلى خبراتنا ومعرفتنا. المهم هو أن نكون منفتحين عليها، وأن نفسح المجال لهذه المكتسبات غير المتوقعة لتقترب منّا، لإضافتها إلى ثقافتنا التي يجب أن نعود بها كصيد ثمين من سياحتنا.

3 السياحة عكس التيّار

من حفنة المغامرين والمكتشفين والرحالة في الماضي تحوّل السيّاح اليوم إلى سلع تباع وتشترى ويقوم عليها اقتصاد العديد من البلدان وتتصارع حولها الشركات الكبرى. بمعنى آخر تحوّل الصراع على السبعمائة مليون سائح حول العالم – وهو رقم سيتجاوز المليار خلال أقل من عقد من الزمن – إلى قيام صناعة جديدة عملاقة، لا تعرف الحدود ولا تعترف بها، تفرض قواعدها ونمط سلوكها وآدابها على بلدان يكاد بعضها يعتمد كلياً عليها إن لم نقل يرتهن بها.

ولعل هذا ما جعل بعض السيّاح يتمردون على هذا الواقع الأليم فيقاطعون صنّاع سياحة المجموعات، ويسعون لتحرير هذا النشاط الإنساني من قيود الصناعة وإرجاعه إلى جذوره الأولى. من هنا نشأ ما يسمى بـ «السياحة الثقافية» أو «التاريخية» أو «الدراسية» أو «الطبيعية».. ولكن التجارب علّمتنا أن أرباب السياحة الصناعية سرعان ما سينتبهون لهذه الظواهر الجديدة ولن يتأخروا في دمجها في مخططاتهم الترويجية. تماماً كما «استرجعوا» في الماضي الكثير من الظواهر المماثلة مثل ظاهرة البحث عن الغذاء الطبيعي أو البيولوجي والتي تحوّلت بدورها إلى صناعة.

ولهذا، فمن العبث السعي إلى معاكسة التيار السائد وكبح جماح النمو السياحي في العالم. يقول آلان مسبليه وبيير بلوك دورافور، مؤلفا كتاب «السياحة في العالم» الصادر عن دار بريال العام الماضي، وهو مرجع في هذا المجال، أن هذه الصناعة ستشهد في العقود المقبلة نمواً مذهلاً ولن تعود البلدان الصناعية المصدر الرئيس لتصدير السيّاح إلى العالم النامي كما هي الحال الآن. وبرأي المؤلفين فإن منطقة البحر المتوسط ستشكّل أكبر نسبة نمو سياحية في العالم. وهذه التوقعات قائمة في الواقع على حقيقة أساسية وهي أن 90% من التراث العالمي موجود في هذه المنطقة التي ما تزال غير مستغلة سياحياً كما يجب.



وهذه النتيجة يتوصل إليها أيضاً الباحث الفرنسي كلود أوريجيه دو كلوزو في كتابه «السياحة الثقافية» الصادر عن الدار الجامعية في فرنسا، الذي يحلل ويستكشف فيه آفاق هذا النوع الجديد / القديم من السياحة والذي سيخضع بدوره لقوانين العرض والطلب. أما الباحث روبير لانكار فيحذّر في كتابه الجامع عن «السياحة الدولية» الصادر عن الدار الجامعية نفسها عام 2002م، من مخاطر ومطبات ترك هذا النشاط الاقتصادي بين أيدي القطاع الخاص وحده، لأن هذا النشاط يرتبط في النهاية بالثقافة والترفيه معاً.

الحرارة.. تضرب ضربتها

مع بدء فصل الصيف، يصبح الحر واقعاً يفرض نفسه على حياتنا اليومية. التكييف، الملابس، السلوك اليومي.. كل ذلك يتغير للتعامل مع هذا الضيف القسري الذي يحل ببلادنا لثلاثة أشهرٍ أو أكثر. ويبقى أن الحر الشديد ليس مزعجا فقط.. إنه خطر.. وهذا ما يناقشه هذا الموضوع..

ساعة واحدة تكفي لإخراج الجسم من دائرة التحكم!

قبل بضعة أسابيع، حدثتنا وكالات الأنباء عن موجة حر ضربت جنوب الهند وبلغت ذيولها حدّ الكارثة، إذ أدت إلى مقتل نحو ألف شخص. وفي البلاد العربية، وإن كان ليس هناك من مبرر لرسم صورة بمثل هذا التشاؤم، فإن حرّ الصيف يبقى موجباً للحذر لكونه المصدر الأول للمتاعب الصحيّة، متفاوتة الخطورة، خلال أشهر عدة.

من أكثر هذه المتاعب شيوعاً – وأبسطها إذا جاز التعبير – هي الإصابة بحروق في الجلد، خصوصاً عند مرتادي المنتجعات البحرية وهواة السباحة. فبشرة الجسم الخارجية تقوم مقام الدرع الواقي من أشعة الشمس الحارقة. لكن هذا الدرع لا يمكنه أن يصمد كثيراً حين يفرط الشخص في التعرض لأشعة الشمس سهواً أو عمداً لاكتساب اللون الأسمر لبشرته. إذ سرعان ما يتغير لون البشرة إلى الحمرة، فالسمرة الداكنة، ثم التقشير لاحقاً.. ويمكن لهذه الحروق أن تصل إلى درجات خطيرة يصاحبها الالتهابات الداخلية وارتفاع الحرارة وحتى التشوه..

ضربة في الشمس.. ضربة في الظل

ما يسميه الأطباء «الضربة الحرارية» المعروفة عند الناس، بـ «ضربة الشمس». قد تحدث في الشمس، وقد تحدث في الظل أيضاً. ولا تقتصر الإصابة بها على العاملين في الشوارع المكشوفة، أو التائهين في الصحراء الملتهبة، بل من الممكن أن يواجهها العاملون تحت الأسقف، أو في الغرف. والعبرة في الأمر تتوقف على ارتفاع درجة الحرارة. وعمّال الأفران، والمصانع، والمطابخ في المطاعم من أكثر الناس إصابة بالضربة الحرارية مع أنهم لا يتعرضون للشمس مباشرة..!

عند الإصابة بالضربة الحرارية يشعر المصاب أولاً بصداع شديد جداً في رأسه، وينعكس هذا الصداع على رؤيته حيث يعاني تشوشاً واضحاً ولا يعود يرى الأمور كما كانت قبل دخوله دائرة الضربة الحرارية، وتدريجياً يفقد القدرة على التحكم في عضلاته الإرادية، ثم يفقد الوعي، كما يصاب بتشنجات عصبية شديدة تضع الجسم كله خارج منطقة التحكم الذاتي..! ساعة واحدة من الدخول في غيبوبة الضربة الحرارية تكفي لإنهاء حياة الإنسان، ما لم يخضع إلى الإسعاف والعلاج السريعين. في مثل هذه الحالة يتعرض مركز تنظيم درجات الحرارة في الجسم إلى ارتباك خطير، ويفقد خاصية إفراز العرق، وقد تصل حرارة الجسم إلى 41 مئوية، وهي درجة تجرّ مخاطر أكثر تعقيداً إلى الجهاز العصبي وباقي المراكز الحيوية في الجسم..!

عوامل خارجية.. عوامل داخلية

ومثلما هناك عوامل خارجية تهدد الإنسان بالضربة الحرارية؛ فإن هناك أيضاً عوامل داخلية تساعد على تسهيل حدوث الضربة.

الجسم الجاف يحمل عاملاً داخلياً يسهّل وصول الضربة الحرارية إليه. فهو قليل في احتياطيات السوائل، وفي المناخ الحارّ يتعرض هذا الاحتياطي إلى نقص من خلال عمليات التعرق السريع. ولهذا وجب الإكثار من احتساء السوائل، وبخاصة الماء.

وبذل المجهود العضلي الشديد عامل داخلي آخر، خاصة في المناخ الحار الرطب. الرطوبة العالية تعيق قدرة الجسم الذاتية على التبريد من خلال التعرق. ولذا يُعتبر اليوم الشديد الرطوبة المعتدل الحرارة أشد خطراً على الرياضيين من اليوم الجاف الشديد الحرارة. وتنطبق القاعدة ذاتها على العمّال. ويزداد الخطر على الأطفال والمسنين بشكل خاص.

والملابس غير المناسبة عامل شبه داخلي يلحق الضرر بالجسم. وأكثرنا يختار في الصيف ملابس خفيفة منسجمة مع إحساس جسده بالحرارة. لكن هناك مخاطر غير واضحة في الملابس التي نظنها صيفية. ويقع بعض الرياضيين في أخطاء حين يختارون ملابس غير مسامية النسيج، فهذا النوع من الملابس يحول دون تبخر العرق، وينسحب هذا الخطأ على القفازات وخوذات السلامة. والسليم في الاستخدام هو خلعها أثناء فترات الاستراحة.

الإسعاف يصل

لو أصيب أحدنا بضربة حرارية مفاجئة.. فماذا يجب على الآخرين عمله..؟

أولى خطوات إنقاذ المصاب بالضربة الحرارية هي نقله إلى مكان ظليل، ومن ثم العمل على تخفيض درجة حرارة جسمه بمساعدة الثلج، والأفضل وضعه في حوض ماء وتزويد الحوض بالثلج. وكل ذلك يتم أثناء استدعاء المساعدة الطبية التي يجب أن تصل بشكل عاجل.

وهناك حالات تضرب فيها الحرارة ضربتها في موقع لا تتوافر فيه مثل هذه الإمكانيات. وفي هذه الحالة يجب العمل السريع على إبعاد المصاب عن المنطقة الحرارية وتبليل جسمه بالماء البارد، ونقله فوراً إلى أقرب مستشفى.

سلامة الرأي

في الصيف يتضاعف الخطر

أربعة أصدقاء.. خطرون..!!

«كل شيء على ما يرام. والسيارة سليمة وجاهزة طيلة الوقت للانطلاق إلى أي مكان». هذا ما يقوله اطمئنانك إلى سلامة سيارتك التي تعرفها أكثر من أي شخص آخر..!

المحرك، الفرامل، الأنوار، بوق التنبيه، أحزمة السلامة، جهاز تكييف المقصورة، حتى جهاز الراديو.. كل شيء مطمئن.

ولكن.. هل درجة اطمئنانك إلى أداء الفرامل تساوي درجة اطمئنانك إلى حالة الإطارات..؟ قد تقول: «نعم»..! وقد تقول: «لا»..!

في الحالين أنت على يقين من أن العلاقة بينك وبين الحركة والتنقل تتحكم فيها، أولاً، أربع عجلات على الأقل، وتفهم – كما يفهم الجميع – أن لكل واحدة من هذه العجلات وضعاً حساساً في تحمّل الوزن الثقيل الذي تسير في الشوارع برفقته..!

وأنت أيها المحمول في السيارة أكثر الوقت ترافق أربعة أصدقاء (على الأقل) لا تعرف ظروف أي منهم..!

ما الذي يحدث كثيراً..؟

- **ينفجر إطار سيارة بصورة مفاجئة وتنقلب السيارة.**
- **يتسلّخ إطار أثناء رحلة طويلة فينقطع السائق ومن معه في طريق مقفر.**
- **يتأخر موظف عن عمله بسبب ثقب صغير أصاب أحد الإطارات مساء أمس.**
- **تتعرض السيارة أثناء السير إلى اهتزازات غريبة لا يعرف السائق مصدرها.**

وقد يحدث أكثر من ذلك على الرغم من اطمئنان السائق إلى إطارات سيارته..!!

أصدقاء سلامتك الأربعة لهم وضعهم الخاص دائماً. في الصيف والشتاء يحتاجون منك إلى أن تكون أكثر قرباً، وأسرع تلبية لاحتياجاتهم. إنهم يحملونك، ويحملون وزن سيارتك، والوزن الإضافي الناتج عن مرافقيك والأمتعة. يحملون كل ذلك بواسطة هواء ومطاط وأسلاك فقط..!

وفي مثل هذه الأيام الصيفية؛ يحتاجك أصدقاؤك أكثر. الهواء في الداخل يسخُن، والمطاط في الخارج يعاني حرارة الجو والإسفلت والحركة معاً..! وسلامتك ترتبط بالأوضاع التي تصير إليها أمور الإطارات..!

الجزء المطاطي يتآكل، وتقل مقاومة الأسلاك الداخلية، ومداسات الإطارات تنوء بحمل الوزن الزائد، والهواء يزيد وينقص..

أنت لا تعرف شيئاً، وتفعل كل شيء خطر: تنطلق بسرعة خاطفة، تنعطف بلا مبالاة، تعبرً فوق الرصيف مختصراً الطريق، تدوس الأجسام الملقاة في الشارع، تناور بين الحفر والمطبات وتضرب – أو تقع – في بعضها، تدوس الفرامل زاحفاً بالسيارة زحفاً..!

ربما لا يلفت سمعك الصراخ الذي يتقطع أسفل سيارتك. وقد لا تلاحظ الميلان الطفيف الذي يعتري استقامة سيرك على طريق ممتد. والأكثر خطورة هو أنك لا تعير واحداً من إطارات سيارتك نظرة واحدة في الشهر الواحد..!

أصدقاؤك خطرون ما لم تكن العلاقة بينك وبينهم قائمة على محاذير السلامة.

موقع الإطار يتطلب حرصاً من نوع خاص، فالإطاران الأماميان غير الإطارين الخلفيين. السرعة في الظروف غير المؤاتية لها ضررها المضاف إلى كونها خطراً في ذاتها. لكل إطار عمره الافتراضي المبني على نوعية الاستعمال. ضغط الهواء في كل إطار يتطلب حذراً ودقة.

وهناك قائمة طويلة من المهم الوفاء بها من أجل الحفاظ على صداقة آمنة مع إطارات السيارة، وحتى لا يحدث ما يحمد عقباه.. فحوادث المرور التي تتسبب بها الإطارات تملأ أخبارها كل مكان..!!

ليست إذاعة القدس كباقي الإذاعات، فلوجودها على أرض فلسطين دلالات ترتقي بها إلى مصاف الشواهد التاريخية على حقيقة الوطن المسلوب الذي حاول البعض، بجرأة غريبة، التشكيك في هويته في النصف الأول من القرن العشرين.. مكتب القافلة في بيروت يحدثنا هنا عن تاريخ هذه الإذاعة، وسجلها الثقافي والفني خلال عمرها القصير.

أول محطة عربية بعد القاهرة

هنا..القدس

واجهة مبنى الإذاعة في القدس في عهد الانتداب البريطاني، وهو مبنى استأجرته السلطات البريطانية من مالكته دولة الحبشة في ثلاثينيات القرن الماضي

من أرشيف عجاج نويهض

عندما خرجت دول المشرق العربي (وبينها فلسطين) من إطار الإمبراطورية العثمانية مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، وبدأت تفتح عيونها على الحياة العصرية في مختلف المجالات، كان كثير من الاختراعات والاكتشافات الحديثة التي ظهرت في أوروبا وأميركا بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، تأخذ طريقها إلى التطبيق في الحياة العملية، ولكن بخطوات بطيئة في بداية الأمر. من أهم هذه الاختراعات الحديثة الطائرة والسيارة والهاتف والمذياع والسينما والتصوير الفوتوغرافي، وسوى ذلك.

ومع أن الدعاية الرائجة عن فلسطين في أوروبا وأميركا في ذلك الوقت كانت موزعة بين شعارين، يقول أحدهما أن فلسطين هي أرض بلا شعب، ويقول الثاني أنها أرض يسكنها شعب متخلّف، فقد كان الواقع العملي لعرب فلسطين يناقض تماماً هذين الشعارين، ويضع شعب فلسطين بين مقدمة الشعوب العربية التي تعاملت مع كل مخترعات الحياة العصرية، وتطبيقاتها العملية، وما يهمنا منها في هذا المقال هو الفن الإذاعي، الذي كان وليداً في جميع أنحاء العالم يومها.

فعندما أنشئت إذاعة القدس، في العام 1936م كان ذلك بعد عامين فقط من إنشاء أول إذاعة عربية رسمية في القاهرة (منتصف 1934م)، وقبل عام واحد من وفاة العالم الفيزيائي الإيطالي الشهير ماركوني (1937م) الذي كان صاحب الفضل في تطبيق علم الذبذبات اللاسلكية في مجال البث والاستقبال الإذاعي، أي أنه بالتعبير الرائج، مخترع الفن الإذاعي (الإرسال) وجهاز الراديو (الالتقاط أو الاستقبال).

والحقيقة أن ظهور إذاعة القدس في ذلك الوقت من القرن العشرين، لم يكن فقط دليل حيوية في التعامل المبكر مع اكتشافات واختراعات الحياة الحديثة، ولكنه كان أيضاً سجلاً لحيوية ثقافية مبكرة وبالغة الخصوبة كما تؤكد كل المعلومات التاريخية عن تلك الإذاعة العربية التي عاشت حياة قصيرة لم تتجاوز اثني عشر عاماً، قبل أن تنتقل إلى رام الله في العام 1948م، ثم تنتقل مرة ثانية من رام الله إلى عمان، لتتحول بعد ذلك إلى إذاعة المملكة الأردنية.

كان الخطأ اللغوي الواحد إذا ارتكب في إذاعة القدس يتحول إلى حديث المجتمع المقدسي، يتبادل أخباره أسبوعاً كاملاً بعد وقوعه

ومن العلامات الفارقة في حياة هذه المحطة الإذاعية العربية الرائدة، أن رئاسة القسم العربي فيها قد تولاها ثلاثة في عمرها القصير، هم إبراهيم طوقان، وعجاج نويهض، وعزمي النشاشيبي، والأولان منهما إسمان لامعان في حقل الشعر والتاريخ. فإبراهيم طوقان، هو شاعر فلسطين الأول في مرحلة ما قبل النكبة، والثاني هو الأديب والمؤرخ الفلسطيني، الذي سنعتمد على مذكراته الشخصية في معلوماتنا الأساسية عن إذاعة القدس.

صورة للفريق العامل بالإذاعة، ويبدو من اليمين إلى اليسار، أحمد عناني وعلي عصام مراد وراجي صهيون وسميرة أبو غزالة ومحمد بشناق وعقيل هاشم وكامل العسلي.



من أرشيف عجاج نويهض

وللأمانة التاريخية، لا بد من أن نسجل أن المبادرة في تأسيس تلك الإذاعة العربية، صدرت عن سلطات الانتداب البريطاني، لأغراض دعائية سياسية. غير أن تاريخ هذه الإذاعة يؤكد أن السلطات البريطانية قد ركزت نفوذها واهتمامها على الناحية الإخبارية السياسية، التي كانت تمارس إشرافاً مباشراً وحازماً عليها. أما المجالات الثقافية والفنية، فقد كانت متروكة بحرية شبه كاملة لأهل البلد يعبّرون فيها عن أنفسهم كما يحلو لهم.

تأسست إذاعة القدس بثلاثة أقسام: إنجليزي وعربي وعبري، وكان القاسم المشترك فيما بينها نشرات الأخبار الخاضعة تماماً للرقابة السياسية لسلطات الانتداب البريطاني، والأساس فيها نشرات تحرر أصلاً باللغة الإنجليزية، ثم تتم ترجمتها حرفياً إلى العربية والعبرية. أما المواد الثقافية والفنية، من موسيقى وبرامج إذاعية، فكانت تترك في إنتاجها والإشراف عليها لرئيسي القسمين العربي والعبري.

إذاعة القدس في المجال الثقافي

يبدو أن حرص السلطات البريطانية على نجاح إذاعة القدس في أداء المهمة التي أسست لأجلها، وجذب المستمعين العرب في فلسطين وما جاورها من بلدان

عربية قد دفع هذه السلطات إلى إقامة الإذاعة على دعامتين أساسيتين:

- قوة الإرسال الإذاعي الذي كان يغطي كل المناطق العربية المحيطة بفلسطين شرقا حتى العراق وجنوبا حتى صعيد مصر.

- رفعة المستوى الثقافي والفني الذي كان هدفاً تحرص عليه إذاعة القدس منذ تأسيسها. ولم يكن اختيار شاعر مرموق (إبراهيم طوقان) وأديب مرموق (عجاج نويهض) سوى دليل أول على هذا الاتجاه. فقد روى عجاج نويهض في ذكرياته عن إذاعة القدس (كتاب ستون عاماً مع القافلة العربية - دار الاستقلال بيروت - 1993م) أنه قبل وقوع الاختيار على إبراهيم طوقان لرئاسة القسم العربي في الإذاعة، كان اتجاه السلطات البريطانية قد وقع على اثنين من كبار رجال الثقافة والأدب واللغة العربية في فلسطين لاختيار أحدهما رئيساً للقسم العربي: خليل السكاكيني وعادل جبر، ولكن الاختيار تحول بعد ذلك إلى الشاعر إبراهيم طوقان.

> كان للإذاعة فرقة سمفونية من عازفين أوروبيين وعرب تحت قيادة يوسف البتروني

غير أن إذاعة القدس قدمت فيما بعد عشرات الأدلة الحية على رفعة المستوى الثقافي في برامجها، ورفعة مستوى اللغة العربية المستخدمة في الإذاعة في نصوصها المكتوبة، وفي أسلوب إلقائها.

وقد بلغ من اهتمام إدارة القسم العربي في إذاعة القدس بالتشدّد في رفع مستوى اللغة العربية في الإذاعة أن الأستاذ عجاج نويهض، مدير القسم العربي، اختار مراقباً للغة العربية في الإذاعة، هو الأديب الفلسطيني المعروف خليل بيدس، الذي كان يراقب من بيته ومن خلال المذياع، مستوى نصوص اللغة العربية المذاعة، وجودة إلقائها من قبل المذيعين.

كذلك، نظمت الإذاعة مسابقة لاختيار أفضل المذيعين لغة وثقافة، وكانت النتيجة اختيار كوكبة من أهم المذيعين العرب في ذلك الوقت المبكر، أهمهم وأشهرهم الأساتذة راجي صهيون، وعلي مراد، وعقيل هاشم.

ويؤكد الأستاذ نويهض أن هذا الحرص الدؤوب على مستوى اللغة العربية في إذاعة القدس كان يلفت نظر المستمعين إليها من كبار أدباء العربية في سورية ولبنان ومصر والعراق، وأن المذيع في إذاعة القدس كان بوسعه تجنب أي خطأ لغوي حتى لو استمر نصف ساعة كاملة في القراءة. وكان الخطأ اللغوي الواحد إذا ارتكب في إذاعة القدس، يتحول إلى حديث المجتمع المقدسي، يتبادلون أخباره أسبوعاً كاملاً بعد وقوعه.

بعد ذلك، أدخلت إذاعة القدس نظام الأحاديث الإذاعية المدفوعة الأجر، الذي كان متبعاً في الإذاعات الأوروبية العريقة، كإذاعة لندن، الأمر الذي اجتذب إلى إذاعة القدس في ذلك الوقت المبكر كبار الأدباء العرب، من مختلف البلاد العربية المحيطة بفلسطين، لإلقاء أحاديثهم الأدبية الرفيعة من مذياعها. وكان بين هؤلاء أدباء من وزن العقاد والمازني من مصر، وخليل تقي الدين من لبنان ومحمد كرد علي، رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق.

أما في الشعر، فقد اشتهرت إذاعة القدس بتنظيم المسابقات الأدبية بين شعراء العرب، وكانت لجنة التحكيم مؤلفة في مسابقة العام 1942م من كبار الشعراء العرب في ذلك الحين: فؤاد الخطيب، وخليل مردم بك، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير). وقد بلغت الأحاديث الأدبية التي كانت تذاع من القدس مرتبة أدبية رفيعة دعت إلى التفكير بنشرها في سلسلة من الكتب، لم يصدر منها، للأسف الشديد، سوى الجزء الأول بعنوان «أحاديث الإذاعة».

إذاعة القدس في المجال الموسيقي

كان القسم العربي لإذاعة القدس يضم في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين فرقتين كبيرتين للموسيقى العربية، تضم كل منها عشرين عازفاً، واحدة بقيادة الموسيقي الفلسطيني يحيى السعودي، والثانية بقيادة الموسيقي المصري، (عازف القانون)، محمد عطية. وقد اجتهدت إدارة القسم العربي في تطوير هاتين الفرقتين بإجبار العازفين على تعلّم كتابة وقراءة النوتة الموسيقية، وذلك بوضع نظام صارم يعطي العازفين الذين يجهلون النوتة الموسيقية مهلة معينة لإتقانها، تحت طائلة الفصل من العمل إذا لم يفعلوا ذلك.

ويبدو أن هذا الأمر أثار في بادئ الأمر استياء أعضاء الفرقتين الموسيقيتين، غير أنهم جميعاً شعروا بعد ذلك بالفائدة الكبرى التي جنوها من ذلك النظام الصارم. ولعل الثمرة الكبرى لإتقان العازفين الفلسطينيين قراءة وكتابة النوتة الموسيقية في ذلك الوقت المبكر من القرن العشرين، أن هؤلاء العازفين، شكلوا بعد نكبة فلسطين في العام 1948م القاعدة الأساسية للفرق الإذاعية الموسيقية في البلدان العربية التي لجأوا إليها مثل إذاعات بيروت ودمشق وبغداد وعمان. وكان للموسيقي الفلسطيني يوسف البتروني، الذي درس الموسيقى في إيطاليا، الفضل في قيادة عملية التطوير هذه. غير أن البتروني لعب دوراً مهماً آخر في ذلك الوقت، هو قيادة الأوركسترا السمفونية التابعة لإذاعة القدس، والمشكلة من عازفين أوروبيين وعرب. ويبدو أن تلك الفرقة السمفونية كانت القاسم الفني الوحيد المشترك بين أقسام إذاعة القدس الثلاثة، ولكنها كانت توضع تحت قيادة يوسف البتروني، عندما تقدم حفلات لحساب القسم العربي من الإذاعة.

> بلغ مدى التطور الموسيقي في إذاعة القدس قبل ستين سنة ونيّف، أنها شكلت بؤرة استقطاب للعازفين والملحنين والمطربين من كل الأقطار العربية

لقد بلغ مدى التطور الموسيقي في إذاعة القدس قبل ستين سنة ونيف، أنها شكلت بؤرة استقطاب للعازفين والملحنين والمطربين من كل الأقطار العربية المحيطة بفلسطين، فغنى وعزف وراء مذياعها موسيقيون ومطربون عرب كبار منهم، على سبيل المثال عازفا القانون المصريان الكبيران محمد عطية وعبد الفتاح منسي، ومطربون مثل فريد الأطرش وأسمهان ومحمد عبد المطلب. ويؤكد هذا الأخير في مذكراته أن ظهوره الأول في مصر انتهى بفشل ذريع، ولكنه عندما انتقل إلى إذاعة القدس أتيحت له فرصة الظهور والتطور والازدهار، فعاد من فلسطين إلى القاهرة (وهو المصري) مطرباً مشهوراً يشار إليه بالبنان.

كما أن الموسيقار اللبناني المعروف توفيق الباشا، الذي عمل في إذاعة القدس عندما انتقلت إلى رام الله بعد النكبة، يؤكد أن الألوان الفولكلورية اللبنانية، كانت تقدم بشكل ضعيف وفقير في إذاعة بيروت، التي كانت في ذلك الوقت ضعيفة الإمكانات، ولكن هذه الألوان وجدت في إذاعة القدس اهتماماً بالغاً، حيث كانت تعرض بمساهمة المطربين اللبنانيين الموهوبين والعازفين الفلسطينيين المهرة، بمستوى راق لعله كان أساس النهضة الموسيقية العارمة في لبنان بعد ذلك في عقدي الخمسينيات والستينيات.

والواقع أن سجل الإبداع الثقافي والفني في إذاعة القدس في ذلك الوقت المبكر من القرن العشرين، أطول من أن تختصره هذه السطور، ولكننا اكتفينا بنماذج منه كافية لتكوين صورة عن نهضة ثقافية - حضارية كبرى انقطع مسارها في يوم ما من العام 1948م.

افتتاح إذاعة القدس

«افتتحت هذه المحطة بعد أن اكتملت تجهيزاتها وأجهزتها الفنية. وهي تحتوي على أحدث استوديوهات. وذلك بعد أن عدّلت الحكومة داخل المبنى في الردهات الكبرى تعديلاً يقتضيه الفن اللاسلكي، فأصبحت هذه الدار من الوجهة الفنية على أكمل وجه. و «بناية الحبشة» مؤلفة أساساً من طبقتين أنيقتين، وكانت تعدّ من أجمل بنايات القدس، وهي ملك حكومة الحبشة، وكانت مجموعة من الأجهزة الفنية للإرسال تعتبر أقوى مجموعة في الشرق الأوسط بعد أنقرة. وكان ارتفاع أعلى سارية فيها يبلغ مائتين وخمسة وعشرين متراً».

(من مذكرات عجاج نويهض)

العربي المعاصر ولغته الأم

يؤكد كبار خبراء التربية الحديثة أن التصاق الإنسان منذ الطفولة بلغته الأم يضمن له توازماً نفسياً ويعزز قدرته الذهنية ويجعله أقدر على اكتساب أية لغة أخرى.. الكاتب **إلياس سحّاب** يُلقي الضوء على مخاطر اهتزاز علاقة الإنسان العربي بلغته اليوم.

يذكر القرّاء ممن كانت أعمارهم تتراوح ما بين العاشرة والخامسة عشر في منتصف القرن العشرين، أن الأطفال العرب في تلك الحقبة غير البعيدة، كان من بين ألعابهم التي يقطعون بها أوقات الفراغ، ألعاب أدبية ولغوية (إن صحَّ التعبير)، منها لعبة التراشق بالأبيات الشعرية، التي كان على المبارز فيها أن يذكر بيتاً من الشعر يبدأ بالحرف الذي ينتهي به بيت الشعر الذي ألقاه المبارز السابق. وأذكر أن المبارزة الشعرية فيما بيننا كانت تتجاوز أحياناً نصف الساعة، قبل أن يتمكن أحدنا من إسقاط الآخر، عندما لا تسعفه ذاكرته ببيت الشعر المناسب لقواعد المبارزة. كذلك كان بين ألعابهم، في ذلك الزمن غير البعيد، الألغاز الإعرابية، فيختار أحدهم جملة معينة، ويطلب من الآخر أن يحدد موقع إحدى كلمات الجملة من الإعراب، فإذا أخفق خسر، وإذا أفلح جاء دوره لإحراج خصمه بلغز آخر في الإعراب، أشد صعوبة. ولا أنسى أننا كنا، عند ممارسة لعبة الإعراب هذه، نحتكم في اليوم التالي إلى أساتذة اللغة العربية في مدارسنا، ليحددوا لنا الرابح من الخاسر.

لو قام أحدنا اليوم باختيار «الألعاب اللغوية والأدبية» نفسها على أطفال من السن نفسه، لوجد نفسه أمام جيل من إقليم آخر من الكرة الأرضية. ولو حاول، بعد ذلك تخفيف جرعة التجربة، فأعطى هؤلاء الأطفال مقطعاً من صحيفة يومية، وطلب إليهم قراءته بصوت مرتفع. فإنه يسمع تأتأة، تذكره بشيء اسمه اللغة العربية. ولو جرب مرة ثالثة مزيداً من تخفيض جرعة التجربة، وحاول الاستماع عن كثب إلى ثلاثة أو أربعة من جيل الأطفال العرب المعاصرين، من أهل المدن الذين يرتادون المدارس، فإنه سيستمع إلى «برج بابل»، تخالطه بعض الكلمات العربية. بل أصبح «برج بابل» اللغوي هذا، وسيلة التخاطب اليومي بين الآباء والأمهات المثقفين من جهة، وأبنائهم الساعين إلى التثقف من جهة ثانية.

أما إذا أردنا استكشاف مستقبل علاقة هؤلاء الأطفال بلغتهم الأم، فما علينا سوى الاستماع إلى مصير هذه اللغة على شفاه مذيعي ومذيعات الراديو والتلفزيون، وحالة هؤلاء التي تستدر الشفقة وهم يحاولون التعبير باللغة العربية.

ليست المشكلة جديدة على أي حال، فلقد حدثني الدكتور إحسان عبّاس، أستاذ الأدب العربي المرموق، عندما كان يدرس الأدب لطلاب إحدى الجامعات المرموقة في بيروت، فقال إنه يضطر إلى إعادة تدريس طلاب الأدب العربي (بدرجة البكالوريوس أو الماجستير) قواعد اللغة العربية الإملاء العربي، المفترض في طلاب الصفوف الابتدائية إتقانها. وكان هذا الحديث في أواخر عقد السبعينيات من القرن الماضي.

إن الأمر يتجاوز كونه غضبة مضربة للدفاع عن لغة العرب القومية، فالمشكلة أفدح من ذلك بكثير. لقد أصبح العرب المعاصرون، يزدادون في كل يوم عجزاً في التعبير عن مشاعرهم وعن أفكارهم في أي مجال من مجالات الحياة. ومن يذهب إلى البدايات الأولى لظهور هذا العجز، فإنه سيرجع حتماً إلى تلك الهجمة العنترية التي اتبعناها في سعينا للإلمام باللغات الأجنبية. ولأنها كانت هجمة عنترية عفوية، منطلقة من عقدة النقص، ومن رغبة غاضبة بالتقدم، لا تملك خطة مدروسة، ولا تصوراً واضحاً لنقطة الانطلاق وللهدف المنشود، فقد أخذت تستقر داخل نفس كل مواطن عربي يسعى إلى التثقف والتقدم، معادلة عجيبة غريبة مفادها أن اللغة العربية مرادفة للتخلف، وأية لغة أجنبية مرادفة للتقدم، فاختلت علاقة الإنسان العربي، ربما لأول مرة في التاريخ، بلغته الأم.

لماذا تضعف علاقة العربي المعاصر بلغته الأم؟

إتقان اللغات الأجنبية لا يمر بإهمال اللغة العربية

اللغة الأم وحدها.. لسان الوجدان والإحساس

طبعاً، لا يمكن أن تكون المشكلة كامنة في سعي الإنسان العربي إلى إتقان لغة أجنبية أو أكثر، فطالما رددت العرب عبارة «كل لسان بإنسان»، ومارست ذلك. حتى أن ذروة عصور النهضة العربية الحضارية الشاملة، المترافقة مع ذروة النهضة العربية في الترجمة من اللغات الأجنبية وإليها، في عصر الخليفة العباسي المأمون، كانت مترافقة أيضاً مع ذروة العلاقة الإيجابية بين العرب ولغتهم الأم.

المشكلة هي بالتحديد، في أن العرب لا يسعون إلى إتقان لغة أجنبية أو أكثر انطلاقاً من قاعدة صلبة راسخة، هي إتقان اللغة الأم أولاً. ولا داعي هنا لاستحضار الأبحاث العلمية التي تؤكد كلها أن العلاقة بين أي إنسان ولغته الأم ليست مجرد مسألة لغوية، ولكنها علاقة نفسية وجدانية عميقة، تحدد نسبة التوازن النفسي لدى ذلك الإنسان، والتوازن العقلي، كما تحدد نسبة الانطلاق الحر لملكاته الإبداعية، فنية كانت أم عقلية، أدبية أم حسابية.

ولعل الإنسان الأميركي، ابن الولايات المتحدة اليوم، هو من أسعد البشر، لأسباب عديدة، من أهمها أنه من المهد إلى اللحد، غير مضطر إلى تعلّم أية لغة أخرى غير لغته الأم: بها وحدها يستطيع أن ينتمي إلى العصر الحديث، بل يتربع على عرشه، في الأدب كما في التجارة، في السياسة كما في الحرب، في شتى ألوان العلوم كما في شتى ألوان الفنون. إنه من هذه الناحية المتعلقة بقدراته التعبيرية والإبداعية، أكثر البشر المعاصرين الذين يعيشون حالة تصالح كاملة بين لسانهم ووجدانهم. أما الإنسان العربي، فلعله في هذا السلم، من الواقفين على أواخر درجاته.

لا شك في أن العرب المعاصرين قد ولدوا في عصر شديد الصعوبة والتعقيد، فلا يستطيع الإنسان العربي مواصلة دراسته العليا في الخارج، إلا بإتقان لغة أجنبية أو أكثر: اللغة الإنجليزية أولاً، لأنها لغة عالمية مشتركة في هذا العصر، ولأنها لغة الحواسيب. اللغة الألمانية، أو غيرها، للدراسات العليا في علوم الميكانيكا. اللغة الإيطالية، أو غيرها، للدراسات العليا في الفنون. اللغة الفرنسية، أو غيرها، للدراسات العليا في القانون. إلى آخر هذه القائمة من اللغات الأجنبية.

ولكن من قال أن الانطلاق نحو إتقان لغة أو أكثر من هذه القائمة الطويلة، يمر بقطع الصلة الطبيعية باللغة العربية الأم؟ إن نصف قرن من التخبط العربي العام في هذا الاتجاه، قد أنتج ما يكفي من الكوارث، في كل اتجاه.

فالعربي المعاصر الذي يفقد الصلة بلغته الأم بشكل متدرج، إنما يسير بخطى حثيثة نحو فقدان الصلة بكل محاور توازنه الداخلي، نفسياً وعقلياً: فقدان الصلة بنفسه، وبأعماقه الوجدانية المكونة عبر التاريخ على أساس اللغة العربية الأم. فقدان الصلة بمحيطه الاجتماعي الأم، مجتمع بلده وأمته العربية. فقدان القدرة على إقامة علاقة متوازنة سليمة مع المجتمع الأجنبي الذي يقيم فيه مؤقتاً للدراسة، أو نهائياً للهجرة.

إن اضطراب علاقة الإنسان العربي المعاصر بلغته الأم، أشبه ما يكون بحالة انفصام في الشخصية الحضارية والاجتماعية لذلك الإنسان، بل حتى في شخصيته الفردية. فأنت لا تستطيع أن تتقدم، بالتخلص من لغتك الأم، فإما أن تتقدما معاً، أنت ولغتك الأم، وإما أن تفقدها وتفقد ذلك معها.

وإذا كانت اللغة العربية تُبدي عجزاً في مواكبة بعض العلوم الحديثة والتعبير عنها، فمن المؤكد أن ذلك لا يرجع إلى قصور فيها أو في بنيتها الداخلية، بل إلى كسل حضاري فظيع يبدو أن العرب المعاصرين قد استمرأوه هاربين إلى أية لغة أجنبية.

ألم نكتشف بعد أن اللغة الأجنبية قد تحل لنا معضلة العلاقة مع أي علم حديث، ولكنه ليس أكثر من حل جزئي. فقد أثبتت الدراسات أن ملكات الفهم العلمي والإبداع العلمي تكون مضاعفة عندما يمارسها الإنسان بلغته الأم. فإذا خرجنا من العلم إلى مجالات الحياة الأخرى، فإن أية لغة في العالم لا تستطيع أن تحل محل لغتك الأم في توازنك النفسي الداخلي عندما تغضب أو تثور أو تهدأ أو تصفو أو تحب أو تكره، أو تحلم، أي عندما تريد التواصل مع نفسك، أو مع محيطك الاجتماعي الطبيعي.

ديوان الأمس ديوان اليوم

من أشهر ميادين الكلمة الشاعرة، فخر الإنسان بنفسه أو بمن يمت له بصلة. هذا الميدان الذي اشتهر فيه الرجل لم تنل المرأة نصيبها فيه من البحث وتسليط الضوء، رغم ما لها من صولات لا تقل عن صولات الرجل.. **محمد أبو المكارم** من فريق التحرير يسلّط الضوء هنا على:

فخر المرأة بالرجل

بمراجعة سريعة لمعاجم شعراء العربية، سنلحظ ضآلة نسبة الشواعر إلى الشعراء، كما سنلحظ قلة عناوين الفخر في شعرهن، فهل هذا لأن المؤرخين والرواة بخسوا شعر المرأة والفخر منه بخاصة، حقه من الحفظ؟ أم أن المرأة تفاخر بالفعل ولا حاجة لها إذن في القول؟ أم أن هناك أسباباً أخرى؟

نعم إن في ثنايا شعرهن فخراً بذواتهن، وأقوامهن، وكل من يمت لهن بصلة، وبالرجل في حياتهن، فخراً يضج حيوية ويتدفق شاعرية، وأكثر ما نجد هذا الفخر متقمصاً أحيانا ثوب الغزل، ومعظم الأحيان ثوب الرثاء الذي اشتهرت المرأة فيه بصدق عاطفتها وحرارتها.

الرجل في حياة المرأة هو وجودها بحق، فهو الأب والأخ والزوج والحبيب والابن وكذلك القائد والزعيم، وليس كون كل فتاة بأبيها معجبة، قاصراً إعجابها وبالتالي فخرها فقط بأبيها فما كان ذلك إلا لقصة المثل، وإلا فكل أنثى فخورة بمن ترتبط به وتحس أنها تنتمي له أو ينتمي لها. وكما افتخرت بأبيها، افتخرت بزوجها، وحبيبها، وابنها، وافتخرت أيضاً بقبيلتها، وزعيمها.

أما مادة الفخر الأساس، فهي الصفات المادية والمعنوية (الذاتية والخارجية): الحسب والنسب، والقوة الجسدية، والشجاعة والبطولة، والكرم والأخلاق الحميدة، والمهابة والزعامة.

كل فتاة بأبيها معجبة

قالت خالدة بنت هاشم بن عبد مناف، في أبيها:

هاشم الخير ذي الجلالة والحمد
وذي الباع والندى الصميم
وربيعٍ للمجتدين ومزن
ولزازٍ لكل أمرٍ[1] جسيم
شَمَّريٍ[2] نماه للعزٍ صقر
شامخُ البيت من سراة الأديم
شيظمِّيٍ[3] مُهَذَّبٍ ذي فضول
أبطحيٍ مثل القناة وسيم

أما بنات عبد المطلب بن هاشم، فيرثين أباهن قبل موته بطلب منه وهو على فراش الموت، كي يعلم ما سيقلن، قالت أروى:

طويلِ الباعِ أبيضَ شيظميٍّ
أغَرَّ كأن غرَّتَه ضياءُ
أقبِّ[4] الكشح[5] أروعَ ذي فضول
لَه المجد المقدمُ والسناءُ
أبيِ الضيمِ أبلجَ هبرزيٍّ[6]
قديمِ المجدِ ليس به خفاءُ

وقالت أميمة:

ألا هلك الراعي العشيرة ذو الفقدِ
وساقي الحجيج والمحامي عن المجد
ومن يُؤلفُ الضيفَ الغريب بيوته
إذا ما سماء الناس تبخل بالرعد

وقالت برة:

على ماجد الجدِّ واري الزناد
جميل المُحيَّا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذي المكرُمات
وذي المجد والعزِّ والمفتخر

وكذلك قالت صفية وعاتكة، مثل مقالتهن، وكان الرثاء الممتلئ فخراً بأبيهن وأوصافه الجسمية والنفسية والخلقية.

الزوج

قالت الخِرنَق أخت طَرَفة بن العبد تفخر بزوجها بشر بن عمرو:

لقد علمت جديلة أن بشراً
غداة مربِّح مرُّ التقاضي
غداة أتاهم بالخيل شعثاً
يدقُّ نسورها حد القِضاض[7]

وحينما قتل في يوم (قلاب) رثته بقولها:

فلا -وأبيكِ- آسى بعد بشر
علَى حي يموت ولا صديق
وبعد الخير علقمة بن بشر
إذا نزت النفوس إلى الحلوق
ومال بنو ضبيعة بعد بشر
كما مال الجذوع من الحريق

وقالت هند بنت زيد في زوجها حجر بن عدي:

تلفت أيها القمر المنير
تبّصر هل ترى حجراً يسير؟
تجبرت الجبابر بعد حجر
وطاب لها الخورنق والسدير

وقالت الرباب بنت امرئ القيس في زوجها أبي الشهداء:

سبطَ النبيِّ جزاك الله صالحة
عنّا وجُنّبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به
وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن
يغني ويؤوي إليه كل مسكين

الابن

قالت السلكة في ابنها السليك:

أي شيء حسن
لفتىً لم يكُ لك
طال ما قد نلت في
غير كدٍّ أملك
إن أمراً فادحاً
عن جوابي شغلك

وقالت عمرة الخثعمية في ابنيها:

هما يلبسان المجد أحسن لبسة
شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما
شهابان منّا أُوقِدا ثم أُخمِدا
وكان سناً للمدلجين سناهما

الحبيب

من النادر أن تجد جرأة تصل إلى إعلان رثاء الحبيب أو الفخر به، لكن شغف الهوى ولوعة الفراق تصنع ما تصنع. قالت ليلى الأخيلية في توبة بن الحُمَيِّر:

وتوبةُ أحيا من فتاة حيية
وأجرأُ من ليثٍ بخَفَّانَ خادرِ
فتى يُنهلُ الحاجاتِ ثم يُعَلُّها
فيُطلِعُهَا عنه ثنايا المصادر

الأخ

ولعل أشهر ما ورد في الفخر ولو مضمَّناً في الرثاء هو فخر الأخت بأخيها، فعاطفة الأخوة المتأججة تنفخ روح الشعر ونار الفقد فيتدفق الجمال.

قالت الخرنق ترثي أخاها طَرَفة:

عددنا له خمسا وعشرين حجة
فلما توفاها استوى سيداً ضخما
فُجِعنا به لمّا انتظرنا إيابه
على خير حال لا وليداً ولا قحما

وقالت الخنساء:

وإن صخراً لوالينا وسيدُّنا
وإن صخراً إذا نشتو لنحّارُ
أغرُّ أبلجُ تأتم الهداةُ به
كأنه علمٌ في رأسه نارُ

وقالت زينب الطثرية:

فتى قُدَّ قَدَّ السيف لا متضائلٌ
ولا رَهِلٌ لَبَّاتُه وبآدِلُه
فتى لا ترى قَدَّ القَميص بخصره
ولكنما توهي القميصَ كواهلُه

(1) لزار لكل أمر: مصلح له
(2) شَمَّري : شمر للأمر وشمر له أذياله فهو شمري
(3) شيظمي : الطويل الجسم الفتي
(4) أقب : ضامر البطن
(5) الكشح : الخصر
(6) الهبرزي : الجميل الوسيم المقدام
(7) القضاض : الحصى الصغار

ديوان اليوم ديوان الأمس

الأبجدية تنتحب

«نحيب الأبجدية» هو عنوان قصيدة تحتل الصفحات ما قبل الأخيرة من الديوان ولكن الشاعر جاسم الصحيّح اختاره عنواناً لمجموعته الجديدة كلها. إذ أن ومضات الأمل والتأمل في بعض الصفحات أو الأبيات لم تبدد طابع الحزن والانكسار الذي يطغى على المجموعة ككل، ولا بكاء الشاعر على الإنسان الذي أطاحت تحولات الحياة المعاصرة بشفافيته ومبادئه وقيمه التي كانت «ألف باء» إنسانيته. الزميل حبيب محمود يعرض لنا بعض المقتطفات..

المجموعة الجديدة هي السادسة للشاعر، صدرت عن النادي الأدبي بالطائف في 232 صفحة اشتملت على اثنين وعشرين عنواناً رئيساً، وسجلت تنويعاً ممتعاً يختلط فيه الأمل بالألم والتأمل بالقلق والحنين.

ومنذ بداية المجموعة؛ يضع الشاعر الصحيح ذاته موضوعاً لرؤية شعرية لها هاجسها النفسي الحزين الذي يرسم فيه نفسه منشداً:

وحدي كأني بائع متجولٌ
وكهولتي - منذ اكتهلتُ بضاعتي
تتزاحم الآلام حولي
والتجاعيد الثرية تشتري ما شعّ من جلدي
ويومئُ كي يساومني على جسدي السقامُ
واليأس أقدم سائح
يتبضع الأحلام فيَ روحي بأرخص ما يُرامُ

وفي الجو نفسه، يجرب الشاعر العموديّ من الشعر، ويبرز قدراته الشعرية في المضمار النفسي عينه، ويغني:

لهفي على البشر المعلّب لم يزلْ
يغشاه في رف الحياة غبارُ
لو كنت أملك بعض عمري لم أكن
أرثي لمن ملكتهم الأعمارُ
حلّفتُ صلبي أن يعق مياهه
كي لا يصيب خطيئتي تكرارُ
هذا أنا شيخ الغواة تهدّلت
روحي كما تتهدل الأثمار
راعٍ بصحراء الغريزة أشتكي
فقد العصا.. وقطيعي الأوزارُ
أقفوا خطوط اللحن حين يخطها
قصبي ويطلقني بها المزمار

ومثلما كان الشاعر يعود إلى مسقط رأسه، الأحساء، في مجموعاته السابقة؛ عاد الصحيح مكسوراً أيضاً في المجموعة الجديدة، وأنشدها ذات صيف نادماً:

خرجتُ منك نقيّ الجيب طاهره
وعدت أحمل في جيبي غواياتي
إذا الحماقات لفّت لي سجائرها
ثملتُ حتى بأعقاب الحماقاتِ

ومثلما تفنن الصحيح في النحيب، حاول أيضاً أن يجرّب الفرح، فكان فرحه في حضن حبيبة منحها ضوء المصابيح في قرطاس شعري متخم بالنشوة والاحتفالية.. فغنى حبيبته:

يوم أحببتك
زفّت لغة (الضاد) تهانيها
عصافير من البشرى إلى كل اللغات
كان يوماً كاحتشاد الشعر دفئاً
في حنايا كلمة تشعر بالبرد
وما أكثر ما حجت إلينا كلمات

وقدم الشاعر تجربة الشعر الواقعي، في قصيدته للاستشهادية آيات الأخرس، وبإحساس غنائي خاص رسم لوحة شعرية لها ومنحها أجنحة تطير بها بين قبائل التين:

قبل أن تعلن ميلاد جناحيها
وتنضمّ إلى جنس البلابل
أنفقت من ياسمين العمر ما يكفي
لتستنبت في الحلم
من الورد شعوباً ومن التين قبائل
وانتهت في أمة
يبكي بها التين على أغصانه والورد ثاكل

الصحيّح في مجموعته الأخيرة يستعرض تجربته في الرباعيات الشعرية، وفي ثمان وعشرين رباعية قدّم مضموناً يختلط فيه التأمل الفلسفي بالرومانسية:

إذا اندلعت خيول الهم في برية الأرواحْ
وراح قطيعها ينمو صهيلاً في المدى وجماح
فماذا يصنع الإنسان غير تقمّص الأفراح..؟
ويحلم أن يعيد الخيل نحو حظيرة الأشباح..؟

وهو في دورانه الذاتي، جعل من الطبيعة وتراً غنائياً حميماً، وحين سنحت له نهزة للتحاور مع البحر فإنه أكد الذاتية.. وتساءل:

هل أنت جرحٌ مثل جرحي طاعنٌ
في الأرض يغرقُ في مداهُ المرهمُ
هل عمقُ قاعكَ مثل عُمْق قصيدة
في خاطريَ.. أَزَلِيَّةً.. لا تهرمُ
تَعِبَ السؤالُ فكن له أرجوحةً
يغفو على موجاتِها، ويُهَوِّمُ
واصنعْ من الهمساتِ مركب سهرةٍ
يفْتضُّ سلسلة الهموم ويفصمُ

وفي احتفالياته بالمكان وجد الشاعر في سوق (القيصرية) مرثية فارعة على الرغم من رمادها الذي يتوجع:

أتذكر حين تهجَّيتكِ جالسةً فوق بساطِ الأرض..
تهجّيتُ كتاباً حجرياً تتألق فيه مرايا الأسلاف
طرقتُ على حجر
فتفتَّح سطرٌ وانبثقت سيرةُ إنسانْ
كنت تواسينَ جراحَ الطين
إذا جَلَدَتْهُ شموسُ ظهيرتَنا
فوق وجوهٍ عالقةٍ في ذاكرة الحيطانْ
كنت عروسَ الأرضِ
وكان التاريخُ على جسمكِ فستانْ

وفي (الخروج من الكهف) مزاوجة رمزية بين الأسطورة والإحساس الخاص لدى الشاعر الهائم على وجه لغته المتقنة:

رجعتُ من المدينة
جالباً بعض الهواءَ إلى مناخِ الكهفْ
أُنادي: يا رفاقَ تمائمي
إني تنسّمتُ الحقيقةَ فاستوى لي أنفْ
وطالت هامتي بالوعي حتى ضاق عنها السقفْ
وصافحتُ الحياة هناك
أشعر في يميني كفْ
وعدت ببرزخٍ يمتدُّ ما بيني وبين الزيفْ

إني تنسّمتُ الحقيقةَ فاستوى لي أنفْ
وطالت هامتي بالوعي حتى ضاق عنها السقفْ
وصافحتُ الحياة هناك
أشعر في يميني كفْ
وعدت ببرزخٍ يمتدُّ ما بيني وبين الزيفْ

القصة القصيرة جداً جنس إبداعي حديث لم يتجاوز عقده الثالث في العالم العربي بعد. لكنه أخذ يتكرس في وعي القصّ العربي على نحو يمكن التقاطه وإدراك أبعاده الجمالية في بعض الأعمال القصصية السعودية..

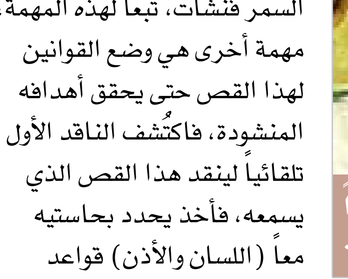
القاص ناصر الجاسم واحد من المشتغلين بحثاً في هذا الجنس الإبداعي القادم، ويقدم لقراء (القافلة) هنا نموذجاً سعودياً صاعداً، من خلال تجربة القاص فهد المصبّح التي تعرضها مجموعته الأخيرة: «الزجاج وحروف النافذة»..

فهد المصبّح والقصة السعودية القصيرة جداً

الحذف الفني.. يبحث عن متعة

التأسيس هو أصعب ما يواجهه المعماري، حين يشرع في البناء، وقد أدرك البنّاءون – منذ عرف الإنسان التشييد – أن البناء الرأسي أسهل بكثير من البناء الأفقي وأقصر زمناً. وما ينطلق على البنّائين والمعماريين في مسألة التأسيس ينطبق أيضاً على المفكرين والمبدعين حين يبنون ثقافة أو يؤسسون إبداعاً أو يضعون أركاناً.

قدرهم الجميل أن يكون بناؤهم رأسياً حتى يقف عند نقطة ما، أو مستوى معين، وهكذا يكون الخلق الفني في كافة الأجناس الأدبية. إنها تنمو رأسياً وليس أفقياً؛ لذا كان الجدل ينشب دائماً حول الأسس المميزة لكل جنس من الأجناس الأدبية بين النقّاد. إن الأجناس الأدبية بيوت فنية لا تتشابه ولا تتساوى في القصر أو الطول أو الحجم وإن كانت مادة البناء أو الطوب شيئاً واحداً هو «اللغة». وقدر القص أنه فن لا ينقطع، وقد ارتبط في البداية بحاسة التذوق «اللسان» وبحاسة السمع «الأذن»، فكان الفن الأول من فنون القول البشري، ودخلته المشاعر الذاتية والرموز والأساطير، وأتى بعده فن الشعر ليزاحمه ويتصارع معه، وما زال التزاحم والصراع مستمرين حتى يومنا هذا!!، والقص القديم المعروف بـ «القص الديني» هو بداية الفنون جميعاً، وقد جاء قصاً طبيعياً سلساً لا تكلّف فيه، ثم تولى الإنسان مهمة القص حين يركب على ظهور الدواب، أو حين يمشي على رجليه في الفيافي والقفار، أو حين يريد السلوى أو السمر فنشأت، تبعاً لهذه المهمة، مهمة أخرى هي وضع القوانين لهذا القص حتى يحقق أهدافه المنشودة، فاكتُشف الناقد الأول تلقائياً لينقد هذا القص الذي يسمعه، فأخذ يحدد بحاسته معاً (اللسان والأذن) قواعد الإعجاب والإبهار، فصاغ الناقد العربي الأول ما يُعرف بقواعد سجع الكهان، وهو فن قصصي ديني الطابع.



بعض كتّاب القصة القصيرة جداً يخلطون بينها وبين قصيدة النثر..

القصة القصيرة جداً

ولكن لماذا يقص القاص الحديث قصصاً متناهية في القصر؟! القضية ليست قضية تحول فني؛ لأن القصة القصيرة جداً أو الأقصوصة هي الدرب القصير غير الممهد، غير المضاء، وغير الواسع أيضاً، ومع ذلك يصر القاص الحديث على السير فيه برغبة وطموح غير محدودين!!

ألم يع القاص الحديث أن الإبحار في المحيطات أسهل من الإبحار في مضائق المياه؟! إذن لماذا هذا التحدي وذلك التعنت؟!

القاصّون السعوديون عملوا على محو مقولة «نحن بلد نفطي فقط»

إن ما استشعرته في الأدباء السعوديين، شعراء أو قصّاصين، هو العمل الدؤوب على محو مقولة إننا بلد نفطي فقط، وأن ثقافتنا نفطية، فلذلك سارعوا إلى تجريب الكتابة في كل جنس من أجناس الأدب المتنوعة، الموروثة أو الوافدة. وكانت القصة القصيرة جداً من الأجناس الأدبية الوافدة التي أخذوا يجربون فيها إبداعهم خصوصاً وأن عمر هذا الجنس الأدبي في العالم العربي لا يزيد على ثلاثين عاماً.

ولجوء القاص السعودي إلى كتابة القصة القصيرة جداً لم يكن بدافع التجريب فحسب، إنما يضاف إليه دافعان آخران هما: الإبداع في هذا الجنس الأدبي والإضافة إلى الإبداع؛ وأقول الإضافة إلى الإبداع لأن الإبداع الإنساني فعل جماعي وليس فعلاً فردياً.

القصة القصيرة مثلاً بدأت على يد كاتب فرنسي ولكنها تطورت كثيراً من بعده، تطورت على أيادي كتاب عرب وأجانب، ولكن الدراسات النقدية المقارنة ضعيفة على مستوى العالم حتى تثبت صحة ما أقول.

الحذف الفني

القصة القصيرة جداً هي قصة الحذف الفني والاقتصاد الدلالي الموجز الحي وإزالة العوائق اللغوية والحشو الوصفي، إن هذا الإجراء التجريبي ليس إجراءً حسابياً رقمياً بأية حال من الأحوال وإلا كان نهايته الفشل في التجربة الكتّابية وفي الظفر بإبداع حقيقي؛ إنه إجراء فني تصنعه مهارة كتابية مؤصلة بخلفية لغوية ومقدرة على الخلق الفني والتعامل المبدع مع الفكرة. والثوب الواسع يمكن أن تجعله ضيقاً، أما الثوب الضيق فمن المحال إحالته إلى ثوب واسع إلا بإضافة مواد خام جديدة هي رقعٌ من أثواب أخرى وليس من الثوب نفسه، والذين يكتبون القصة القصيرة جداً بإجادة هم في الأصل كتاب قصة قصيرة وروائيون، أي أن المهارة السردية بمجملها موجودة لديهم، فهم مهيأون لشيء اسمه قص طال أو قصر!!

ومثلما كان الجاحظ يرى أن: «الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير»، فإن القص صناعة أيضاً، فيها الجيد وفيها الرديء، فيها ما أُحكم نسجه وصبغه، وفيها ما لم يُحكم نسجه وصبغه، ونقاد كل عصر أدبي تقع عليهم مسؤولية الفرز الأدبي، والكلية في النجاح البشري محالة فلا بدَّ من أخطاء فنية، والأخطاء تكبر عند كتّاب وتصغر عند كتّاب آخرين، وكتّاب القصة القصيرة جداً لدينا واعون ومثقفون جيداً ولكن ما ألاحظه هو وجود خلط في الكتابة بين قصيدة النثر وبين القصة القصيرة جداً، وحيرة لدى بعض الكتّاب في تسمية ما يكتبونه لدرجة أن بعضهم يجبنُ من أن يصنّف شكل إبداعه!!

المصبّح واللذة الفنية

وفي مجموعته القصصية الخامسة المعنونة بـ«الزجاج وحروف النافذة» ينحو القاص السعودي فهد المصبح منحى صعباً في الكتابة القصصية، حين اختار الكتابة في آخر أخبار السرد، أو آخر ما ابتكره القاصون في تجريبهم المستمر نحو الوصول إلى غاية اللذة الفنية وأقصى درجات الإمتاع ومنتهى الحرفية، فقصّ في هذه المجموعة اثنتين وعشرين قصة قصيرة من النوع الأحدث فنياً المصطلح على تسميته بالقصة القصيرة جداً والمرموز له (ق.ق.ج)، ليسجل لنفسه ريادة في هذا الجنس من أجناس السرد الأدبي المتعددة على مستوى وطنه المملكة العربية السعودية حيث ما زال القاصّون السعوديون الآخرون يتهيبون الخوض في غمار هذا الجنس الأدبي الجديد ويَحذرون الحذر الكبير من إشكالياته النقدية وتبعاته الذوقية المتعددة، ولم يزل أيضاً نقاد السرد الأدبي وقرّاء القصة العربية في تذبذب وتأرجح حول الاتفاق على جمالية هذا الشكل الأدبي، ومردّ تذبذبهم وتأرجحهم عائد إلى تناهي هذا الشكل الأدبي في الحجم أو الصغر، وإلى أركان وخصائص هذا الشكل التي قد تدفع بهم إلى وضعه في خانة من غير خانات القص وتحديداً في خانة الشعر. وساردُنا الذكي فهد المصبح وعى ذلك كله، فهيأ قلمه لهذا التحدي، وأسس نفسه تأسيساً نقدياً عالي القيمة باستيعاب ما كتب من نظريات ودراسات حول هذا الشكل الأدبي، وأشبع ذائقته إشباعاً واضح الأثر بقراءة ما كتبه الكتّاب العرب والأجانب في هذا الجنس السردي المتسّم بعدم الثبات تقنياً، فقدم بعد ذلك هذه المجموعة الفريدة فنياً التي تعد – في رأينا – أنموذجاً صالحاً للتعليم المدرسي وللشرح والتطبيق في كثير من قصصها!!

وحين نقرر فرادة هذه المجموعة فنياً فلا بدّ من أن نبرر ذلك تبريراً موضوعياً يبعدنا عن الانحياز إلى مؤلفها الذي اعتمد القصّ التقليدي المتفق عليه بين جمهور النقاد إطاراً عاماً في أغلب قصص هذه المجموعة، وشُغف كثيراً بإبراز عنصر الحدث القصصي – وهو العنصر الذي اهتمت به القصة القديمة على حساب سواه من العناصر القصصية الأخرى – وتلا ذلك في الشغف إبراز عنصر الشخصية الإنسانية حتى لا يفقد القصّ محوره الأساس، ولم يُعْنَ المؤلف إلا قليلاً بالعنصرين المكاني والزماني؛ ولكنه لم يهملهما الإهمال المخل بقواعد الفن القصصي، وفي داخل هذا الإطار العام إطار القصّ التقليدي أدخل وطبّق بمهارة فنية واضحة في أغلب قصصه أركان وخصائص القصة القصيرة جداً، فجاءت أغلب نصوص هذه المجموعة نسيجاً قصصياً محكماً احتوى عناصر القصة القصيرة بمفهومها القديم عند النقاد والقراء وعناصر القصة القصيرة جداً بمفهومها الحديث الذي لم يكتمل عند النقاد والقراء أيضاً، ومن أركان وعناصر القصة القصيرة جداً التي اعتنى المؤلف بإظهارها عناية قصوى في قصصه، تلك التي استخرجها الدكتور أحمد جاسم الحسين في كتابه «القصة القصيرة جداً» الصادر عن منشورات دار عكرمة بدمشق في العام 1997م، ورتبها من حيث الأهمية كالتالي: 1– القصصية 2– الجرأة 3– وحدة الفكر والموضوع 4– التكثيف 5– خصوصية اللغة والاقتصاد 6– الانزياح 7– المفارقة 8– الترميز 9– الأنسنة 10– السخرية 11– البداية والقفلة 12– التناص.

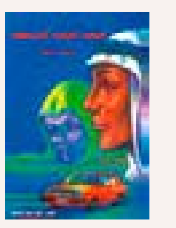
وقد تقصّيت وتتبعت وجود هذه الأركان والعناصر في مجموعة «الزجاج وحروف النافذة» فألفيتها متحققة بوفرة فيها، ولم يُسقط المؤلف إلا عنصر التناص وربما لصعوبة التحقق الفني لهذا العنصر الإشكالي المشاكس بطبعه، وأوغل المؤلف إيغالاً حسناً في تحقيق عناصر مثل القصصية، التكثيف، المفارقة، الترميز، السخرية، البداية والقفلة. وليس من الصواب أن يسعى أي مؤلف في هذا الجنس الأدبي إلى إتخام قصصه بهذه الأركان والعناصر الاثنتي عشر كلها؛ إنما لا بدّ من وجود نصفها على الأقل في القصة القصيرة جداً الواحدة، وله مشروعية الاختيار في الأركان والعناصر التي تلائم قصته دون إلزام بعناصر وأركان محددة على أن العنصر والركن الأهم وجوداً في أية قصة قصيرة جداً هو عنصر القصصية، ولا ننسى احتفاظ المؤلف وحرصه على وجود مكونات القصة القديمة (الشخصيات + الحدث + المكان + الزمان) في أية قصة يكتبها.

ومن قصص هذه المجموعة التي تجذب القارئ وتصيبه بالدهشة وتخلف في نفسه عمق الأثر وتدعوه ملياً إلى التأمل والتفكير قصتان اثنتان نراهما جديرتين بالتقديم، الأولى قصة «يداه تقطران حبراً» والثانية قصة «الزجاج وحروف النافذة» وهذه الأخيرة حملت عنوان المجموعة القصصية.

إقرا للمصبّح



- ولد القاصّ فهد المصبّح بالأحساء عام 1373هـ، ويعمل بالتدريس في مدينة الدمام.
- له حضور منبري في الفعاليات الثقافية ومشاركات في الصحافة المحلية وعضويات في مؤسسات أدبية رسمية.
- أصدر إلى الآن خمس مجموعات قصصية.



صاحب السيارة البرتقالية

صدرت عام 1408هـ – 1988م في 85 صفحة من القطع الكبير، واحتضنت 14 نصاً قصصياً تقاسمته مضامين إنسانية متنوعة، وتغلب عليها الوصفية السردية. وهذه المجموعة هي باكورة إنتاج المصبّح الذي عبّر فيها عن صوته المحافظ.

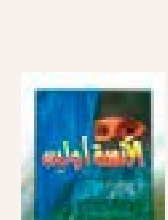


رداء الذاكرة

صدرت عام 1423هـ – 2002م عن دار الكنوز الأدبية في 84 صفحة شغلتها 13 قصة قصيرة عُنيت أكثر من غيرها بالحنين الجميل إلى البيئة الأولى. وكما أملى العنوان فإن الذاكرة أمدّت المجموعة بالكثير من الإيحاءات.

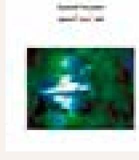
للدموع لغة أخرى

صدرت عام 1414هـ – 1993م عن نادي المنطقة الشرقية الأدبي، في 150 صفحة من القطع الكبير، واحتوت على 25 نصاً، ورسم غلافها الفنان عبدالرحمن السليمان. وقد سجّلت هذه المجموعة حساسية أكثر اهتماماً بالإنسان.



الآنسة أولين

صدرت عام 1418هـ – 1998م عن نادي جازان الأدبي، متضمنة 16 نصاً، حاول المصبّح أن يكون فيها أكثر تكثيفاً والتصاقاً بأبطال قصصه القادمين من هامش الحياة.



الزجاج وحروف النافذة

صدرت هذا العام عن نادي القصة السعودي بالرياض، في 55 صفحة من القطع الصغير، احتشدت فيها 22 قصة قصيرة جداً توزّعت على ثلاث مجموعات.



من قصص فهد المصبّح:

1: يداه تقطران حبراً

عندما تواجهه معضلة يفرُّ إلى الطرقات، حامداً ربه أن ساقيه سليمتان.. الجوع يسكن أمعاءه، فلا يدعه يقر في مكان.. داره لم يعد فيها ما يسد رمقه.. المطاعم لفظته إلى الطرقات.. كان الشارع طويلاً، المارة تسير بوهج الظهيرة الحارق.. وجد نفسه قريباً من مكتبة.. دخلها.. أخذ يتفرس محتوياتها.. وقعت عيناه على كتاب قديم يعرفه.. سحبه، وجلس على الطاولة، ثم أخذ يمزقه قطعاً.. عيون الموجودين تراقبه بدهشة، وهو يلتهمه بتلذذ.. صوتُ مضغه يثير الشهية.. صبي المكتبة أحضر له كوب ماء إشفاقاً عليه، فاكتملت المائدة.. في حين استدعى صاحب المكتبة الشرطة.. شاهدوه يجلس هادئاً.. الشكوك تسمه بلوثة.. أحاطوا به، وانهالت عليه الأسئلة:

- يدعي صاحب المكتبة أنك أكلت كتاباً؟

ابتسم قائلاً:

- وهل يعقل ذلك؟
- الصبي والحضور يشهدون بذلك.
- أين هم؟

كانت المكتبة قد خلت من روادها.. قال الشرطي بلهجة صارمة:

- سنجري لك فحصاً، وإن تبين صدق الشهود ستنال عقابك.
- لا تصدق كلام المجانين.
- بل أنت المجنون.

أخرج الشرطي القيد.. سحب يديه بقوة، وهو يحاول نفي التهمة عنه، وقبل أن يقيده كانت يداه تقطران حبراً.

2: الزجاج وحروف النافذة



كانت تمسح زجاج النافذة بفوطة وبخاخ مناظر، كلما داومت النظر في صفحة الزجاج تهيأ لها أنها غير نظيفة، فتعيد مسحها ورشّها بالرذاذ المتناثر، وتنظر.. تخترق نظراتها زجاج النافذة، متناثرة على أرض الشارع حيث صبية يلعبون بكرة أكبر من حجمهم.. أصواتهم تنبعث قوية، ومطارداتهم جادة.. تعاود المسح من جديد، والنافذة تئن، وهي لا تغيّر مكانها فكلما غادرته ما تلبث أن تعود إليه حتى دخل والدها، ورآها على تلك الحالة.. اقترب منها هامساً:

- ابنتي الزجاج يشف.
- هذه النافذة لا تريد أن تنظف.
- كيف؟
- كلما مسحتها عاودها الغبار.

دنا والدها من النافذة.. حدّق بإمعان، ثم ابتسم وهو يمد يده من الطرف الآخر ويغلقها، ثم انصرف.. عاد الهدوء إليها وهي ترى النافذة نظيفة.. تنفست بارتياح غير أن أصوات الأطفال لم تعد تراها رغم بقاء صورتهم النشطة في سمعها.

قول آخر..

شرقٌ وغربُ الكتابة الساخرة

حسن السبع

مثلما يغلَّفُ قرص الدواء بطبقة رقيقة من السكَّر ليسهلَ تناوله، تُغَلَّفُ حدة ومرارة التعبير عن الواقع بمسحة فكاهية تجعل النصَّ أكثر قبولا من أسلوب الخطاب الوعظي الجاف. هكذا تأتي الكتابة الساخرة مزيجاً من المرارة والدعابة تخفف عبءَ التوترات وتلطف حمى الانفعالات النفسية المرهقة، أو هكذا تأتي مُرَكَّبا اختصره المتنبي بقوله: «ولكنه ضحك كالبكاء».

وعلى الصعيد الثقافي العربي فقد أُهْمل تاريخ الكتابة الساخرة إلى حدّ الإجحاف، واحْتُفيَ بتَاريخ الكتابة الجادة إلى حدِّ الإسفاف، مع أن التَراث زاخر بروائَع هذا اللون الأدبي شعراً ونثراً. لقد أثرى أبو عثمان الجاحظ المتميز برشاقة أسلوبه ومرارة سخريته التراثَ العربي بفيض من روائعه الساخرة، ومنها كتابه البخلاء، وفيه تعريفٌ بفلسفة الضحك، ورصدٌ لأخبار البخلاء، وتصويرٌ لطباعهم وعاداتهم. ومنها، كذلك، رسالة «الجد والهزل». أما رسالة «التربيع والتدوير» فتصويرٌ كاريكاتوري ضاحك لنماذج بشرية تتواجد في كل عصر ومصر، وإن كانت شخصية أحمد بن عبد الوهاب هي الهَدف المباشر لذلك الكاريكاتور اللغوي الساخر.

ومقامات بديع الزمان الهمذاني تحفة نثرية رائعة، مع رشاقة في الأسلوب، وفكاهة وسخرية لاذعة. وأول ميزة لبديع الزمان - كما يرى زكي مبارك - أنه يُشعرك بفهمه للحياة، فهو «يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الإنسانية، ويطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزماتك لو درستَ نفسَك وتطلعتَ إلى وجدانِك».

وقد تجاوز أبو العبر بعبثه واقتحامه فضاء اللا معنى معاصريه، وذلك بتوظيف الارتجال والمصادفة لتخليق ذلك العبث الهازل، ولعل ذلك تعبير عن عبثية التناقضات التي يزخر بها المجتمع البغدادي آنذاك. كان يقف على الجسر ليكتب ما يسمعه من كلام المارة من الملاحين والمكارين وغيرهم حتى يملأ وجهي القرطاس، ثم يقطع القرطاس بالعرض، ويلصقه مخالفاً، «فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه» كما يقول.

ولم يكن هذا اللون الأدبي وقفاً على أدباء المشرق العربي، فقد برع فيه كتّاب المغرب والأندلس كذلك. وإذا كان بديع الزمان قد كتب المقامة الإبليسية فقد أفرد ابن شهيد الأندلسي عملاً سردياً منسوجاً على ذلك المنوال في رائعته المعروفة «الزوابع والتوابع». وإذا كانت شخصية أحمد بن عبد الوهاب موضوعَ رسالة التربيع والتدوير، فقد كانت شخصية ابن عبدوس موضوعَ «الرسالة الهزلية» لأديب الأندلس ابن زيدون. وهي رسالة زاخرة بالفكاهة العذبة والسخرية اللاذعة. ويلاحظ بعض النقاد تأثر ابن زيدون في هذه الرسالة بالجاحظ أسلوباً ومنطقاً. بل ويذهب بعضهم إلى أنه واقع تحت تأثير كتَّاب مشارقة آخرين مثل أبي إسحاق الصابي وبديع الزمانً الهمذاني. إن قائمة الكتّاب العرب الساخرين حافلةٌ بأسماء كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة. أما الكتابة الشعرية الساخرة فحديثها يطول لولا أن موضوعنا هو النثر الساخر.

وللنثر الساخر في الأدب الغربي مبدعوه الكبار، ممن جُبلوا على النظر إلى الأشياء بعين الفكاهة، وتعهدوا هجَاء القبح «والذهاب به حتى التشَوه، والانتقال من المشوَّه إلى المضحك» كما يعبر برغسون. ومن هؤلاء سرفانتَس مؤلف رواية «دون كيخوته».

أما سخرية فولتير فلم تقتصر على المساوئ الاجتماعية وحدها بل تجاوزتها إلى نقد الذات، شأنه في ذلك شأن الجاحظ. وفي عبارة مطعَّمة بالسخرية يقول فولتير عن نفسه: «لقد اضطهدونيً أكثر مما أستحق»! وتعتبر رواية (كنديد) نقداً اجتماعياً وسياسياً وهجاءً مقذعاً لكثير من القيم الأوربية السائدة آنذاك. كاتب آخر سخر من مساوئ عصره ودافع عن الحريات والقيم الجميلة حتى حصل على لقب «فولتير أمريكا» هو مارك توين.

أما الكاتب الروسي تشيخوف فهو أخف كتّاب القصة الروسية ظلاً. تتميز أعماله القصصية بالحس الساخر، وبالقدرة على تصوير كثير من شخوص قصصه تصويراً كاريكاتورياً معبِّراً. ويرى الأديب الروسي كورولونكو أن صفة «السوداوي المرح» التي أطلقها بوشكين على جوجول وصفٌ دقيق لكنه ينطبق على تشيخوف كذلك. أما مكسيم جوركي فيقول عنه: «كان يمقت كل ما هو مبتذل وقذر، ويصف كل حقارات الحياة بلغة نبيلة شاعرة لشاعر، وبضحكة ناعمة لفكاهي.. وفي كل قصة قصيرة من قصصه الفكاهية أسمع آهة خافتة عميقة من قلب نقي إنسانيٍّ حقا».

كتابات هازلة من الشرق والغرب لكنه «هزل في غوره الجد». هزل يحاول تقويم ما اعوَجَّ من الطباع، وشذَّ من العادات، وانحرفَ من الممارسات.

بالقهوة أو الشاي نستقبل النهار، وبهما نلاقي الأحبة والضيوف. في حضرة الفنجان يدور الكلام حول مختلف شؤون الحياة. يقال إن القهوة هي المشروب الثاني في العالم بعد الماء. وأنصار الشاي يدّعون العكس. ولكن الطرفين يتفقان على أن الفنجان الصغير سواء أكان فيه قهوة أم شاي هو الواحة التي نسترخي حولها لنفكر ونتأمل ونتكلم..

قهوة أم شاي

ملف العدد

قهوة أم شاي؟

تختلف طرق إعداد القهوة والشاي وتتنوع بتنوع شعوب الأرض وثقافاتها. ولكن العالم بأسره يُجمع على إيلاء القهوة والشاي مكانة خاصة من بين كل ما يستهلكه، ويحافظ على تقاليد التعاملِ مع هذين المشروبين إعداداً واستهلاكاً، ويورثها من جيل إلى جيل في الصندوق الذي يضم خبراته ومزاجه ونمط حياته.

فكيف بدأت حضارة القهوة والشاي؟ ومن أين؟ وما هي أبرز معالمها؟ وما هي المضار والفوائد التي يدور الحديث عنها بين الحين والآخر؟ الجواب في هذه الرحلة التي أعدها فريق تحرير القافلة..

القهوة.. هدية العرب إلى العالم

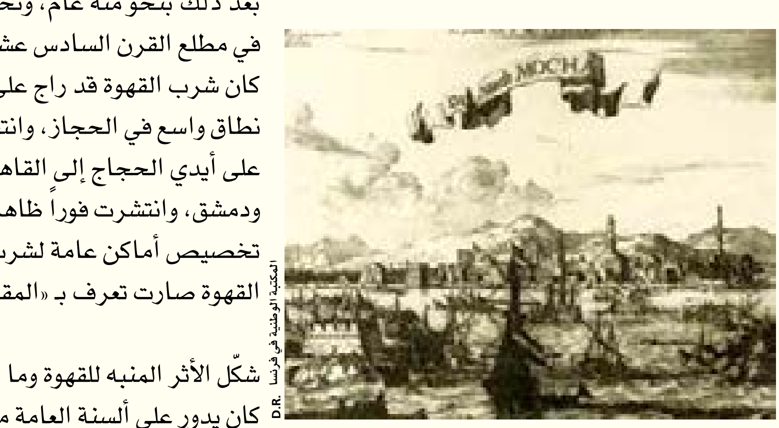
كما هو الحال بالنسبة إلى كل الاختراعات والاكتشافات الكبرى في تاريخ الإنسانية، لا بد وأن يبدأ تاريخ القهوة بحكاية أسطورية.

تقول الأسطورة، أنه في قديم الزمان عاش في جبال الحبشة راعي ماعز يُدعى كلدي، ولاحظ هذا الراعي أن ماشيته تصبح أكثر نشاطاً وحيوية حتى أنها لا تنام عندما تأكل ثمار نوع معين من الأشجار البرّية.. ونقل هذا الراعي ملاحظته إلى شخص كان يشكو إليه عدم قدرته على السهر ليلاً، فكان ذلك الاكتشاف الأول لثمار شجرة البن وأثرها المنبه والمنشط على من يتناولها.

ولكن تاريخ القهوة المدوّن يبدأ في ديار العرب. فقد كان الطبيب العربي الرازي (852 – 932هـ) أول من ذكر «البن» و«البنشام» في كتابه الطبي «الحاوي»، والمقصود بهاتين الكلمتين ثمرة البن والمشروب. ولكن كتاب الرازي ضاع بمرور الزمن، وبقيت لنا شهادة على ذلك عند الذين نقلوا عنه. أما أقدم نص في العالم وصل إلينا، ويتحدث عن القهوة فهو كتاب «القانون في الطب» للعالم الشهير ابن سينا (980 – 1037هـ)، والذي يتضمن في فصله الخامس جدولاً بنحو 760 دواءً من بينها «البن» و«البنشام».

المؤكد أن البن كان ينبت برياً في الحبشة وبعض أجزاء اليمن حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وفي وقت غير محدد بدقة في ذلك الزمن اكتشف اليمنيون أن عملية تحميس بذور البن وسحقها تسمح لها بتحرير أفضل لنكهتها وطعمها في الماء المغلي.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي سُجِّل في اليمن أول استعمال غير طبي للبن. ومن المرجح أن زراعته بدأت آنذاك لتلبية الحاجة المتزايدة إليه.


ميناء المخا في اليمن، حيث كان يشحن البن إلى هولندا، ومنه اشتق اسم نوع من أنواع القهوة «الموكا».


ميناء أمستردام في هولندا، حيث كان يوزع البن إلى جميع أنحاء أوروبا

بعد ذلك بنحو مئة عام، وتحديداً في مطلع القرن السادس عشر كان شرب القهوة قد راج على نطاق واسع في الحجاز، وانتقل على أيدي الحجاج إلى القاهرة ودمشق، وانتشرت فوراً ظاهرة تخصيص أماكن عامة لشرب القهوة صارت تعرف بـ «المقاهي».

شكّل الأثر المنبه للقهوة وما كان يدور على ألسنة العامة من مبالغات حول تأثيراتها الجانبية مسألة أثارت حذر العلماء، فأفتى بعضهم في مكة المكرمة عام 1511م (917هـ) بتحريمها، وإقفال دور تعاطيها. ولكن التحريم لم يدم أكثر من عام، إذ أن الأبحاث المتأنية التي قام بها العلماء لاحقاً في الحجاز والقاهرة أكدت لهم أن مساوئ القهوة ليست على مستوى من الخطورة يوجب تحريمها، فأصدر السلطان قانصوه الغوري الذي واجه الإشكال نفسه في مصر مرسوماً يمنع بعض أشكال شرب القهوة والدوران بها في الأسواق، ولكنه لم يمنع تعاطيها بالكامل.

في العام 1554م، وصل إلى اسطنبول رجلا أعمال سوريان أحدهما يُدعى حكم من حلب والثاني شمس من دمشق، وافتتحا أول مقهى «كهفي خانة»، روعيت فيه مظاهر الأبهة والفخامة. وعلى الرغم من الجدل الذي دار في اسطنبول أيضاً حول شرعية هذه الأماكن ومحاربتها أحياناً من دون هوادة، انتشرت المقاهي هناك انتشار النار في الهشيم. إذ يشير المؤرخ الفرنسي مورادجيا دوسون إلى أنه بحلول العام 1570م كان عدد المقاهي في اسطنبول قد وصل إلى نحو ستمائة مقهى!

حتى آنذاك، كانت القهوة من سمات الحياة اليومية في العالم الإسلامي فقط. أما أوروبا فراحت تكتشفها على مراحل من خلال محورين.

المحور الأول كان من خلال اتصال التجار الهولنديين بالشرق. ففي العام 1609م، سُجِّل أول اتصال أوروبي بالبن وتجاره من خلال «شركة الهند الشرقية» الشهيرة في مرفأ يمني أعطى اسمه لاحقاً للبن «المخا». وبعد ذلك بسبع سنوات حصل التاجر الهولندي بيتر فان در بروك على بضع غرسات بن صغيرة من اليمن ونقلها إلى أمستردام لزراعتها وإكثارها.

وفي عام 1658م بدأ الهولنديون بزراعة البن في سيلان (سري لانكا) بهدف بيعه في الأسواق الإسلامية وليس لاستهلاكهم الذاتي.

أما المحور الثاني فكان من اسطنبول باتجاه أوروبا. إذ حمل قره محمد، سفير السلطان العثماني محمد الرابع، عادة شرب القهوة إلى ڤيينا حيث أطلع عليها الأرستقراطية النمساوية سنة 1665م. وبعد ذلك بأربع سنوات قام سفير عثماني آخر هو سليمان آغا بتعريف الباريسيين على القهوة وطريقة تحضيرها وشربها. ولم ينقض القرن السابع عشر الميلادي إلا وكانت المقاهي قد قامت في كل العواصم الأوروبية، وراج المشروب الأسود الجديد لدى جميع الطبقات، وصار جزءاً من الحياة اليومية. حتى أن الموسيقار جوهانس سيباستيان باخ ألّف سنة 1734م «أغنية القهوة».

في العام 1780م، أصبحت فرنسا المنتج العالمي الأول للبن بفضل زراعتها له في جزر الأنتيل. وفي العام 1839م وضع الروائي الفرنسي بلزاك الذي كان مفرطاً في شرب القهوة كتابه الشهير «المنبهات الحديثة».

محطات في تاريخ القهوة

- **850م**، أول دليل على القهوة في أسطورة الرجل الأثيوبي
- **1100م**، زراعة البن في جنوب الجزيرة العربية
- **1300م** تقريباً، أول استعمال غير طبي للقهوة في اليمن
- **1510م**، انتشار شرب القهوة في الحجاز
- **1554م**، افتتاح أول مقهى في اسطنبول
- **1609م**، أول اتصّال أوروبي بالبن في مرفأ «المخا» اليمني
- **1650م**، افتتاح أول مقهى في أوكسفورد على يد يهودي لبناني
- **1658م**، الهولنديون يزرعون البن في سيلان (سري لانكا)
- **1665- 1685م**، انتشار المقاهي في أمستردام، باريس، البندقية وڤيينا
- **1715م**، الفرنسيون يبدأون بزراعة البن في جزر الأنتيل
- **1734م**، الموسيقار باخ يؤلف «أغنية القهوة»
- **1819م**، الألماني روتج يكتشف في البن مادة الكافيين وخصائصها
- **1839م**، الروائي الفرنسي بلزاك يؤلف كتابه «المنبهات الحديثة»
- **1900م**، البرازيل تنتج لوحدها 90% من البن في العالم
- **1901م**، اختراع البن سريع الذوبان في الولايات المتحدة
- **1970م**، انتشار القهوة في اليابان!

تركي يشرب القهوة في رسم لدوفور يعود إلى العام 1685م

وتحركت زراعة البن من بعض المواقع إلى أخرى. ففي سنة 1727م قام لصوص بسرقة بعض شتلات البن من غوايانا الفرنسية ونقلوها إلى البرازيل البرتغالية حيث زرعوها هناك. وفي سنة 1900م صارت البرازيل تنتج وحدها نحو ٩٠ في المئة من محصول البن عالمياً.

وشهد عالم القهوة في القرن العشرين ابتكارات تصنيعية عديدة، من أبرزها اختراع البن السريع الذوبان في الولايات المتحدة سنة 1901م على يد مهندس ياباني يُدعى سارتوري كاتو. واخترعت سيدة ألمانية تُدعى ميليتا بانز المصفي الورقي للقهوة والشاي سنة 1908م. وفي سنة 1948م اخترع إيطالي يُدعى أشيلي غاجيا كان يعمل مستخدماً في أحد مقاهي ميلانو أول آلة حقيقية لصنع قهوة «الاكسبرسو».

القهوة في التراث الشعبي العربي في صورة تعود لبدايات القرن الماضي

والشاي.. من الصين

يختلف تاريخ الشاي عن تاريخ القهوة. فهو أقدم عهداً بكثير من القهوة، ومسيرة انتشاره كانت أبطأ.

إن الشاي الذي نشربه اليوم لا يختلف كثيراً عن ذاك الذي شربه الإمبراطور الصيني شين-نونغ سنة 2737 ق. م. إذ تقول الأسطورة - وهنا أيضاً توجد أسطورة - إن الإمبراطور كان يغلي الماء قبل شربه لأنه لاحظ أن الذين يشربون الماء المغلي يمرضون أقل من الذين يشربون مياه الآبار. وذات مرة حملت الريح بضع وريقات شاي وأسقطتها في الوعاء. ولما لاحظ الإمبراطور تغيّر لون الماء ورائحته، دفعه الفضول إلى تذوقه. فكان بذلك أول من شرب الشاي في التاريخ. لم يصلنا من ذلك الزمن أي نص مكتوب يتحدث عن الشاي، ولكن صينيين عاشوا بعد ذلك بقرون عديدة نسبوا إلى هذا الإمبراطور اكتشافه للعديد من صفات الشاي على الصعيد الطبي كمنبه وملطف للمزاج ومطهّر.

في القرون الأولى من عمر الشاي في الصين كانت نبتته تسمى «تو» (t'u)، ولكن في وقت ما من حكم سلالة هان (206 ق.م. - 24م) تغيّرت هذه التسمية لتصبح «تشا» (t'cha). ومن المرجح أن هاتين الكلمتين هما أصلا تسمية الشاي بالإنجليزية «تي» وبالعربية «شاي»، أو «شاهي» كما هو رائج في الحجاز، أما في المغرب فيسمى «أتاي».

ومن الصين انتقل الشاي إلى اليابان في القرن السابع الميلادي. وفي العام 1484م أطلق الشوغون يوشيماسا عادة شرب الشاي يومياً. وفي القرن التالي وضع ريكيو سن تقاليد طقوس شرب الشاي التي لا تزال تمارس حتى يومنا هذا.

بقي الشاي محاصراً في شرق آسيا حتى القرن العاشر الميلادي، حينما عرفه العرب عنهم. ولكن لم يصلنا أي دليل على أنه راج في بلاد العرب آنذاك لدواع غير طبية. أما الأوروبيون فلم يسمعوا بالشاي إلا بعد العرب بنحو ستة قرون، من رحالتهم الشهير ماركوبولو. وأقدم ذكر للشاي في أوروبا يعود إلى العام 1559م في كتاب وضعه أحد البنادقة بعنوان «مغامرات الرحالة في الماضي والحاضر».

وفي مطلع القرن التالي حملت إحدى السفن التجارية الهولندية شحنة صغيرة من أوراق الشاي من ماكاو إلى أمستردام، فكان ذلك أول دخول للشاي إلى الغرب.

بشكل عام، يمكن القول أن وصول الشاي والقهوة إلى أوروبا تم في عصر واحد، وبفارق سنوات معدودة بين هذا وذاك. غير أنه كان للشاي مساره المختلف. فقد وصل الشاي إلى إنجلترا بعد القهوة بعشر سنوات تماماً. وكان ظهوره في بادئ الأمر خجولاً، وأول ما بيع منه كان في مقهى توماس غارواي سنة 1660م. أما وصول الشاي إلى البلاط الإنجليزي فقد حصل بعد ذلك بسنتين عندما تزوج الملك تشارلز الثاني من الأميرة كاترينا دي براغانزا ابنة ملك البرتغال.

حملت الأميرة البرتغالية من بلادها «أفخم جهاز عروس» عرفته الأسر المالكة في أوروبا آنذاك. ومن ضمنه صندوقاً يضم كمية كبيرة من أوراق الشاي، لتنطلق في البلاط الإنجليزي ومن بعده في كل قصور الأرستقراطية عادة شرب الشاي. واستطراداً، نشير إلى أنه يعود إلى هذه الأميرة الفضل في تعريف الإنجليز على السكر الذي حملت معها أكياساً منه لاستخدامه في تحلية الشاي.

تعتبر إنجلترا البلد الأوروبي الوحيد الذي انتصر فيه الشاي على القهوة. ولكن ذلك لم يحصل فوراً بل بعد قرن من الزمن. ففي القرن الثامن عشر الميلادي حصل أمران منفصلان عن بعضهما ولكنهما تضافرا في تأمين الغلبة للشاي حتى النصف الثاني من القرن العشرين.


صيني يشرب الشاي في رسم لدوفور يعود إلى العام 1685م

فقد راح الأرستقراطيون يتذمرون من المقاهي ويهجرونها لأن القروش القليلة في جيب الفلاح أو العامل أو أي كان، صارت تسمح له بدخول المقهى والجلوس بجوارهم.. وسمح لهم المشروب الجديد في تدعيم تمايزهم عن العامة التي تشرب القهوة.

ربط الإنجليز تناول الشاي بالمناسبات الاجتماعية أكثر من أي شعب آخر. حتى أن كلمة «تي» بالإنجليزية أخذت منذ سنواتها الأولى هناك إضافة إلى معنى النبات والمشروب، معنى أية مناسبة اجتماعية يقدم فيها الشاي. وعادة شرب «شاي العصر» تعود إلى سيدة من الأرستقراطية تدعى آن أوف بدفورد (1788 - 1861م) التي أسست نظام لقاءات اجتماعية يومية عند الخامسة عصراً يقدم فيها الشاي والبسكويت المرافق. وبحلول سنة 1880م كان اختراع آن أوف بدفورد قد أصبح عادة يومية عند جميع السيدات من مختلف الطبقات، وانتقل أيضاً إلى الرجال في الأندية الخاصة والمنازل على حد سواء، رغم المعارضة الأولية التي واجهها هذا التقليد، لما كان يشاع عنه آنذاك أنه مناسبة اجتماعية للقيام بأمور غير أخلاقية.

وبشكل عام، يمكن القول إن الشاي بقي منتصراً على القهوة وإن بصعوبة حتى القرن العشرين في ثلاثة أماكن: الشرق الأقصى، وبعض البلاد العربية، وإنجلترا. ويرد علماء الاجتماع هذا الاختلاف إلى تمايز في الهوية الخاصة بكل من هذين المشروبين. بدليل أن المجتمعات التي انتصرت للشاي هي عموماً مجتمعات محافظة، تميل إلى الهدوء والبطء في حركتها ويهمها التأمل أكثر من الكلام الذي هو من السمات المزاجية المصاحبة للقهوة الحادة المذاق ذات اللون الأسود والمحتوى الكثيف.


الشاي في اليابان: لتناوله طقوس خاصة

محطات في تاريخ الشاي

2737ق.م.، الإمبراطور الصيني شين نونغ يكتشف الشاي صدفة

222م، أقدم نص صيني وصل إلينا ويتضمن ذكرا للشاي

805م، وصول الشاي إلى اليابان للاستعمال الطبي

1484م، الشوغون يوشيماسا يطلق في اليابان عادة شرب الشاي

1559م، أول ذكر للشاي في أوروبا في كتاب «مغامرات الرحالة في الماضي والحاضر»

1657م، بداية بيع الشاي في إنجلترا

1662م، الأميرة البرتغالية كاترين دي براغانزا تعرّف البلاط الإنجليزي على الشاي

1768م، شركة الهند الشرقية تشحن إلى إنجلترا 10 ملايين رطل إنجليزي من الشاي

1840م، الدوقة آن أوف بدفورد تؤسس عادة شرب الشاي عصراً في إنجلترا

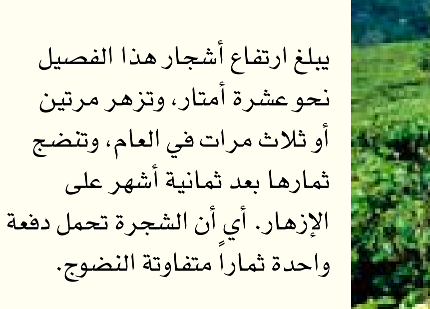
1849م، تاجر الشاي هنري شارلز هارود يشتري محلا للبقالة، ليتحول لاحقا إلى واحد من أشهر المتاجر الكبرى في العالم

1890م، توماس ليبتون يدخل تجارة الشاي بهدف بيعه بسعر تنافسي في المتاجر الثلاثمائة التي كان يملكها

1904م، ظهور الشاي في الكيس (من قماش الموسلين) وبداية تصنيعه على يد أميركي يُدعى توماس سوليفان

القهوة والشاي من الحقول إلى الفناجين

في الحقول



يوجد في العالم فصيلين رئيسين من أشجار البن. أفضلهما وأشهرهما ما يزرع اليوم في البرازيل وجنوب شرق آسيا وجنوب الجزيرة العربية، ويعود أصله كله إلى الشتلات التي استحوذ عليها الأوروبيون من اليمن، ولذلك يحمل هذا الفصيل اسم Coffea Arabica.

يبلغ ارتفاع أشجار هذا الفصيل نحو عشرة أمتار، وتزهر مرتين أو ثلاث مرات في العام، وتنضج ثمارها بعد ثمانية أشهر على الإزهار. أي أن الشجرة تحمل دفعة واحدة ثماراً متفاوتة النضوج.

تشبه ثمرة البن إلى حد ما الكرز، وتتألف من قشرة سميكة، وبذرة بيضاوية منقسمة إلى شطرين يخترق كل واحد منهما تجويف عامودي، وفيها يكون لون القشر أحمر عند النضوج، ولون البذور أخضر شاحباً.

القطاف: من أشجار البن الثمر، ومن الشاي أوراقه

والفصيل الثاني يدعى Coffea) Rubusta Canephora Pierre) ويمكن لأشجاره أن تبلغ 15 متراً في ارتفاعها، وتحمل ثماراً أكثر عدداً من الأولى ولكن أصغر حجماً. وينتشر هذا النوع في غرب إفريقيا الاستوائية بشكل خاص.

أما الشاي الذي يوجد منه في العالم نحو ثلاثة آلاف نكهة مختلفة، فيعود إلى شجرة واحدة.

تنبت شجرة الشاي في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية بدءاً من مستوى البحر وحتى ارتفاع 8000 قدم. غير أن أفضل أنواعها هو ما ينبت في المرتفعات حيث ينمو ببطء كما هو الحال في منطقة دارجيلنغ في شمال شرق الهند، التي تنتج واحداً من أغلى أنواع الشاي في العالم.

ويأتي 70 في المئة من الشاي الذي يستهلكه العالم حاليا من الهند وإندونيسيا وسيريلانكا وكينيا والأرجنتين ومالاوي والصين.

يبلغ ارتفاع شجرة الشاي حوالي المتر ونصف المتر تقريباً، وهي دائمة الخضرة، تحمل وريقات يتراوح طولها ما بين خمسة وعشرة سنتيمترات، ولا تقطف أوراقها إلا بعد عامين على غرسها، فمن الشاي نستهلك الأوراق، ومن القهوة الثمار.

الطريق الطويل إلى الفنجان الصغير

ونبدأ بالشاي لأنه أقل تعقيداً، فبعد قطاف الشاي تنثر أوراقه على حصر من القش لتذبل وتجف قليلاً. وهنا تسلك هذه الأوراق الذابلة واحداً من طريقين: الأول ويمر بتخميرها قليلاً قبل تجفيفها وتحميسها لإنتاج الشاي الأسود. والثاني يتجه إلى التجفيف والتحميس الفوري من دون تخمير لإنتاج الشاي الأخضر.

وبوصول أوراق الشاي مفرومة وموضبة في علب أو أكياس إلى منازلنا، فإن المبدأ الأساس في تحضير المشروب هو واحد أينما كان في العالم. ويقوم على صب الماء المغلي على الشاي لاستخلاص ما فيه من مواد ونكهة، وإضافة ما يشاءه المستهلك من عطور ومواد تحلية.

أما التفاصيل فتتضمن بعض الزخارف التي لا بد من أخذها بالحسبان. فجودة مشروب الشاي ترتبط بالوقت الذي يستغرقه نقعه في الماء الساخن، والذي لا يجب أن يقصر أو يطول عن اللازم. والمعدل الوسطي للوقت الذي يتطلبه نقع الشاي هو حوالي الدقيقة الواحدة. أما إكثار كمية الشاي بهدف الإسراع بنقعه فإنه لا يعطي النتيجة المثالية، لأن الشاي يحرر محتوياته على مراحل، ومعنى هذا أن ربع دقيقة مثلاً لا تكفي لتحرير كافة محتوياته، بل بعضها فقط، حتى ولو أصبح لون المشروب داكناً.

ويمتاز الشاي عن القهوة بأنه سريع الالتقاط للروائح، فالعاملون في قطافه يولون النظافة أهمية قصوى. فهم يعتنون بغسل أيديهم، ويلبسون القفازات، ولا يستعملون أي نوع من العطور، وأكثر من ذلك فهم يتجنبون تناول الأطعمة ذات الرائحة

القوية كي لا يلتقطها المحصول. وفي منازلنا يعرف الكثيرون أن الشاي يجب أن يحضر من مياه الشرب. والأفضل استعمال المياه المعبأة في قناني من ينابيعها من دون معالجة كيميائية، لأن وجود الكلور المعقم في مياه الشفة الجارية يظهر بوضوح في مشروب الشاي ويفسد نكهته.

حساسية الشاي في التقاط الروائح وإظهارها هو ما جعله المشروب الأكثر قابلية للتعطير، إما بالزهور التي تمزج به خلال عملية إعداده مثل الياسمين والبنفسج وزهر الليمون، وإما بالعطور التي تضاف إليه خلال التحضير مثل النعناع وعود العنبر والقرنفل وغير ذلك.

أما القهوة..
تحتاج الإحاطة بكل أشكال تحضير مشروب القهوة إلى مجلد ضخم. ولذا سنكتفي هنا بالحديث عن بعض الأسس المشتركة والإشارة إلى سعة العالم الخاص بتحضير القهوة.

تبدأ مسيرة القهوة من الحقل إلى الفنجان بفصل نواة الثمر عن قشرها. والإثنان يستهلكان بالطريقة نفسها. فهناك قهوة البذور الشائعة عالمياً، وقهوة القشور التي راجت في الماضي ولا تزال رائجة في بعض أماكن جنوب الجزيرة العربية والبرازيل.

المبدأ الأساس في تحضير فنجان قهوة يقوم على تحميس بذور البن، وطحنها، واستخراج محتويات المسحوق ونكهته بالماء المغلي. ولكن كيف؟

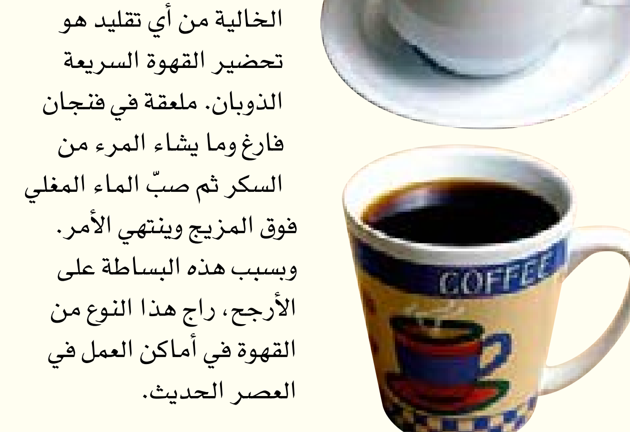
بألف طريقة وطريقة للحصول على ألف مذاق ومذاق. فلكل شعب من شعوب الأرض طريقته الخاصة في صنع القهوة، وتختلف هذه الطرق ما بين مدينة وأخرى. وتترافق عدة طرق أحياناً في المكان الواحد أو المقهى الواحد.

تبدأ الاختلافات في المذاق والأذواق عند تحميس بذور البن في وعاء معدني فوق نار خفيفة. ففي الجزيرة العربية هناك ميل إلى التحميس الخفيف جداً بحيث يبقى لون المشروب مائلاً إلى الصفرة. وهناك أيضاً التحميس المتوسط الذي يحوّل لون البذور من الأخضر الشاحب إلى البني الفاتح ويسمى «الأشقر». وهناك التحميس القوي الذي يحوّل البذور إلى لون بني داكن أقرب إلى السواد.

ثلاثة مستويات من تحميس البن

وبعد التحميس تطحن البذور، وللناس هنا أيضاً مذاهب مختلفة. فالمسحوق الخشن قليلاً هو لقهوة «الاكسبرسو»، والناعم كالدقيق للقهوة «العربية»..

في الماضي، وخاصة في عالم القهوة العربية، كان تحضير مشروب القهوة يبدأ بتحميس البن وينتهي بشربه في جلسة واحدة يقوم بكل مراحلها شخص واحد حسب تقاليده وذوقه وذوق جماعته. أما اليوم فصار البن جاهزاً للمرحلة الأخيرة أي الغليان، وفي أشكال ترضي مختلف الأذواق. وما علينا إلا أن نتطلع إلى التنوع الكبير في أنواع البن المعروضة أمامنا في المتاجر لندرك مدى تشعب عالم تحضير القهوة. ويزداد هذا التشعب بانتقال النوع الواحد من البن المسحوق إلى بيوتنا أو مقاهينا.



أبسط أشكال تحضير القهوة الخالية من أي تقليد هو تحضير القهوة السريعة الذوبان. ملعقة في فنجان فارغ وما يشاء المرء من السكر ثم صبّ الماء المغلي فوق المزيج وينتهي الأمر. وبسبب هذه البساطة على الأرجح، راج هذا النوع من القهوة في أماكن العمل في العصر الحديث.

أما أكثر أشكال تحضير القهوة شيوعاً في البلاد العربية (وصولاً إلى أوروبا الشمالية والشرقية) فهو الغلي على الطريقة المسماة بـ «التركية»، حيث يُغلى الماء ثم يضاف إليه



تنويعات ونكهات لا حصر لها من القهوة والشاي في المتاجر

مقدار معين من البن المحمص والمطحون، ومن ثم ما يشاء الشارب من السكر. وتحرك القهوة عند غليانها مرات عديدة كي تذوب الثنوة (القشدة) التي تظهر على سطحها، وتترك في دلتها أو ركوتها لنحو دقيقتين كي تترسب الحثالة في أسفلها، ومن ثم تصب في الفناجين.

ومن طرق تحضير القهوة التي شاعت عالمياً في القرن العشرين «الاكسبرسو». وهذا النوع رائج في المقاهي لأنه يعتمد على آلة كبيرة الحجم نسبياً غير مرغوبة في المنازل، وهو يقوم على وضع مسحوق البن في مصفى معدني، ووضع المصفى في الآلة التي تضخ، تحت ضغط البخار، الماء المغلي، الذي يمر عبر المصفى مستخلصاً في طريقه خواص البن ونكهته.

أما أعرق طرق تحضير القهوة وأكثرها إمعاناً في التقاليد وأطولها وقتاً فهي بلا شك طريقة تحضير القهوة العربية.

تستحيل الإحاطة هنا بكل طرق تحضير القهوة العربية وتقاليدها. ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أن شخصاً واحداً يتولى دفعة واحدة تحميس البن ودقّه وغلي القهوة في جلسة طويلة جداً للحصول على القهوة لمرة واحدة.

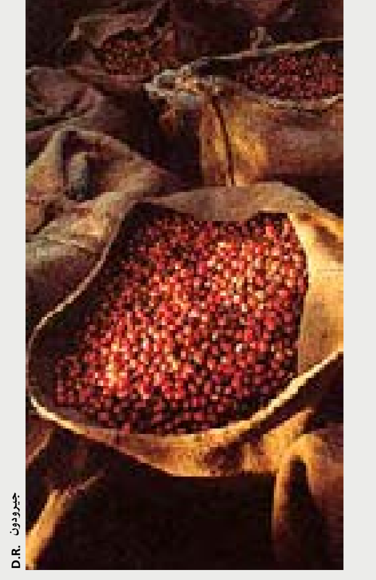
ودق بذور القهوة في المهباش يعتبر بحد ذاته عملاً قائماً بذاته. ويفترض وجود موهبة فنية عند القائم به، لأن المهباش الخشبي ليس مجرد أداة لدق بذور القهوة فقط، بل ارتقى بمرور الزمن إلى مستوى الآلة الموسيقية بسبب الإيقاع الصوتي الجميل للمدقة على الجرن الخشبي. ولذا يتخذ دق البن في المهباش بُعداً جمالياً يفرض على القائم به أن يكون فناناً ذا سمع مرهف، وليس مجرد صاحب زند مفتول لا يتعب من الدقّ.

ويكفي لتأكيد حجم التعقيدات التحضيرية أن نشير إلى أن القهوة العربية تُغلى عدة مرات في دلال مختلفة الأحجام من الأكبر إلى الأصغر. وعدد الدلال التي يحتاجها تحضير القهوة هو ثلاث على أقل تقدير، وقد يصل إلى ثمان عند المهتمين والذواقة.

وتزداد طقوس القهوة العربية تعقيداً عندما نصل إلى تعطيرها بالهال، وفي أية مرحلة من مراحل طبخها، ومتى يستعمل الهال، مسحوقاً أو حبات كاملة.. أما آداب تقديم القهوة فتبدأ بالكمية التي يجب أن تكون قليلة في الفنجان، كي يشرب الضيف عدة مرات، وليس دفعة واحدة، الأمر الذي قد يساء فهمه على أنه رغبة في أن ينصرف من المجلس بسرعة، ولا تنتهي عند طريقة تناول الضيف الفنجان ومن أين يجب أن يمسك به.

ولضيق المجال هنا، نحيل الذين يريدون التوسع في معرفة تقاليد القهوة العربية إلى كتاب كامل وضعه محمود مفلح البكر سنة 1995م، ويقع في 250 صفحة حول عالم «القهوة العربية» الذي لا يحد.

اغلى أنواع القهوة ثمناً



يعتقد البعض أن جودة القهوة التي نشربها تعود إلى أشكال التحميس والتحضير. ولكن الاختلافات الكبيرة ما بين أنواع البن تبدأ في الشتلات نفسها والظروف المحيطة بنموها مثل التربة والمناخ ووقت القطاف وغير ذلك.

والشائع عالمياً أن أفضل أنواع البن هو ذلك الذي يقطف في الجبل الأزرق في جمايكا. ولكن في العام 1994م، وبعد ثلاثة عشر عاماً من البحث، عثر تاجر يُدعى مارك مونتانوس في أوروبا على سمسار هولندي عرض عليه كمية ضئيلة من البن الأخضر من نوع «كوبي لواك» الأندونيسي النادر جداً، والذي لم يسمع به إلا قلة من الخبراء في العالم. واشترى مونتانوس 35 كيلوغراماً من هذا النوع بسبعة آلاف دولار أمريكي، ليعيد بيعه بالمفرق وبسعر الكلفة تقريباً أي بحوالي 200 دولار للكيلو الواحد.

أدوات القهوة والشاي

يُروى أن ملك فرنسا لويس الخامس عشر كان يحضّر قهوته بنفسه، فيحمس بذور البن في مقلاة مصنوعة من الفضة، ويطحنها في مطحنة من الذهب. ولكن في عالم صناعة أدوات القهوة والشاي، هناك مادة انتصرت عالمياً واكتسحت الذهب والفضة في طريقها: البورسلين.

كان الصينيون واليابانيون القدامى يشربون الشاي في فناجين من السيراميك المغطى بطبقة زجاجية. وعندما وصلت القهوة إلى اسطنبول كانت صناعة السيراميك المطلي بالزجاج مزدهرة في مدينة إزنيك. وبفناجين من هذا السيراميك الفاخر شرب العثمانيون ومعاصروهم في القرن السادس عشر القهوة. ولأن الفنجان كان آنذاك من دون «أذن» يمسك بها، كان يوضع في إطار معدني مزخرف وسميك يحمي الأصابع من حرارة المشروب.

في مطلع القرن السادس عشر الميلادي عاد التجار الأسبان والبرتغاليون من رحلاتهم الشرقية بعينات من البورسلين. ولكن هذه المادة لم تستطع أن تنافس السيراميك إلا في القرن التالي عندما كثر استيرادها وبدأت أوروبا بإنتاجها مما خفض ثمنها. ومنذ القرن الثامن عشر انتصر البورسلين على كل ما عداه في صناعة أدوات شرب الشاي والقهوة، إذ بدا مادة مثالية بسبب بياضه الجميل، وقابليته للرسم عليه، وسهولة تنظيفه، وحفظه للحرارة أكثر من الزجاج والمعدن. وفيما أضاف الأوروبيون إلى الفنجان مسكة على شكل «أذن» بعدما أصبح الفنجان رقيقاً يحرق الأصابع، أبقى العرب على فنجانهم التقليدي من دون إضافة يمسك بها، ولكنهم أبقوا أيضاً على سماكته التي تحمي الأصابع من الحرارة وهو ما يعرف عند العامة باسم «فنجان الشفة» لأنه صغير الحجم ويتسع لرشفة قهوة واحدة..



مطحنة بن يدوية

ولكن قبل وصول القهوة أو الشاي إلى الفنجان هناك مجموعة أدوات تصنع عالمهما. فإذا كانت آلة تحميس البن مقلاة نحاسية ذات ذراع طويلة، أو اسطوانية الشكل تدار فوق النار، فإن أدوات غلي القهوة والشاي تحوّلت إلى فن قائم بحد ذاته. أبسط أدوات غلي الشاي هو الإبريق المعدني الذي لم يتغير كثيراً منذ قرون. وأكثرها تعقيداً وأبهة هو السموار الذي يؤمن خزاناً من الماء الساخن تحت إبريق الشاي.

أبسط أوعية غلي البن هي التي تسمى في بلاد الشام «الركوة»، وفي مصر «الكنكة»، وفي اسطنبول «كزفي»، والتي كانت ولا تزال تصنع من النحاس، الذي بدأ الستانلس ستيل غير القابل للصدأ ويتطلب عناية أقل ينافسه.

أما أشهر أدوات غلي القهوة فهي ولا شك الدلة العربية على اختلاف أشكالها.

الدلة

تعتبر الدلة بحق تحفة صناعة أدوات القهوة. نجد منها اليوم أشكالاً مختلفة يرتبط بعضها بأسماء الحرفيين النحّاسين الذين صمموها، ويرتبط



السموار.. أفخم أدوات تحضير الشاي

بعضها بأسماء مدن أو مناطق اشتهر نحاسوها بصناعة الدلال وفق مواصفات محددة.

تعود الدلال الأولى إلى القرن السادس عشر الميلادي على الأرجح، ولكنها لم تبلغ اكتمالها الفني إلا في القرن التاسع عشر، بدليل أن صنّاع الدلال المشهورين الذين نسبت إليهم بعض الدلال لا يعودون إلى قبل ذلك.

ومن أشهر أنواع الدلال:

1- الصالحانية، وتتميز بفوهة واسعة وخصر ممتلئ وقاعدة رحبة. يقال أن مبتكرها هو محمد آغا الصالحاني في القرن التاسع عشر في دمشق.

2- البغدادية أو الرسلانية، وهي صغيرة القاعدة وفوهتها متناسبة السعة مع قاعدتها، وغطاؤها أشبه بقبة يرتفع منها عامود طويل نسبياً. يُنسب ابتكارها إلى أبو حسن رسلان الذي درس الصنعة عند معلم من عائلة المهدي التونسية في دمشق. ومن المرجح أنه كان متقناً في صناعة نموذج معروف آنذاك في العراق، فأعطاه اسمه. وراج هذا الطراز في الخليج العربي بشكل خاص.

3- الحسوي، نسبة إلى منطقة الأحساء، ويشبه البغدادي من حيث القاعدة والفوهة، إلا أن الخصر أكثر تحدباً، وعامودها أقصر.

4- الاسطنبولي، نشأ في العاصمة العثمانية ومنها انتقل إلى البلاد العربية. يتميز الاسطنبولي بقاعدة عريضة أشبه بتطابق صحنين، ونصف الدلة الأعلى أشبه باسطوانة صغيرة القطر، والحس الزخرفي فيها طاغ.

وبشكل عام يمكن القول أن الدلة وصلت في تطورها الفني إلى مستويات شكلية ذات جمال يجعل منها أداة زينة إضافة إلى مهمتها الوظيفية. فنراها كبيرة الحجم وكأنها مجسم لتزيين واجهة متجر أو ساحة عامة، وصغيرة على شكل حلي من الفضة والذهب.

وقبل أن نختتم هذا الجانب من الموضوع، نشير إلى أن العرب أولوا أدوات القهوة من الأهمية الرمزية ما لم تحظ به في الحضارات الأخرى. فلو أخذنا المهباش مثلاً لوجدنا أنه يصبح عند بعض القبائل رمز كرامة صاحبه وسيادته. ومن الحكايات المعبّرة في المجال يُروى أن كليب الشريدة شيخ منطقة الكورة في بادية الشام عندما أعلن عصيانه عام 1923م على إمارة شرقي الأردن وقضى الجيش على حركته واستولى على مهباشه، كان أول ما طالب به لتسوية الأمور أن يعيد قائد الجيش المهباش الذي أخذه، فأعيد بأمر شخصي من الأمير.


المحترف السعودي

الاكسبرسو.. من أكثر أشكال تحضير القهوة رواجاً في العالم

الكاكاو المفترى عليه

والافتراء حصل في هذا الملف الذي لم يتسّع كفاية لإعطاء الكاكاو المجال الذي يستحقه من الاهتمام.

فهو الأخ الثالث للقهوة والشاي، يلتقي معهما في صفات عديدة أبرزها لذة الطعم كمشروب، واحتوائه على الكافيين كواحد من أبرز عناصره.

ومثل القهوة والشاي، يشرب الكاكاو ساخناً بعد تذويب كمية صغيرة منه بالماء الساخن، ومثلهما يُحلّى بالسكر لمن يشاء.. وكما تعطر القهوة بالهال، والشاي بالنعناع مثلاً، للكاكاو عطره الخاص: الفانيليا ذات الرائحة العطرة الزكية. ولتلطيف مرارة مذاقه يميل البعض إلى خلطه بالحليب أو النشويات إضافة إلى السكر.

تعود أصول الكاكاو إلى هنود أميركا الوسطى الذين اتصل بهم الأوروبيون عند اكتشافهم لأمريكا. ومن هناك نقلة المستكشفون الأسبان إلى بلادهم في مطلع القرن السادس عشر الميلادي لينتشر استهلاكه لاحقاً في أنحاء العالم.

وإذا كان الكاكاو لم يتمكن من منافسة القهوة والشاي كمشروب ساخن، واكتفى بالبقاء في المرتبة الثالثة وعلى مسافة ملحوظة من المشروبين السابقين، فإنه يتمتع بميزة خاصة أمّنت له رواجاً عالمياً لا يُقاوم، وهي أنه يؤكل صلباً على شكل قطع صغيرة بنية اللون تحمل إسماً واحداً في كل لغات العالم وثقافاته: الشوكولاتة.. التي تحولت إلى صناعة عالمية لا يخلو من منتجاتها أصغر دكان في أي مكان على وجه الأرض.

في القهوة..

قال برهان الدين المبلط المتوفي سنة 948هـ:

ياعائباً لسواد قهوتنا التي
فيها شفاءُ النفس من أمراضِها
أو ما يراها وهي في فنجانها
تحكي سوادَ العينِ وسطَ بياضها

كما قال أيضاً:

أرى قهوةَ البنِّ في عصرنا
علي شربها الناس قد أجمعوا
فصارت لشُرَّابِها عادةً
وليست تضرُّ ولا تنفعُ

وقال أحدهم:

رُبَّ سوداءَ في الكؤوس تجلّت
تهَبُ الروحَ نفحةً من حياةِ
عندما ذقتُها تحققت منها
أن ماء الحياة في الظُلُمات

وقال مامية الرومي:

أنا المعشوقة السمرا
وأجلى في الفناجينِ
وعودُ الهندِ لي عطرٌ
وذكري شاع في الصينِ

وقال بعضهم:

سَقَتْني قهوةً في جنح ليل
وفي يدها خَضابٌ كالمدادِ
فقهوتها وكفّاها وليلي
سوادٌ في سوادٍ في سوادِ

وقال أحدهم:

عرّج على القهوة في حانها
فاللُّطف قد حَفَّ بندمانها
فإنها لا همّ يبقى إذا
قابلك الساقي بفنجانها

وبعضهم هجا القهوة والمقاهي:

أقول لأصحابي: عن القهوة انتهوا
ولا تجلسوا في مجلسٍ هي فيهِ
فليست بمكروه ولا بمحرم
ولكن غدت مشروبَ كلّ سفيهِ

ولبعض الأدباء وقد حمل فنجان قهوة لصديق قد سهر جزءاً من الليل:

رأيتك ساهراً والليلُ يجري
على عجلٍ كمن ركبَ الجوادا
ومن يعصِرْ قريحتَهُ بليل
يحنّ لقهوةٍ «سكّرْ زيادة»

.. أو ما يراها
وهي في فنجانها
تحكي سواد العين
وسط بياضها

في الشاي..

وفنجانٍ يُباع بمُلْك كسرى
لذيذِ الطعم والنعناعُ فيهِ
علِقتُ به وحبي فيه يَربو
لِشبهِ الطعمِ فيه طعمَ فيهِ

ومما قاله أحد شعراء الأحساء عند زيارته لبعض أصدقائه وقت الأصيل وقد مالت الشمس إلى الغروب:

رُبَّ ساقٍ ماهر في صنعتهْ
قربتْ آلته من غرّتهْ
عرض الشاهي بوقت شمسُهُ
وهب الشاهي لها من حُمرتِهْ
قال صف لي كأسنا في صحنه
قلتُ: هذا قمرٌ في هالتهْ

وقال محمد أفندي جادالله:

أينكر إكسيرٌ ويودي به النكر
وفي الشاي آياتٌ يَحار بها الفكر
تأمّلْ تجدْ ما قيل فيه بعينه
بهاً بيّناً كالشمس يظهرها الظهرُ

وقال أحدهم:

وسوداءَ قبل الطبخ حمراءَ بعده
بدت بين أحباب كرام نجائبِ
وأعني بها الشايَ المباحَ شرابُه
فشربُك ينفي عنك همّ النوائبِ
ثلاثة أقداح وإن شئت رابعاً
فهذا نصاب الشاي عند المذاهبِ

وقال غيره:

نعنِع الكأس إن أردت سقاءنا
لا خير في كأس بلا نعناع
وإذا أردت قرابتي ومودتي
زدني على ثلثيها برباع

نعنع الكأس إن
أردت سقاءنا
لا خير في
كأس بلا نعناع

مقهى شامي من القرن التاسع عشر

المقاهي

عندما قام السوريان حكم وشمس بافتتاح أول مقهى في اسطنبول سنة 1554م، لم يعرفا آنذاك أنهما كانا بصدد تأسيس صناعة جديدة ستكتسح بسرعة كل مدن العالم وعواصمه، وستستمر في النمو والانتشار على مدى قرون عدة من دون أية عودة إلى الوراء، حتى بات يمكن القول إنها أكبر صناعة في التاريخ من دون منازع.

في القرن السابع عشر، عرفت العواصم الأوروبية مقاهيها الأولى متأخرة نحو قرن عن البلاد العثمانية وأكثر من قرن ونصف القرن عن الحجاز والقاهرة ودمشق. ومعظم مؤسسي المقاهي في أوروبا كانوا من رعايا الدولة العثمانية. ومن أشهر التواريخ في هذه المسيرة ما يأتي:

1650م: افتتاح أول مقهى في أوكسفورد في بريطانيا على يد يهودي لبناني يدعى جاكوب.
1670م: افتتاح مقهى «هوب» في أمستردام، والذي لا يزال قائماً حتى اليوم كأقدم مقهى في أوروبا.
1672م: أرمني يُدعى باسكال يبيع القهوة لأول مرة في باريس في أحد أجنحة معرض سان جيرمان.
1673م: هولندي يدعى جان دانتز يفتتح أول مقهى في بريمن بألمانيا.
1683م: أول مقهى في البندقية.
1685م: افتتاح أول مقهى في ڤيينا على يد أرمني يدعى يوهانس ديوداتو. وفي السنة نفسها تأسس في لندن مقهى «لويد» الذي تحوّل هو نفسه لاحقاً إلى أكبر شركة تأمين في العالم.
1689م: افتتاح أول مقهى في أمريكا: «المقهى اللندني» في بوسطن.

واليوم..
صارت المقاهي من معالم كافة مدن العالم. تتكاثر في الشوارع الأكثر حيوية ونشاطاً، وربما كان وجود هذه المقاهي هو ما يغذي حيوية هذا الشارع أو ذاك. ولو أخذنا فرنسا مثلاً، لأشرنا إلى أنه بحلول نهاية القرن العشرين كان عدد المقاهي فيها قد وصل إلى 70 ألف مقهى، يرتادها يومياً خمسة ملايين نسمة، ويرتفع هذا العدد في بعض أيام المواسم السياحية إلى عشرين مليوناً.!

جاذبية لا تقاوم

لا بد للمرء أن يتساءل عن سبب رواج المقاهي وتفشيها أينما كان رغم الاختلافات الثقافية والحضارية في أصقاع الأرض كافة.

الواقع أن للمقاهي ميزات أمّنت لها انتصارها التاريخي هذا. من هذه المميزات ما هو مشترك في ما بينها، ومنها ما هو خاص بمجموعات محددة منها.

فالمقهى عموماً هو منطقة وسطى بين المنزل ومكان العمل، يحمل الكثير من حسنات الاثنين من دون ضغوطهما. وهو مفتوح للجميع مقابل دراهم قليلة بغضّ النظر عن مستوى مرتاديه واهتمامات كل واحد منهم. كما أنه من الأماكن العامة التي لا يثير ارتيادها أية أسئلة على الصعد الأخلاقية.

يُقصد المقهى لألف سبب وسبب. للاستراحة خلال التجوال في الأسواق، للاستراحة من ضغط العمل، لتمضية بعض أوقات الفراغ، للقاء بعض الأصدقاء، للاجتماع بضيف يتعذر استقباله في البيت لسبب من الأسباب، للترويح عن النفس..

ومهما كان شكل فنجان القهوة أو الشاي في المقهى، فلا بد من أن يرافقه الكلام.. الكثير من الكلام. فالمقهى هو لشرب القهوة أو الشاي والكلام.. الكلام في الشؤون العامة أو الخاصة، في الثقافة، في أخبار المجتمع، وحتى في العمل.. والكلام في المقهى غالباً ما يكون ودياً، من دون تكلفة ولا رسميات حتى ولو كان بحثاً في شؤون العمل ما بين رئيس ومرؤوس.

وفي كثير من المدن هناك مقاه يطغى على زبائنها لون مهني أو اجتماعي محدد. ففي القاهرة ودمشق مثلاً هناك مقاه شبه متخصصة في استقبال بعض أصحاب المهن المحددة مثل مقهى النحاسين، أو مقهى النجارين.. وهناك مقاه نالت شهرتها من الأدباء والفنّانين الذين كانوا يرتادونها مثل مقهى «الفيشاوي» في خان الخليلي بالقاهرة، و«الهورس شو» في بيروت خلال الستينيات من القرن الماضي. ومع ذلك فلا شيء يمنع النجّار أو الدهّان من دخول مقهى الفيشاوي والجلوس بجوار نجيب محفوظ. وإذا كان مقهى «الديرية» في ساحة المرجة في دمشق مخصصاً لاستضافة الوافدين إلى العاصمة من أبناء منطقة دير الزور البعيدة، فلا شيء يمنع وجود مهندس ألماني أو رجل أعمال فرنسي بين الزبائن. فالمقهى مؤسسة ديموقراطية، رحبة الصدر، لا تشترط على الداخل غير جواز سفر بسيط: فلوس قليلة تكفي لتسديد ثمن فنجان القهوة، ومقابل هذه الفلوس القليلة ينعم الزبون بالقهوة أوالشاي الذي يأتيه من دون عناء تحضيره ولا عناء غسل الآنية لاحقاً، وكأنه سيّد من عليّة القوم..


من لندن إلى القاهرة.. المقهى للقهوة والشاي والكلام..

ومما عزز قوة المقاهي بشكل عام هو أنها ومنذ القدم، راحت تقدم إلى زبائنها مشروبات أخرى غير القهوة التي تحمل اسمها مثل الشاي والكاكاو والمرطبات المختلفة، وأخيراً الأطعمة الخفيفة والحلويات، مما زاد في عدد مرتاديها لأهداف مختلفة. ولكن يبقى فنجان القهوة عموماً هو العامود الفقري للمقهى، لأي مقهى في العالم.

ولعل أفضل ما يلخص انتصار فكرة المقهى يأتي من الشرق الأقصى ومن اليابان تحديداً. فقد عرف اليابانيون القهوة سنة 1724م. ولكنهم بقوا على ميلهم التقليدي المعروف للشاي ولا مبالين تجاه المشروب الجديد، بحيث أنه في العام 1888م لم يكن في طوكيو كلها غير مقهيين اثنين «كاميساكان» أي بيت القهوة والشاي. وحتى مطلع النصف الثاني من القرن العشرين بقي عدد المقاهي محدود نسبياً، ومعظمه كان لخدمة السياح الأجانب. ولقلة المقاهي وعدد مرتاديها كان معدل ثمن فنجان القهوة في المقاهي اليابانية آنذاك نحو خمسة دولارات للفنجان الواحد! ولكن ما الذي حصل بعد ذلك؟

مُعلّم المقهى

في مطلع القرن العشرين وضع الموسيقار الشهير سيّد درويش أغنية خاصة تكريما لعمال المقاهي، الذين يُنادَون بألقاب مختلفة بين بلد وآخر منها: غارسون بالفرنسية، ستيوارد بالإنجليزية، نادل بالعربية وحتى مُعلّم إذا كان عامل المقهى كبيراً في السن.

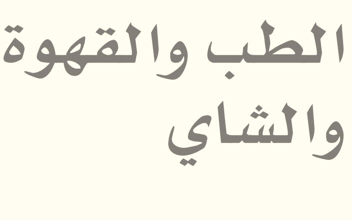
يرحّب بالزبون، يتلقى أوامره، يدونها على ورقة أو يحفظها غيباً، ينقل الأوامر إلى المطبخ، لا ينتظر انتهاء القهوة بل يركض مجدداً صوب زبون يريد تسديد الحساب للانصراف، يدس الفلوس في جيبه وهو يهرع إلى زبون جديد دخل لتوه، وفي هذه الأثناء يكون المطبخ قد جهّز الطلب السابق، وفيما هو متجه إليه لحمله إلى الزبون، من المحتمل أن يسمع لوماً من أحد الزبائن لم تعجبه قهوته.. فعامل المقهى يمضي يومه وهو في حركة لا تهدأ بين الزبائن والطاولات.



حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان هؤلاء يؤدون أعمالهم بملابسهم العادية. ولكن في عهد نابليون الثالث صدر في فرنسا تشريعاً يفرض على عمال المقاهي توحيد ملابسهم لتسهيل تمييزهم عن الزبائن. وكانت هذه الملابس آنذاك عبارة عن بذلة سوداء وقميص أبيض ومئزر أبيض طويل من الخصر إلى الأرض. ولكن تم التخلص من المئزر لاحقاً. وأبقي على الزي الموحد، مع ميل واضح في العصر الحديث إلى استعمال الألوان الزاهية في ملابس هؤلاء.

أما أبرز الصفات التي يجب أن يتميز بها عامل المقهى فهي: النشاط، الصبر، الرصانة، كتمان الأسرار، ومعرفة أذواق الزبائن وعاداتهم.

سيدات يحتسين القهوة في جزر الأنتيل في لوحة تعود إلى العام 1775م



الطب والقهوة والشاي

كان ملك السويد غوستاف الثالث (1746 – 1792م)، يصرّ على أن القهوة مشروب سام. ولإثبات صحة رأيه أمر بتقديم القهوة يومياً إلى أحد المجرمين المحكومين بالإعدام حتى يموت. ولكي يتخذ الاختبار صفة علمية، أمر الملك بتقديم الشاي إلى مجرم آخر، وعيّن طبيبين لمراقبتهما ومعرفة من سيموت أولاً. ولكن الذي حصل هو أن الطبيبين ماتا لاحقاً، كما اغتيل الملك قبل وفاة أيٍ من المحكومين بالإعدام اللذين عاشا طويلاً، إلى أن مات شارب الشاي أولاً عن عمر يناهز الثلاثة وثمانين عاماً..

في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، انطلقت في اليابان شبكة مقاه جديدة تحت اسم «دوتور»، معلنة أن من أهدافها بيع القهوة بأقل من نصف ثمنها عند المنافسين (1.8 دولار). وخلال سنوات قليلة وصل عدد مقاهي هذه الشبكة إلى خمسمائة مقهى، وراحت تفتح خمسة مقاهٍ جديدة كل شهر. وكأنه كان هناك احتقان تاريخي نتيجة الإحجام عن القهوة وارتياد المقاهي، وانفجر هذا الاحتقان دفعة واحدة، إذ بات اليوم في طوكيو وحدها 16 ألف «كوهي»، في حين ينتشر نحو 100 ألف مقهى آخر في أرجاء اليابان. وتقدر «شركة القهوة اليابانية» حجم صناعة القهوة في اليابان حالياً بنحو تريليون ين (10 بلايين دولار)!.

من الذين انتبهوا إلى انفجار هذا الاحتقان ورغبوا في الاستفادة منه، كان هناك شركة «ستاربكس» الأميركية التي أطلت برأسها في اليابان سنة 1995م. وألقى رئيس فرعها الياباني يوجي تسونادا خطاباً ترويجياً آنذاك تركز على موضوعين: نمط الحياة الجديدة في البلاد، والخبرة الكبيرة التي تتمتع بها شركته في صناعة قهوة «الاكسبرس». ولكن، وإن بدا هذا الكلام أشبه بخطاب مسؤول علاقات عامة، فيجب الاعتراف أن تغير أنماط الحياة، والأجواء المشحونة بتجارب جديدة والخبرات في صناعة القهوة كانت ولا تزال ترتبط بثقافة المقهى من الحجاز في القرن السادس عشر إلى أوروبا في القرن الثامن وصولاً إلى ما أصبح عليه العالم اليوم.

والواقع أن مضار القهوة والشاي وفوائدهما كانت موضع اهتمام الأطباء والباحثين منذ ما قبل ابن سينا وحتى اليوم. وفي هذا المجال تسجل الدراسات كل يوم نتائج جديدة تصبّ تارة في خانة تشجيع استهلاك هذا المشروب، أو تحذر من الإفراط في استهلاك ذاك. ونبدأ بالحديث عن المادة التي يعرفها الجميع: الكافيين، لأن ما نسميه أدبياً عادة شرب القهوة والشاي، يسميه الطب «الإدمان على الكافيين».

كان الشاعر الألماني الشهير غوته هاوي علوم أيضاً، وهو أول من تولدت عنده القناعة بأن القهوة تتضمن مادة كيميائية يمكنها إذا ما تناولها أحد في شكلها الصافي أن تؤدي به إلى اضطرابات خطيرة. وفي أحد الأيام من سنة 1819م التقى الشاعر الكبير بعالم كيمياء شاب يُدعى فردليب فرديناند رونج في الخامسة والعشرين من عمره. وبعدما أثار الشاب إعجاب الشاعر الكبير بسعة علمه، أعطاه هذا الأخير حفنة من بذور القهوة طالباً إليه تحليلها واستخراج ما فيها من مواد كيميائية خاصة بها. وخلال فترة وجيزة تمكن رونج من اكتشاف الكافيين وعزله. وفي سنة 1827م، تمكن عالم آخر يُدعى أودري من اكتشاف مادة مشابهة في الشاي أسماها «تايين» ظناً منه أنها تختلف عن الكافيين، ولكن باحثاً ثالثاً يُدعى جوبات أكد لاحقاً أن الكافيين والتايين مادة واحدة.



ملك السويد غوستاف الثالث



الشاعر الألماني غوتة الذي كان الدافع لاكتشاف الكافيين

الكافيين الصافي مسحوق بلوري أبيض اللون وسام، يذوب في الماء المغلي. وهو موجود في نباتات أخرى غير الشاي والقهوة، ويدخل في صناعة مشروبات غيرهما، مثل الكاكاو والكولا.

عند تناول أي مشروب يحتوي على الكافيين، فإن هذه المادة تنتقل فوراً وبسرعة إلى الدم الذي يوزعها على كافة أنحاء الجسم. ويبلغ معدل الكافيين ذروته في الدم بعد مدة تتراوح ما بين 30 و 60 دقيقة على تناول المشروب. وبعد 12 ساعة، يكون الجسم قد استهلك كل الكافيين وتخلّص منه. والمعروف أن استهلاك كمية قليلة من الكافيين، تؤدي إلى زيادة نشاط الجهاز العصبي، مع ما يستتبع ذلك من شعور بالحيوية والقوة، وإنعاش للذاكرة، وطرد للخمول والنعاس، وتسكين بعض أنواع الصداع. كما أن تناول القهوة صباحاً ينشّط الجهاز الهضمي ويساعد على طرد البراز.

ولكننا نشير للذين لا يؤمنون بسميّة الكافيين إلى أن استهلاك نصف غرام منه يومياً (أي محتوى خمسة فناجين متوسطة) يؤدي إلى شعور بالكآبة والحساسية المفرطة. أما استهلاك غرام واحد من الكافيين (أي ضعف هذه الكمية) من قبل شخص غير معتاد على شرب القهوة أو الشاي، فيؤدي به ليس فقط إلى فقدان النعاس، بل أيضاً إلى طنين في الأذن، هلوسة صورية في العين، ارتفاع في الحرارة، وسرعة خفقان القلب. أما الجرعة القاتلة بالنسبة لشخص يزن 80 كيلوغراماً فهي في حدود 10 غرامات تقريباً.

من ناحية أخرى، فإن التوقف المفاجئ عن تناول الكافيين بعد الاعتياد عليه، يؤدي إلى أوجاع في الرأس، والتوتر العصبي وصعوبة التركيز.

وتؤكد الاستطلاعات أن تسعة أعشار سكان العالم معتادون على الاستهلاك اليومي للكافيين. وإذا كان ثلاثة أرباع الكافيين الذي يستهلكه الإنجليز يصلهم عن طريق الشاي والباقي عن طريق القهوة، فإن 85 في المئة من الأمريكيين يشربون القهوة مرة في اليوم على الأقل. وترتفع هذه النسبة في أوروبا الشمالية لتصل إلى 92 في المئة في السويد وفنلندا.

ونختم الحديث عن هذا الجانب العلمي بلمسة متفائلة. فالشاي يتضمن إضافة إلى الكافيين مجموعة مواد أخرى ينسب إليها الأطباء قدرات علاجية عديدة، منها أن تناول الشاي بانتظام يؤدي إلى تخفيض نسبة الكوليسترول في الدم بنسبة عشرة في المئة. كما أن فائدته معروفة في مجال المساعدة على هضم الأطعمة الثقيلة على المعدة. ولذا يحرص الكثيرون على اختتام وجبة الغداء بفنجان شاي.

وأكدت دراسة أجريت في هولندا العام الماضي وتناولت 4807 أشخاص، أن أولئك الذين يتناولون 13 أونصة من الشاي يومياً (حوالي 400 غرام)، يصابون بنصف عدد النوبات القلبية التي يصاب بها أولئك الذين لا يشربون الشاي.

وتقول دراسة أخرى أجريت في اليابان إن تناول عشرة أكواب صغيرة من الشاي الأخضر يومياً يؤخر معدّل سن الإصابة بالسرطان حوالي 9 سنوات عند النساء و3 سنوات عند الرجال. وتذهب دراسة أجريت في كندا إلى أن تناول ثلاثة أقداح من الشاي يومياً يخفض نسبة الإصابة بسرطان البروستات عند الرجال بنسبة 30 في المئة تقريباً.

وإذا كان بعض نتائج مثل هذه الدراسات يبقى موضع نقاش في صفوف الأطباء، فإن هناك ما يشبه الإجماع على أن الفلورايد الموجود في الشاي يأتي مصاحَباً بمجموعة مواد قاتلة للبكتيريا التي تلتصق بالأسنان، وتساعد الفلورايد على محاربة التسوس.



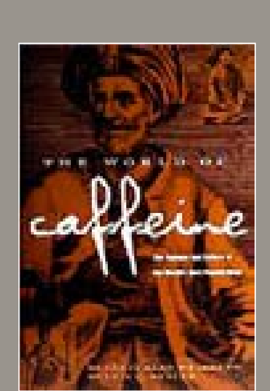
كتب حول القهوة والشاي

ألف باء القهوة

كتاب صغير وأنيق من تأليف آلان ستيلا، أصدرته دار فلاماريون في باريس سنة 1998م.

يقع الكتاب في 120 صفحة، ورتبت موضوعاته بالتسلسل الأبجدي كما لو كان قاموساً حول القهوة وتاريخها وصناعتها وأدواتها وزراعتها.. الخ. كما يحمل على غلافه الداخلي الأول جدولاً بالمقاهي التي تقدم أفضل قهوة في العالم، وعلى غلافه الداخلي الأخير خارطة تظهر انتشار زراعة البن في العالم.

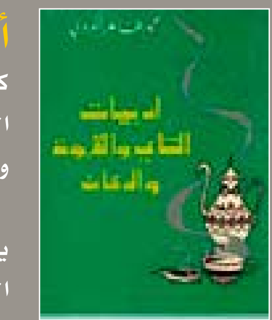
ويزدان الكتاب بمجموعة ممتازة من الصور الفوتوغرافية القديمة والحديثة المكملة للموضوع، والتي ترافق كل بند من بنود هذا القاموس الجميل. وفي إطار السلسلة نفسها، أصدرت الدار كتاباً مماثلاً عن الشاي.



عالم الكافيين

كتاب ضخم من 384 صفحة ومرجع ثقافي وعلمي ممتاز للقهوة والشاي والكاكاو. لم يترك شاردة ولا واردة في طبيعة هذه المشروبات وتاريخها منذ ظهور استعمالاتها الأولى في المشرق العربي والشرق الأقصى وأميركا الوسطى، ومسارات انتشارها ما بين مختلف الحضارات وصولاً إلى آخر ما توصل إليه العلم حول آثار مادة الكافيين الموجودة في هذه المشروبات والتي تجمع ما بينها.

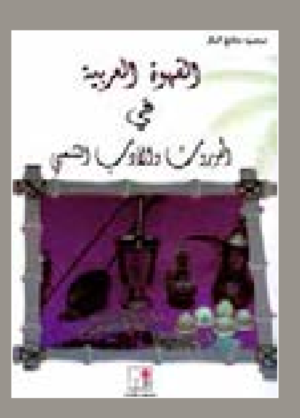
من تأليف بينيت واينبرغ وبوني هيلر، صدر عن دار روتلدج سنة 2001م.



أدبيات الشاي والقهوة والدخان

كتاب لطيف من تأليف محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي، صدر عن الدار السعودية للنشر في جدة سنة 1950م وأعيد طبعه سنة 1967م.

يتضمن تعريفاً مختصراً بالقهوة والشاي، ومجموعة من القصائد القصيرة وأبيات الشعر التي قيلت فيهما، ومعظمها يعود إلى القرون الثلاثة الأخيرة، ويقع في 176 صفحة.



القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي

يقتصر هذا الكتاب على عالم القهوة العربية وأدواتها وتقاليد تحضيرها وضيافتها وقيمتها الاجتماعية.. ومع أنه لم يتطرق إلى القهوة في العالم عموماً، ولا حتى إلى ما هي عليه في المدن والحياة الحديثة، فالكتاب يقع في 254 صفحة ليتسع لغوص معمق في أنواع الدلال وصفات كل طراز منها، واختلاف تقاليد تحضير القهوة وتقديمها ما بين قبيلة وأخرى، وتنوع أشكال التمثل بالقهوة وأدواتها ما بين بادية وأخرى.. كما يتضمن مقتطفات شعرية عديدة، معظمها بالعامية..

من تأليف مفلح البكر، صدر عن مكتبة بيسان في بيروت سنة 1995م.

القهوة والشاي في الإنترنت..

يوجد على شبكة الإنترنت أكثر من ثلاثين مليون موقعاً للقهوة ونحو ثمانية ملايين موقعاً للشاي، الأمر الذي يؤكد اتساع عالم موضوع هذا الملف..

Al-Qafila

Saudi Aramco
Cultural Magazine

Published bi-monthly

July-August 2003
Vol 52 issue no. 3

